فقهُ الحياةِ

فِقْهُ الحَيَاةِ

سلمان العودة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم: أ.د. عصام أحمد البشير

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، والصّلاةُ والسّلامُ على سيّدِ المرسلين نبيِّنا محمّدٍ، وعلى آلِه وصحبِه أجمعين، ومن تَبِعَهم بإحسانٍ إلى يوم الدّين..

أمّا بعد:

فإنَّ الله تعالى حين خلقَ الإنسانَ جعل له من مقوِّماتِ البناء والتّكوين ما يُدركُ به حقيقةَ الوجودِ ودلائلَه، ومكَّنه من امتلاك مؤهّلاتٍ تأخذ به إلى آفاقِ الاستخلافِ الفاعلِ وأدواتِه، فكان من معالم تأهيله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ لتَبيُّن الخلقِ ومكوّناتِه، وربَّاه بنعمِه وآلائِه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾؛ برهانًا وبيّنةً على تكريمِه، وتفضيلًا على سائرِ خلقِه، وأتمَّ عليه النّعمةَ بإنزالِ وحيِه: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾، استمساكًا بمنهجِ هدايتِه، الذي يُعرِّفه بمسالكِ سيرِه في دنياه وآخرتِه.

إنّها الحياةُ حينَ يفقهُها الإنسانُ، فيُحرّكُها بفطرتِه السّليمةِ، ويُزكّيها بإيمانِه

الوثيق؛ ليَنْظُمَ نفسَه في مساراتِ استقامتِها، ومداراتِ إذعانِها لرّبها، فيرسمَ بها قسماتِ وجودِه توحيدًا وصلاحًا وإصلاحًا، ﴿**هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا**﴾، إنّه المؤمنُ الذي يُمثّلُ فحوى الحياة..

إنّه فقهُ الحياة...

تلك كلماتٌ وعباراتٌ وإشاراتٌ جالَ بها الخاطرُ عفوًا؛ مُمهِّدًا بها تقديمًا أراه حقًّا واجبٌ وفاؤُه، وطلبًا فرضٌ جوابُه، لكتاب «فقه الحياة» لفضيلةِ الشّيخِ الحبيبِ الدّكتور سلمان العودة حفظه الله... وهو تقديمٌ أجدني فيه مضطرًا إلى بيانِ مزايا الكتابِ وسماتِه، وما حواه من أنواعِ الفقهِ وبيّناتِه، وما ضمَّنه من أفانينَ في نصوصِه ومفاهيمِه.

إنَّ العالمَ الإسلاميَ يعيش اليومَ حياةً مضطربة، وفتنًا ملتهبة، وعواصفَ مُلبِّبة، فيتربص به الأعداءُ من داخلِه عِلَلًا وأدواءً، ومن خارجِه استهدافًا وإغواءً، مستهدفين عقيدتَه تشويهًا، وقيمَه نقضًا، وثوابتَه نسفًا، وتراثَه ازدراءً، فتؤولُ أجيالُه إلى الانسلاخِ من أصولِها الفطريّة، ومناهجِها الرّبانيّةِ، فتقع فريسةً لخططِ الأعداءِ إفراطًا أو تفريطًا، طغيانًا أو خسرانًا.

وكان لزامًا بإزاءِ ذلكَ أنْ يتصدّى العلماءُ الرّبانيّون لبيانِ الإشكالات، وتصحيحِ المفاهيم، وتأصيلِ الرّؤى، وتثبيتِ المناهج؛ لتوجيه التّناولِ على مستوى الفكرِ والنّظرِ، والمعالجةِ في ضَوءِ القواعدِ الشّرعيّةِ، والمقاصدِ الكُلّيّةِ، الرّاعيةِ لمُتطلّباتِ الواقعِ المعاصر في سياقاتِه التّنزيليّة؛ بغيةَ ترشيدِه وتصحيحِ مساراتِه.

وكان من هؤلاء ـ فيما نحسبُ، واللهُ حسيبُه ـ فضيلةُ الشّيخِ الدّكتور سلمان العودة، الذي أُوتيَ علمًا وبيانًا استثمرَه ـ بتوفيقٍ من اللهِ ـ في معالجةِ كثيرٍ من

الانحرافاتِ الفكريّةِ والحركيّةِ، من خلال استقراءِ الواقعِ وتتبّعِه، والوقوفِ على قضاياه وإشكالاتِه، ومعايشةِ الشّبابِ وما عرضَ عليه من الدّواخلِ التي تستدعي تسديدًا في الفكرِ، وترشيدًا في المنهجِ، واعتدالًا في الممارسةِ.

لقد كانَ لفقهِ الحياة دورُه في وعي الشّيخِ وسعيه، إذ عايشَه بنظرٍ ربّانيّ، ومسلكٍ عِرفانيّ، وقدَّمَه لأُمّتِه مُبيّنًا أنَّ الحياةَ منحةٌ إلهيّةٌ، وعطيّةٌ ربّانيّةٌ، يلزم التّعاملَ معها بمنهجيّةٍ بانيةٍ، وكان نذيرًا للأُمّةِ وأجيالِها من اختلالِ ميزانِ الحياةِ بتجاوز فقهِ البناءِ لصالحِ فقهِ التّضحيةِ، بَيْدَ أنَّها في أمَسِّ الحاجةِ إلى مشاريعَ حياتيّةٍ: فردًا وجماعةً، سياسةً واقتصادًا، علمًا ودعوةً، حقوقًا وواجباتٍ، صناعةً وتقنيةً...

وكانت ضميمة هذا الكتاب محاضرات ألقاها الشيخ، ومقالات كتبها في أوقات متفرقة، ثُمّ تمّ جمعها في هذا الكتاب، لوجود العقد الناظم لها، والجامع لشتاتها، وهو مضمونها الواسع «فقه الحياة».

وكشأنِ مرقوماتِه وأُكتُوباتِه جاءت مدوّنتُه «فقه الحياة»؛ لتعكسَ همَّه الذي عايشَه في مسيرةِ دعوتِه، فجادت قريحتُه بجمعِ أنواعٍ من الفقهِ الذي يَلِجُ عالمَ الفكر بما استحكمت فيهِ من عللٍ، وعالمَ الفعل بما اعتلاه من خطلٍ، جاعلًا إيّاها في ناظمٍ جامعٍ بنهجٍ رصينٍ، وتعبيرٍ مُبينٍ، وأدبٍ متينٍ، وأسلوبٍ مُيسّرٍ مكينٍ، فضمَّنها «فقه الحياة»، واشتملَ على أنماطٍ من فقهٍ في عالمِ التّصوّراتِ ومسالكِ التّصرّفاتِ، منها: (فقهُ الحياةِ، وضغوطُ الحياةِ، وفقهُ الموقفِ، وفقهُ الجهادِ، وفقهُ الأولويّاتِ، وفقهُ الموازناتِ، وفقهُ الأزماتِ، وفقهُ التّعاملِ، وفقهُ التّدينِ، وفقهُ الاستطاعةِ، وفقهُ التّيسيرِ).

وكانَ يسعُه أن يُضيفَ أنواعًا من الفقهِ؛ ليكتملَ العِقْدُ بها، وإن جاءت إشاراتٌ لها في أثناءِ كتابِه، منها: فقهُ الواقعِ، وفقهُ المقاصدِ، وفقهُ السُّننِ، وفقهُ الميزانِ، وفقهُ المآلِ...

إنَّ المُتأَمِّلَ في كتابِ اللهِ يجدُ نوعين من الفقهِ، هما: فقهٌ عن اللهِ فيما خلقَ، وهو فقهُ الكونِ المنظور، وفقهٌ عن اللهِ فيما شرعَ، وهو فقهُ الكتابِ المسطور، وبهما تتحقّقُ القِراءتان، كما في قولهِ تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾.

ولمّا كانت الرّسالةُ الخاتمةُ التي بُعثَ بها نبيُّنا محمّدٌ ﷺ هي أقومَ الرّسالاتِ بمبانيها العقديّةِ والشّرعيّةِ؛ لتحقيقِ غايةِ الحقِّ من الخلقِ، فإنَّ هناكَ مقاصدَ عامّةً وغاياتٍ تامّةً تتعلّقُ بالإنسانِ وحياتِه، ولذلكَ كانَ مبنى الشّريعةِ جلبَ المصالحِ وتكميلَها، ودرءَ المفاسدِ وتقليلَها، وجاءت سائرُ أحكامِها الخاصّةِ والعامّةِ، اللّازمةِ والمُتعدّيةِ.. في نظمِهما، فالفقهُ بهذا الاعتبارِ عمادٌ لأبوابِ الهدايةِ والاستقامةِ في الدّينِ، ومعراجٌ في مدارجِ السّالكين.

ومن هنا فإنَّ كتابَ «فقه الحياة» يُعدُّ إضافةً لبنيةِ الفقهِ الإسلامي وإثراءً لها، ليس فقط في إطارِ ما طرحَه من مفاكراتٍ ومدارساتٍ، وما بَثَّه من آراءٍ ومعالجات، بل لكونه مثَّلَ أنموذجًا جمعَ بين عمقِ التّأصيلِ العلميّ، ومدارِكِ التّحقّقِ التّنزيليّ في الواقعِ المعيش، وإنّه لحَريٌّ بالباحثين وأهلِ النّظرِ والفكرِ في الأمّةِ، أنْ يقفوا من «فقه الحياة»، في سياقِ قراءةِ الشيخِ واجتهادِه، موقفَ التّأسيسِ والتّأصيلِ

والتّفعيلِ، على وَفْقِ ما تَقتضيهِ متطلّباتُ العصرِ المسترشدِ بالوحي والتّنزيل، وصولًا إلى بنيةِ فقهٍ حضاريٍّ فاعل، يُسهمُ في شهودِ الأمّةِ وحضورِها في عالمِ التّدافعِ والتّفاعل.

ولَئنْ كانَ للبعدِ العلميّ الأصوليّ أثرُه في هذا الكتابِ، فإنَّ هناكَ أبعادًا أخرى حاضرةً في أثنائِه، فإنَّك تلمسُ ـ وأنتُ تقرأُ «فقه الحياة» وتَتنقَّلُ بينَ روضاتِه ـ وكأنَّ الشيخَ يُسمعُك صوتَه، ويخاطبُكَ بأدبِه، ويُشعرُك بهمِّه، ويُحسّسُك بوجدانِه، ويلامس قلبَك بهمساتِه، ولهذا كان الكتابُ بفصولِه وعناوينِه ومضامينِه، نظمًا من العلمِ، والفكرِ، والأدبِ، والوجدانِ؛ يأخذُك ويُرقِّيك إلى فقهِ الحياة.

فاللهَ أسألُ أنْ ينفعَ بهذا الكتابِ، وأنْ يجزيَ مؤلّفَه ـ فضيلةَ الشّيخِ الدّكتور سلمان العودة ـ خيرَ ما يُجازى داعيةٌ عن دعوتِه، وأنْ ينفعَ به وبعلمِه، وأنْ يجعلَ ما قدَّمَه أثقالًا في ميزانِ حسناتِه، وأنْ يمُنَّ عليهِ من أفضالِه وآلائِه.

والحمدُ للهِ ربِّ العالمين، وصلّى اللهُ وسلّمَ على نبيِّنا محمّدٍ، وعلى آلِه وصحبِه أجمعين.

أ.د. عصام أحمد البشير

١٠/ ١١/ ٢٠٢١م

فقه الحياة

قال بعض الصالحين: «مساكين أهل الدنيا، خرجوا منها وما ذاقوا أطيبَ ما فيها؟». قيل: وما أطيب ما فيها؟ قال: «محبة الله تعالى ومعرفته وذكره»[(١)].

إن فقه الحياة معنى مهمٌّ وكبير، فيا لله من أولئك الذين يَعْبُرون هذه الحياة من دون أن يفقهوها.

كم نشعر بالأسى والحزن حينما نجد شابًّا أو فتاة في العشرين من عمره، وقد داهمته خطوب الحياة، وواجه كلٌّ منهما في منزله أو في صحَّته أو دراسته معاناة، فأصبح يتذمَّر، ويتمنَّى الموت، وربما سعى إليه سعي الحثيث، وربما حاول أن يغادِر أو يستقِيل، فلماذا هذا وأنت في بهجة الحياة وزينتها؟

ومن المبادئ في فقه الحياة:

أولاً: الحياة منحة إلهيَّة:

وإلهنا العظيم حينما اختارنا لنكون أحياء، ميَّزَنا عن الحيوان والنبات والجماد، وأعطانا هذه الخَصيصة الإنسانيَّة، وأشاد بها سبحانه، حتى أمر جلَّ

(١) انظر: الجواب الكافي (ص:٥١)، والوابل الصيب (ص:٦٧)، والمدارج (١/ ٤٥٤)، وروضة المحبين (ص:١٦٦)، وجامع العلوم والحكم (ص:١٨٩).

وعلا الملائكة أن يسجدوا لآدم عليه السلام، يقول الله سبحانه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ﴾، إيذانًا بأنَّ هذا المخلوق ـ وهو ابن آدم ـ له تلك المنزلة والمكانة العالية والسامية، ولذلك لا غرابةَ أن يكون في بني آدم الرسلُ والأنبياءُ الذين لهم المقام العالي والمنزلة الشامخة.

إن الحياة عطاء ربانيٌّ، ولك أن تسأل نفسك: كم مِنَّة لله تعالى في جسدك؟ وكم نعمة لله تغمرك وتحيط بك في مأكلك، وصحتك، وأمنك، ورزقك، ومأواك؟ ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾.

فانظر إلى الحياة كنعمة ومِنَّة، انظر إلى هذه الروح وهذا النَّفَس الذي يتردَّد، وكيف أنَّ ربَّنا سبحانه وتعالى يقول عن آدم: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾، يعني من طين، ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾، فهذه الروح من أَمْر الله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾، فالحياة وظيفة مُقَدَّسة، ولهذا جعل إلهنا العظيم العقابَ الشديدَ على مَن يعتدي على وظيفة الحياة، ويهدِم هذا البيت الذي بناه الربُّ جلَّ وعلا: ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾.

فالله عزَّ وجلَّ يُعطِي على الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف[1] إلى أضعاف كثيرة، إلا في هذا الموضع فقط، وهو قوله: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾، أي فاستنقَذَها من الموت، أو تنازَل عن دم قد استحقَّ، فقوله: ﴿فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾، من آدم إلى قيام الساعة، وهو ما لا يحصيه إلا الله تبارك وتعالى من البَشَر، وكذلك مَن قتَلَها، فاعتدى على النفس البريئة، ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾، فقَتْلُ نفْسٍ واحدة كقَتْل الناس كلِّهم، ويقول

(١) صحيح البخاري (١٩٠٤).

سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾، ويقول النبيُّ ﷺ: «**لا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ**»[(١)].

وحين تنظر يمنة ويسرة، تجد أن أكثر ما يسيل من الدماء البريئة هو في بلاد المسلمين؛ بالتأويل والادعاء والاختلاف، والظنِّ بأنَّ السلاح هو الذي يحسِم القضايا.

إن الأرض تحتاج إلى أن تُسْقَى بالعَرَق أكثر مما تحتاج أن تُسْقَى بالدماء، فالحياة وظيفة مُقَدَّسة، والذي يعتدي على الحياة يعتدي على خصوصيَّة لله سبحانه وتعالى، ويهدِم بيتًا اللهُ بناه، وله الوعيد الشديد الذي لم يَرِد مثلُه إلا في شأن مَن كفَر بالله، وعبَدَ غير الله، ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾، حتى الملائكة لما قال لهم ربُّنا: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾، عرفوا أن الله عزَّ وجلَّ يبغض سفك الدماء، والفساد في الأرض، فتعجَّبوا ـ لا اعتراضاً على الله ـ فقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

فالاستقالة من هذه الحياة ممنوعة؛ «**بادَرَني عبدي بنفسه حرَّمت عليه الجنةَ**»[(٢)]. إنها وظيفة عقيدتها الجنة، فكيف يستفيد الإنسان منها ويختار؟

لقد جبل الله تعالى الطير والحيوان على حبِّ الحياة؛ ولذلك تحلق الطير في السماء فرارًا من الصياد الذي يتربَّص بها، والحيوان يكره الموت، فيمضي بدافع غريزة حبِّ البقاء في طلب الماء والمرعى، والاحتماء من الأذى، وكان

(١) أخرجه البخاري (١٢١)، ومسلم (٦٥) من حديث جرير رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٦٣) واللفظ له، ومسلم (١١٣) من حديث جندب رضي الله عنه.

النبيُّ ﷺ يُلقِي خطبة الجيش على المقاتلين في قتال شرعيٍّ صحيح، يقول فيها: «**يا أَيُّهَا النَّاسُ، لاَ تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَاسْأَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الجَنَّةَ تَحْتَ ظِلاَلِ السُّيُوفِ**»(١).

والله تعالى يقول: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾، فتكرهه النفوس، وتنفِر منه، ولكنه حينما يكون مكتوبًا بشرع الله تعالى ووِفْقَ قانون سماويٍّ صحيح، يكون المراد حتمًا.

وحين يذهب هذا الجيش إلى القتال في سبيل الله، لم يكن جيشًا متعطِّشًا للدماء، بل كان حريصًا على حقن الدماء بكلِّ ما يُمكن، بعث النبيُّ ﷺ عليَّ ابن أبي طالب رضي الله عنه في حصار خيبر، وقال له: «**انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ، حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِن حَقِّ اللهِ فِيهِ، فَوَاللهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا، خَيْرٌ لَكَ مِن أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ**»(٢).

فالذي يُسْلِم يدخُل في حياة جديدة، مما يعني أنه لا بد أن نستنقِذ النفوس، ونحرص على إحيائها، فهذا هو الجدير واللائق بنا.

ثانيًا: الحياة بناء وتضحية:

إن مما يُلْحَظ في واقع المسلمين اليوم غَلَبَةُ التضحية على جانب البناء، والتضحية لا بدَّ منها في حالاتٍ كثيرة.

فالنبيُّ ﷺ يقول: «**مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ**»(٣)، فموتُه دون نفسه أو عرضه أو أهله من الشهادة؛ لكن هذا كلَّه أيضًا من حماية البناء وحماية

(١) أخرجه البخاري (٢٩٦٦)، ومسلم (١٧٤٢) واللفظ له، من حديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٤٢)، ومسلم (٢٤٠٦) واللفظ له.

(٣) أخرجه البخاري (٢٤٨٠)، ومسلم (١٤١) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

العمل، فمن الخطأ أن تتحوَّل أفكار كثير من المسلمين إلى عسكرة الفكر، بل إلى عسكرة الحياة نفسها، ومن الخطأ أن نظنَّ أن البندقيَّة تحُلُّ المشاكل كلَّها.

إن الحلَّ ليس بالقتال، وإنما الحلُّ بالإسلام، والإسلام أوسع مِن أن يكون شعيرة واحدة مِن الشعائر، وكلُّ شعيرة من الشعائر ينبغي أن تُطَبَّق وِفْق المعايير الربانيَّة، لا وِفْقَ معايير أحد من الناس.

ثالثًا: الحرب والحياة:

الحرب الأخلاقيَّة لها أثر كبير، فمدافعة العدوِّ المحتلِّ لها أثر عظيم في الحياة، وفي التاريخ، وفي الواقع اليوميِّ، كما نشاهد؛ لكن هناك أشياء أخرى قد لا تقلُّ أهميَّة، ومع ذلك لا يتحدَّث الناس عنها، ومن ذلك: وسائل التقنية، ووسائل الإعلام، ووسائل التواصل، والتي دخَلت كلّ بيت، وأثَّرت في كلِّ شخص، وفي علاقات الناس وروابطهم، حتى أصبحت جزءًا لا يتجزَّأ من حياتهم.

وهذا يُثْبِت لنا أن الفكر والتقنية والإبداع والابتكار، تُحْدِث آثارًا هائلة وكبيرة جدًّا، وأنَّ عددًا من الأسماء التي تتردَّد على الألسنة اليوم في كلِّ مكان، وفي كلِّ بلد؛ مِن أصحاب المخترَعات وأصحاب الثراء الضخم، مثل (بيل جيتس) وغيره من أصحاب الإنتاج الهائل الذي أصبحنا ـ نحن المسلمين ـ لا نعدو أكثرَ من مُتَلَقٍّ.. يثبت أن هذا جزءٌ مِن بناء الحياة وفِقْهِها، وأننا مقصِّرون أمام الله جلَّ وعلا فيها؟!

فلو أن الحضارة كانت في أيدي المسلمين الصادقين في هذا العصر، لم نكن نواجه مشكلة كبيرة فيما يتعلَّق بالأسلحة النوويَّة الموجودة في العالم، وندقُّ

ناقوس الخطر لمجرد وجود هذه الأسلحة في هذه البلاد أو تلك، وليس ذلك لأننا سنملِك هذه الأسلحة فحسب، ولكن لأننا سنوجِّه مسيرة هذه الحضارة إلى الإعمار والبناء، بدلًا من توجيهها للهدم والدمار، والقضاء على الناس.

ولو أن الحضارة بأيدي المسلمين الصادقين، لكانت حضارة أكثر أخلاقيَّة؛ لأنها تراعي مصالح الإنسان، وتراعي شريعة الله عزَّ وجلَّ، فلا تُدْخِل العلم في مضايق باعتبارها إياه نقيضًا للإيمان، فنحن نؤمِن أن العلم يدعو للإيمان، ونقرأ في كتاب ربِّنا الرحيم الرحمن في أَوَّلِ ما نزل على سيد ولد عدنان ﷺ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾، فالقراءة والعلم والحضارة تسير جنبًا إلى جنب مع الإيمان، فلذلك هي مِن مصلحة الإنسان، وليست للقضاء عليه.

يقول نبيُّنا ﷺ: «**إِنْ قَامَتِ الساعةُ وفي يدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فإن استطاعَ أن لا تقومَ حتَّى يغرسَها فَلْيَغْرِسْهَا**»[1].

عندما تقوم الساعة.. فهذا معناه أننا أمام أزمة الأزمات وداهية الدواهي.. إنه قيام الساعة وما فيه من تَغَيُّر الكون؛ ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ۝٣ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ﴾، ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾، ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾، إلى غير ذلك من التَّغَيُّرات الضخمة العظيمة.. فتخيَّل هذا كلَّه، وماذا يمكن أن يوجِّهَنا فيه النبيُّ ﷺ في مثل هذا المقام؟!

قال ﷺ: «**إِنْ قَامَتِ السَّاعةُ وفي يدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ**»، أي: نخلة صغيرة،

(١) أخرجه عبد بن حميد (١٢١٦)، والبخاري في الأدب المفرد (٤٧٩) واللفظ له من حديث أنس رضي الله عنه.

فلم يَقُلِ ﷺ: ارمها، واذهب إلى المسجد، واستقبل القبلة، ثم صلِّ. بل قال: «**فإنِ استطاعَ أن لا تقومَ حتَّى يغرسَها فَلْيَغْرِسْهَا**»؛ فهذا فقه الحياة باختصار شديد.

فالإنسان المرتبِك المضطرِب لا يستطيع أن يغرِس الفسيلة من الخوف، بل إن الإنسان الذي يريد أن يفتح الباب وهو مرتبك لا يستطيع أن يضع المفتاح في الباب، فهذا الحديث يقول لنا: لا تندفِعوا، ولا ترتبِكوا، فالهدوء هو مفتاح الحياة وسرُّها، والانفعال أَمْرٌ ينبغي أن يُعَالَجَ.

وقول النبيِّ ﷺ: «**وَفِي يَدِ أحدكم فَسِيلَةٌ... فَلْيَغْرِسْهَا**»، يحفِّزنا على بناء الحياة وعمارة الأرض، فالفسيلة ليست إلا أنموذجًا.

وقوله ﷺ: «**فَلْيَغْرِسْهَا**»، إشارة إلى أهميَّة الزرع للإنسان، فالذي عنده زرع يشاهِده، ويقرأ الإعجاز الربانيَّ فيه ويراقبه، وهذا يساعد على الهدوء والاستقرار.

والمقصود أنَّ علينا أنْ نفقَه جانبَ البناء، وأنَّ القوَّة ليست هي قوَّة السلاح، فلو أنَّ عندنا ألفَ طائرةٍ، وألفَ دبّابةٍ، وثلاثمائة رأسٍ نوويٍّ، فليس معنى هذا أنَّ أُمَّتنا أصبحت الأقوى، فالاتحاد السوفيتيُّ كان يملك أضعاف هذا ولكنه انهار؛ لأنه كان لا يملِك القوَّة كلَّها، وإنما مَلَك منها الجانب العسكريَّ فقط، والحياة ليست حربًا وقتالًا كلُّها، وليست جانبًا عسكريًّا فحسب، إن الحياة أوسع مِن ذلك، فهناك قوَّة المعرفة، والقوَّة لم تَعُد الآن تقاس بما تملِكه الأمم من الثروة فقط، وإنما بقدر ما تملك مِن معرفة، وبقَدْر توظيفها للمعرفة.

وكذلك قوَّة الوحدة، فأمريكا عبارة عن خمسين دولة، وأوربا تكاد تكون موحَّدة، وهي عبارة عن إمبراطوريات، والصين تزيد عن مليار ونصف مليار

نسمة، ومنذ خمسة آلاف سنة وهي دولة واحدة، وكلُّ واحد منا لا يجِدُ قيمته إلا من خلال الاتحاد مع الآخرين، لا مِن خلال الاختلاف معهم، وإذا اختلفنا مع بعضنا فلا يكون اختلاف قطيعة، فهناك قواسم مُشترَكة كثيرة.. قواسم الدين، وقواسم الدنيا.

ومِن ذلك قوَّة التربية؛ تربية الأولاد والبنات، والكبار والصغار.. على الانتماء لبلدهم، وبنائه وتمثيله، غير أنَّ الكثيرين مِن شباب الإسلام لا يملِكون هذه الروح، وهذا مما يبعث الألم، وقد نشَرَت بعض وسائل الإعلام تقريرًا للأمم المتحدة عن الـمُشَرَّدِين واللاجئين في العالم، وقالت: إنَّ أكثر من سبعين بالمائة منهم من المسلمين، فلماذا الشعوب الإسلاميَّة هي التي ترزح تحت الفقر والتخلُّف والتشرُّد؟!

ثم انظر إلى حال البلاد الإسلاميَّة.. فلا تكاد تجِدُ بلدًا إسلاميًّا إلا وهو يعايش مشكلة، وتكون المشكلة في الغالب من أبنائه، وهذا مِصداقٌ لقوله تعالى: ﴿**قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ**﴾، وإنما تأتي المشكلة من ضعف التربية، وضعف الوحدة، وضعف الإحساس بالانتماء، واعتقاد بعض الأفراد أنهم يفكِّرون بالنيابة عن الأُمَّة كلِّها، مع أن المصلحة هي مصلحة الجماعة كلِّها، وليس الفرد، ولهذا يحصل الاقتتال، فكلُّ مجموعة عندها نظام غير المجموعة الأخرى.

إننا نحتاج إلى الشابِّ الذي سوف يتزوَّج ويؤسِّس بيتًا، ويُنْجِب أولادًا صالحين.

ونحتاج إلى آخر لديه مشروع تِقَنيٌّ، وعنده عقل وتدبير وابتكار.

ومَن لديه مشروع دعويٌّ لتحفيظ القرآن، أو تحفيظ السنَّة، أو بناء القيم، أو تربية النشء الصغير.

ونحتاج لمن لديه مشروع سياسيٌّ متعقِّل، ومن لديه مشروع تجاريٌّ.. وهكذا.

فنحن نريد مجموعة متضافرة مِن هذه المشاريع الحياتيَّة التي تبني الحياة.

رابعًا: الحياة عبادة:

والجهاد في سبيل الله هو أحد شرائع الإسلام، قال عزَّ وجلَّ: ﴿**يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٍ**﴾، ويقول النبيُّ ﷺ: «**جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ**»[(١)].

والجهاد أوسع من القتال، فالجهاد هو بَذْلُ الجهد في طاعة الله عزَّ وجلَّ، في أيّ ميدان كان، والمقاتِل قد يرجِع، كما رجع النبيُّ ﷺ مِن الغزو بعد أن تمنَّى أن يُقْتَل في سبيل الله، وتوفي ﷺ في فراشه، وأبو بكر الصديق رضي الله عنه ثاني اثنين إذ هما في الغار، مات في فراشه، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه شهيد المحراب قُتِل في معركة الحياة والبناء والإصلاح، ولما أراد أن يذهب إلى الجهاد في العراق نهاه الصحابة رضي الله عنهم وأجمعوا على أن يبعث رجلًا من أصحاب رسول الله ﷺ ويقيم، فبقيَ وأرسل الرسل[(٢)].

إن العمل بأركان الإسلام الخمسة وإحياءها وتعليمها للناس مِن أعظم الجهاد، وفَهْم أركان الإيمان الستَّة، والدعوة إليها، والتربية عليها، وإقامتها للناس من أعظم الجهاد، والقيام بمصالح الأُمَّة، وقضاء حوائج الناس ولو كانت قليلةً من الجهاد، كان بعض الصحابة مع النبيِّ ﷺ يومًا، فجاء رجل

(١) أخرجه أبو داود (٢٥٠٤) واللفظ له، والنسائي (٣٠٩٦) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) انظر: تاريخ الطبري (٣/ ٤٧٩).

قويٌّ يسعى، فقال الصحابة: لَوْ كَانَ شَبَابُ هَذَا وَنَشَاطُهُ فِي سَبِيلِ اللهِ! فَقَالَ ﷺ: «**أَمَا إِنَّهُ إِنْ كَانَ يَسْعَى عَلَى وَالِدَيْهِ أَوْ أَحَدِهِمَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَإِنْ كَانَ يَسْعَى عَلَى عِيَالٍ يَكْفِيهِمْ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَإِنْ كَانَ يَسْعَى عَلَى نَفْسِهِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ**»(١).

ويَرْوِي أبو بكرة رضي الله عنه أن رجلًا سأل النبيَّ ﷺ: أيُّ النَّاسِ خيرٌ؟ قال ﷺ: «**مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ**»(٢).

قال النبيُّ ﷺ: «**إِنَّ الْمُؤْمِنَ لاَ يَزِيدُهُ طُولُ الْعُمُرِ إِلَّا خَيْرًا**»(٣).

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ بُسْرٍ رضي الله عنه، أَنَّ أَعْرَابِيًّا قال: يَا رَسُولَ اللهِ، مَن خَيْرُ النَّاسِ؟ قال: «**مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ**»(٤).

فاستثمِرْ هذا العمرَ في الخير والعبادة، وفي المتعة والسعادة، ولا تظنَّ أنَّ السعادة هي عبارة عن أَمْرٍ مفاجئ تحصُلُ عليه بين عشيَّة وضُحاها.

استمتع وأنت تشرب كأس ماء، أو تتحدث مع أهلك، أو تقرأ كتابًا..

ومِن أحسن المتعة لذة العبادة، فتكون بين الحمد والدعاء والتوسُّل والتضرُّع، فتحصُل على سعادة دنيويَّة كبيرة، وعلى أجر عظيم عند الله عزَّ وجلَّ، حتى الذنب والخطأ الذي تقع فيه ليس مَدْعَاةً لأن تهرُب من الحياة،

(١) أخرجه سعيد بن منصور في سننه (٢٦١٨)، والمروزي في زياداته على البر والصلة لابن المبارك (٣١٦)، من حديث أبي المخارق رضي الله عنه، والبيهقي (٧/ ٤٧٩)، واللفظ له، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٢٠٤٤٣)، والترمذي (٢٣٣٠) وقال: حسن صحيح، والحاكم (١/ ٣٣٨)، والبيهقي (٣/ ٣٧١).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (١٥/ ٢٤٤)، وأحمد (٢٣٩٧٣) من حديث عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أحمد (١٧٦٨٠)، والترمذي (٢٣٢٩) واللفظ له، وقال: حسن غريب، والبيهقي (٣/ ٣٧١)، وفي شعب الإيمان (٥١٢)، والضياء في المختارة (٢٠).

فالله عز وجل فَتَح باب التوبة، وباب الاستغفار، والنبي ﷺ قال: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ**»(١).

إن الموت انقطاع، والنبيُّ ﷺ يقول: «**إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاثَةٍ؛ إلا من صدقةٍ جارية، أو علْمٍ يُنْتَفَعُ به، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له**»(٢). فلماذا لا تخطِّط لصدقة جارية، أو علم يُنْتَفَع به، سواءً كان علمًا دينيًّا أم دنيويًّا، أو ولد صالح يدعو لك، فالمشروع الأُسَرِيُّ يبدأ بالزواج، وبناء بيت وأسرة، وتربية أولاد صالحين.

خامسًا: المبالغة في الحديث عن الموت:

مما يزهد في الحياة ويهون شأنها، المبالغة في الحديث عن الموت، وقد استنكر ابن القَيِّم رحمه الله في «زاد المعاد» على بعض الخطباء الذين يبالغون في هذا المعنى، إذ المطلوب مِن ذِكْر الموت هو القَدْر الذي يُحَفِّز الإنسان إلى فِعْل الطاعات وتَرْك المعاصي، والإسراف في ذِكر الموت يصنَع عند بعض الناس قَدْرًا مِن الوسوسة، حتى يقعُد عن الدنيا التي لا بدَّ له منها، ويُنَفِّرهم من الحياة، حتى يظنوا أن الرسل عليهم السلام بُعِثوا لتنفير الناس من الحياة.

إن الحياة التي خَلَقَها ربُّنا سبحانه وبناها، وقال عنها: ﴿**وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُ**﴾، لا يمكن أن ينفِّرنا منها، ولكن ينفِّرنا مِن سوء استخدامها في معصيته، أو أن ننشغِل بها عن الدار الآخرة، ﴿**أَرَضِيتُم**

(١) أخرجه مسلم (٢٧٤٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (١٦٣١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٞ﴾، ولهذا قال ربُّنا سبحانه وتعالى: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ ٢٠٠ وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

فالفَرْق ليس بين مَن يريد الدنيا ومَن يريد الآخرة، وإنما الفرق بين مَن يريد الدنيا، ومَن يريد الدنيا والآخرة معًا، فمَن كان يريد الحياة الدنيا فقط هو المذموم، يقول جل وعلا: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ﴾.

وأما المحمود فهو ليس مَن يقول: ربَّنا آتنا في الآخرة حسنة، وإنما مَن يقول: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

سادسًا: الحياة فطرة:

ففي الصحيح من حديث عائشةَ رضي الله عنها قالَتْ: قال رَسُولُ اللَّـهِ صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّـهِ أَحَبَّ اللَّـهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّـهِ كَرِهَ اللَّـهُ لِقَاءَهُ». فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ، أَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ، فَكُلُّنَا نَكْرَهُ الـمَوْتَ؟! فقال: «لَيْسَ كَذَلِكِ، وَلَكِنَّ الـمُؤْمِنَ إِذَا بُشِّرَ بِرَحْمَةِ اللَّـهِ وَرِضْوَانِهِ وَجَنَّتِهِ، أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّـهِ، فَأَحَبَّ اللَّـهُ لِقَاءَهُ، وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا بُشِّرَ بِعَذَابِ اللَّـهِ وَسَخَطِهِ، كَرِهَ لِقَاءَ اللَّـهِ، وَكَرِهَ اللَّـهُ لِقَاءَهُ»[1].

وذَكَر ربُّنا سبحانه وتعالى أن الشهداء أحياء عند ربهم يُرْزَقون، فكم في الدنيا مِن خير، كمحبَّة الأولاد، والرفق بهم، وقضاء حقوقهم، ولله سبحانه مائة رحمة، ادَّخَرَ منها تسعًا وتسعين رحمة ليوم القيامة، ووَضَع رحمةً واحدةً

(١) أخرجه البخاري (٧٥٠٤) مختصرًا، ومسلم (١٥٧).

في الدنيا، فبها يتراحمُ الناسُ والبهائمُ والدوابُّ، حتى ترفَع الدابَّةُ حافرَها عن ولدها؛ خشية أن تصيبَه[١]، وهذه الرحمة تكون للقريب والبعيد.

وليس من الضرورة في الرحمة أن تعطِي شيئًا، ولكن فلْيَكُنْ قلبك رحيمًا، فإذا سمعْتَ معاناةَ إخوانِك المسلمين في أيّ مكان، أو قرأتَ أو رأيتَ القلوب المرعوبة، فحرِّك قلبَك بالرحمة، وادعُ لهم، واستغفر لهم.

كذلك الرحمة بالوالد.. فهو محتاج إلى الرحمة؛ فقد كَبِر سِنُّه، ورَقَّ عظمُه، ووهنت قوته، ولذلك قال ربُّ العزَّة: ﴿**رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا**﴾.

فيجب أن يكون بناؤنا للحياة مشارَكة وتتميمًا لما يصنعُه الآخرون، وليس تدميرًا له.

إنَّ بعض شباب الأُمَّة لديهم مشاريع خاصَّة تتناقض مع مشاريع الأُمَّة بصفة عامَّة، ولذلك لا يبالون مَن يهلك مِن الأُمَّة، ومَن يموت، ومَن يضِلُّ، وما يقَع على الأُمَّة مِن القيل والقال، بينما سيدنا محمد ﷺ لما استأذنه بعض الصحابة رضي الله عنهم في قتل أحد المنافقين، قال: «**لا**». وعلَّل ذلك بقوله: «**دَعْهُ؛ لاَ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**»[٢].

فلم يقُلِ النبيُّ ﷺ: هذا موقف حقٍّ، وهذا مستحقٌّ للقتل، وهؤلاء فساد في الأرض، فعليك بهم. وإنما رفَض وعلَّل؛ حتى نتعلَّم نحن!

وكذلك لما حاصَر النبيُّ ﷺ الطائف أيامًا معدودات، ومعه الصحابة من المهاجرين والأنصار، فكأنَّ النبيَّ ﷺ استطال الأمرَ، فقال لهم: «**إنا قافلونَ غدًا**». فقالوا: يا رسولَ اللهِ، نرجع ولم نفتتحه؟ فقال لهم رسول الله ﷺ:

(١) كما في صحيح البخاري (٦٤٦٩)، وصحيح مسلم (٢٧٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٠٥)، ومسلم (٢٥٨٤) من حديث جابر رضي الله عنه.

«**اغدوا على القتال**»، فغَدَوا عليه، فأصابهم جِراحٌ، فقال النبيُّ ﷺ: «**إنا قافلون غدا**»، فأعجبَهم ذلك، فتبسَّم النبيُّ ﷺ[(١)].

فيوم واحد فقط جعلَهم يُدْرِكون أنه لا داعيَ لاستمرارهم إلى الأبد، فالحياة ليست معركة إلى الأبد.

إنه ليس صحيحًا أن يظَلَّ الشعب المسلم في حال قتال إلى الأبد، فالحياة ليست قتالًا، ولكن القتال استثناء، فالأصل بناء الحياة وإصلاحها، وعبادة الله سبحانه وتعالى، والتواصل والتقارب، والمصالح العظيمة التي ينتفِع الناس بها، وهذا معنى يجب أن نُدْرِكه، وأن نسعى فيه، وليس بالضرورة أن تكون مشاريع الناس مستقلَّة، فهناك مشاريع ومؤسَّسات في المجتمع، ومِن خلال هذه المشارَكة يتعارفون، ويتشاورون، ويستفيدون من بعضهم البعض.

سابعًا: الحياة رحمة:

الحياة تعب، والحياة رحمة: والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿**وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ**﴾، ولما دعا إبراهيم عليه السلام قال: ﴿**رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ**﴾، فالدنيا متاع قليل، والله جلَّ وعلا جعَل الفسحةَ في الدنيا للناس كلِّهم، فيستفيد منها وينتفع بها المؤمِن والكافر، والبَرُّ والفاجر، وهذا مِن سَعَةِ رحمة الله جلَّ وعلا، فعلينا أن نتعامَل مع الحياة مِن خلال هذا المنطلَق، فنتعامَل معها بسَعَتها ورحابتها، ونوسِّع قلوبَنا برحمة الله عزَّ وجلَّ، والدعاء للخَلْق، والحرص على هدايتهم.

(١) أخرجه البخاري (٤٣٢٥)، ومسلم (١٧٧٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

إن الواقع يؤكِّد أنَّ الناس إذا لم يكن لديهم تربية وإيمان لا ينجحون في نهاية المطاف، وأصحاب نبينا ﷺ كانوا قادرين على الجمع بين القتال في سبيل الله، وبين تدبير أمور الحياة بدرجة الكمال، ولذلك كانوا يقاتلون، ثم إذا فتحوا البلاد أداروها كأحسن ما تكون الإدارة؛ لأنهم تدرَّبوا على هذا الأمر، وتخلَّقوا له، بينما كثير من التجارب الإسلاميَّة -وخاصَّة المعاصِرة- خلاف ذلك، فالشابُّ يتعامل مع البندقيَّة في قتاله مع عدوِّه، فيقَع في مزالِقَ كثيرة؛ ويعتقِد أنَّ البندقيَّة حلٌّ لجميع المشكلات، حتى مع إخوانه، لتتحول به إلى تصفيات ذاتيَّة.

إن الشيء الْمُؤسِف هو وجود حالات الاقتتال الداخليِّ في بلاد المسلمين، أكثر مِن غيرهم.

وهذا يدلُّ على وجود معاناة عند المسلمين في هذه المرحلة، وسُوء فَهْمٍ، وإصرار عليه، وعدم إدراك للمصلحة العامَّة، وهذا تشويه لصورة الإسلام أمام العالم، وأيُّ إنسان نشأ خارج العالم الإسلامي، ويريد أن يتعرَّف على الإسلام، سيرى أنَّ أُمَّة الإسلام هي أُمَّة الاقتتال والضعف والتخلُّف والجهالة، أُمَّة عندها إمكانات هائلة من الثروات، والموقع الاستراتيجيِّ، والعدد البشريِّ، هي في عصر المدنيَّة والحضارة والتقدُّم ولم تأخذْ بناصية العلم، وإنما ظلَّت تتقاتَل فيما بينها.

إن هذه الصورة لا تحفِّز على الإعجاب بهذا الدين والبحث عنه، بل تصْرِف عن الإسلام، وتعطي عنه انطباعًا خاطئًا.

نحن نعرف أن ديننا حقٌّ وصواب؛ لأننا قَرَأْنا القرآن والسنة، لكن البعيد لا يعرِف هذا إلا من خلال واقع المسلمين؛ ولذلك قال بعض الحكماء: «إن الإسلام محجوب بمساوئ أهله». وقد آن الأوان أن تُصَحَّح هذه الصورة.

إن النهضة ليست أمرًا مستحيلًا، فهناك دول -مثل: الصين، وسنغافورة، وماليزيا- نهضت في سنوات معدودة في جوانبَ كثيرةٍ جدًّا، وأصبحت مَقْصِدًا للعلماء والمفكِّرين والخبراء وغير ذلك، وبلاد الإسلام تملِك إمكانات كبيرة جدًّا، لا بد من استثمارها وتفعيلها، وهذا ما يجب أن يُفَكِّر فيه الناس.

إن انتصار اليهود في فلسطين ليس انتصارًا عسكريًّا في المعركة، بل في إيجاد نظامهم السياسيِّ، وضَبْطِ نظامِهم، إلى غير ذلك من ألوان النجاح التي استطاعوا بها الانتصار علينا.

إن الله سبحانه وتعالى رفيق يحبُّ الرفق في الأمرِ كلِّه، مِن الرفق بالولد والطلاَّب، والتعامل مع غير المسلمين بالحكمة والموعظة الحسنة، أما الحرب فلها حينها، ولا يمكِنُ أن نتصوَّر الحياة بغير حرب، فهي جزء من الحياة، ولكنها ليست كلَّ الحياة، وهذا هو المعنى الذي نؤكِّده، فالحياة أوسع من ذلك بكثير.

والجهاد له شروط، مثله مثل الصلاة حيث لا بدَّ لها من ضوابط، وهذا معنى ضروريٌّ ومهمٌّ جدًّا، زِدْ على ذلك أن الصلاة مهمَّة فرديَّة، فالإنسان يُمْكِن أن يصلِّيَ وحدَه، لكن الجهاد مِن المصالح العامَّة المرتبِطة بالسياسة الشرعيَّة، فالشابُّ ينبغي أن يعلَم أنه شخص في أُمَّة، ولا ينبغي أن يستأثِر برأيه، ولا بدَّ أن يراعيَ مصلحة الأُمَّةِ عامَّة، وأنها فوق المصلحة الخاصَّة.

إن الأُمَّة بحاجة إلى الهدوء والبناء والإعمار، وبحاجة إلى الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة بالتي هي أحسن، وإلى طول النفَس والصبر وعدم التعجل، أو محاولة تخطي السنن وقوانين الحياة، فالله لا يعجل لعجلة أحد؛ ولكنكم تستعجلون.

ضغوطُ الحياة

إن جماليات الحياة ومتعها تُحدِث نوعًا من الضغوط، وهذه الضغوط قد تكون نتيجة كثرة المال، أو كثرة العافية، أو كثرة العمل الناتج عن مزيد من التوفيق، ومزيد من النجاح.

الضغوط جزء من طبيعة الحياة، وهناك آية تُبيِّن الفصل بين الخالق والمخلوق، فتتحدَّث عن الربِّ سبحانه وتعالى، يقول الله في هذه الآية الكريمة: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾، فله الحياة الأبديَّة التامَّة، فحياته ليست منحة من غيره، بل هو الحي بذاته سبحانه، ﴿ٱلۡقَيُّومُ﴾، والقيُّوم هو القائم على كل الأشياء وعلى الخلق، فهو ﴿قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ﴾، على السماء والأرض والدنيا والآخرة، والإنس والجن.

ثم يقول سبحانه: ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾، فهو لا يغفل، ولا يسهو سبحانه؛ لأن من عادة البشر المخلوقين أن الواحد منهم يدأَب ويتعب، ويكون النوم راحة له، أما الله جل وجلاله فهو الحي القيوم لا تأخذه سِنَة ولا نوم، والسِّنَةُ: مقدِّمات النوم.

ثم يقول سبحانه في آخر الآية: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾، أي: لا يُثقِله، ولا يشقُّ عليه سبحانه حفظُ السماوات وحفظ الأرض، فهذا هو الله الخالق، أما المخلوق فإن الضغوط جزء من واقعه ومسيرة حياته.

علاج ضغوط الحياة:

معرفة أسباب ضغوط الحياة هي الخطوة الأولى في طريق العلاج؛ لأن الحكم على الشيء فرعٌ عن تصوُّره، فقد تكون هذه الضغوط نفسيَّة، فهي ليست نتيجة شيء خارجي، بل هي منبعِثة من داخل النفس، وبعض النفوس متوتِّرة، وعندها عجلة وسرعة، وتحفز، وحساسية تُفرِز ضغطًا متواصلًا.

وقد يكون هذا الضغط النفسيُّ بسبب انعدام الهدف أو ضبابية الرؤية عند الإنسان:

جِئتُ، لا أعلمُ من أين، ولكنِّي أتيتُ
ولقد أَبصرتُ قُدَّامي طريقًا فمشيتُ
وسأبقى ماشيًا إن شئتُ هذا أم أَبَيْتُ
كيف جئتُ؟ كيف أبصرتُ طريقي؟
لستُ أدري!

وحين لا يجد الإنسان ذاته ولا يحققها، فإن ذلك يُفرِز عنده شيئًا كبيرًا من الضغط النفسي.

كما أن هذا الضغط قد يكون بسبب تغيُّرات الحياة، كأنثى تزوَّجت، أو عمل جديد، أو انتقال إلى بيت جديد، أو وضع اختلف، فهذا الوضع يُحدِث

عند الإنسان قَدْرًا كبيرًا من الضغوط؛ لأنه لم يتكيَّف مع هذه الأشياء الجديدة.

وقد تكون هذه الضغوط بسبب المجتمع، فالمجتمع أحيانًا يُصادِر الإنسان، ولا يعترف به، كالشابِّ في مجتمع الكبار لا يجد نفسَه معهم، بل يجد تحكُّمًا في تصرُّفاته، وتدخُّلًا في خصوصياته، ومفردات حياته.

كذلك المدرسة أو التقليد، ككون الإنسان مضطرًا إلى أن يُقلِّد هذا المجتمع، أو يُقلِّد هذه المدرسة العلمية، أو الحركية، ويلتزم بقوانينها وعاداتها وأنظمتها، فالبيئة المحيطة بالإنسان تفرِض عليه كثيرًا من الضغوط.

كما أن الضغط قد يكون نتيجة مشكلة خاصة أو أزمة اقتصادية، أو حالة صحية، أو حاجة وظيفية.. إلى غير ذلك من الأزمات التي لا تخلو منها الحياة، والله تعالى جَبَل الحياةَ عليها، فنزولُ آدم عليه السلام من الجنة كان نتيجة أزمة، فقد أكل من الشجرة، فعُوقِب بالهبوط من الجنة، والحياة مليئة بالأزمات، ولا يمكن تصوُّر حياةٍ بدونها.

كما أن الأفكار السلبية عن الحياة سبب في ذلك، سواءً كانت أفكارًا عن الحاضر أو عن المستقبل.

فالحاضر مثل بعض الناس الذين يُصوِّرون الحاضر تصويرًا سوداويًّا، فالواقع عندهم مجموعة من الصور المظلِمة، وكل شيء سيئ وفاسد ورديء، وهم بطبيعة الحال يستثنون أنفسَهم إما بالقول، وإما بداخل ضمائرهم.

وأيضًا الصورة السوداويَّة والمخاوف الْمُفرِطة من المستقبل، كمخاوف الحروب والفقر والموت والزلازل، تجعل بعض الناس يقعون ضحيةَ مثلِ هذه الهواجس.

وربما كانت الضغوط نتيجة كثرة العمل، كمَن عنده أعمال كثيرة؛ وظيفية، وتربوية، وأعمال داخل المنزل، فالمرأة عندها عمل في البيت، وفي المدرسة، فمجموع هذه الأشياء تُفرِز عند بعض الناس ضغوطًا ولا بدَّ، وهذه الأسباب يجب أن تكون واضحة في الذهن؛ لأن معرفة السبب تدعو إلى المعالجة، وإلى إزالة مثل هذه الأسباب.

ولِتجاوز هذه الضغوط لا بدَّ أن يكون عند الإنسان قَدْرٌ من الثقة بالنفس، وهذا ضروري لتجاوز الضغوط، **هذا أوَّلًا**.

ثانيًا: الواقعية والاعتدال في الأحلام والتطلُّعات.

ثالثًا: على الإنسان أن يُقدِّر النجاح الذي حصل عليه، حتى لو كان نجاحًا صغيرًا أو جزئيًّا، وأن يعترف به، وأن يكافئ نفسه عليه، لا أن يُفرِط في القسوة على نفسه، واستشعار الفشل، وإكثار العتب السلبي، بينما الأمر ليس كذلك، غير أن هذا راجع إلى إحساس نفسي داخلي.

وأن يكون عند الإنسان قلق.. فهذا شيء إيجابي، شريطةَ أن يكون هذا القلق إيجابيًّا، وهو ما كان في حدود الاعتدال؛ لأنه يحفِّز على الإتقان، ويحثُّ على الإبداع، ويدفع إليه، لكن إذا تعدَّى هذا القلقُ الاعتدالَ، فسيجعل الإنسانَ يحترق، وبالتالي لا يكون لديه رغبة، وفي النهاية يكره العمل والالتزام، فهذه مسؤوليات تجرُّ عليه مشكلات كثيرة جدًّا.

مقاومة الضغوط:

لو تخيَّلنا أن الضغوط تقابل «الحرية الذاتية»، والحرية ليست لفظًا عائمًا، أو الحرية السياسية فقط، فهي تخلِّصك من التأثيرات السلبية عليك، فلا تُمكِّن

أعداءك – بل وغير أعدائك – من أن يؤثِّروا على ما في داخلك.

إن الحرية معناها التخلُّص من ردَّات الفعل السلبية تجاه أي شيء كان، سواء كانت باتجاه ما يريد، أو باتجاه عكسي، فحاول أن تمسك منطقة الوسط، فلا تتأثَّر سلبًا باتجاه أن تنحاز إلى هذا الشخص بناءً على ضغط، أو تبتعد عنه أيضًا بناءً على ضغط، فقدرتُك على أن تمسك مكانك بدون انحياز إلى يمين أو شمال.. هذه هي الحرية، وهذا أساس التخلُّص من الضغوط.

إن الحرية تعني التخلص مِن أن تكون مملوكًا لطمع، كالطمع في المال، نعم كلُّنا نحتاج المال، لكن لا أجعل حاجتي للمال تقحمني في مكسب محرم، ولا موقف أبيع فيه عزة نفسي وكرامتها التي وهبها الله لي.

وكذا للتحرر مِن سلطة العادات السيئة أهمية في الخلاص من الضغوط، فيحرص الإنسان على أن يُحافظ على هذا المعنى المقدَّس، وهو معنى الحرية بهذا المفهوم الأخلاقي، والمفهوم الذاتي الذي تكسبه من ذاتك، ولا تكسبه من الآخرين.

إن قيمة الإنسان فيما يُحْسِن، وفيما يملِك.

فالقراءة ثقافة تمنحك قَدْرًا كبيرًا من القوة الذاتية، وتمنحك الحريةَ والقدرةَ على الخلاص من الضغوط.

وكذا يتعلَّم الإنسان كيف يحافظ على حرِّيَّته الذاتية، فلا يخضع لردود الأفعال، بل يعيش كما هو، وليس كما يريد الأقربون أو الأبعدون.

ومن ذلك المصالحة مع النفس، فيكون واضحًا ومتصالحًا مع نفسه، ويُمثِّل نفسه بمصداقية تامَّة قَدْرَ المستطاع.

فهذه الأشياء من شأنها أن تجعل ذاتيتك قادرة على مقاومة كثير من الضغوط.

وقبل ذلك الركون إلى الله سبحانه وتعالى والإيمان به، وهذا يمنحك التعايش مع الحياة، فتعرف اللهَ بأسمائه وصفاته.. الله الرحيم.. الله اللطيف.. الله الكريم.. الله الجواد.. الله المحسن إلى عباده.. ولا شك أن التعرف إلى الله سبحانه وتعالى بهذه الأسماء وغيرها، واستشعار قُرْبِ رحمته ومعيَّته، وحبِّه الخيرَ لعباده، مصدرُ طمأنينةٍ وسكونٍ وسعادة.

ولا تسمح للضغوط أن تَسرِق منك سكينتك، أو تخطف منك سعادتك، بحيث تتحوَّل إلى إنسان غضبي أو انفعالي أو حادٍّ، فحافِظ على الهدوء والسكينة في كل الظروف، وهذا أمر يمكن للإنسان أن يكتسبه بالتعلُّم.

والنبي ﷺ ذكر أن الذي يقول عند النوم: «**سبحان الله، والحمد لله ثلاثًا وثلاثين، والله أكبر أربعًا وثلاثين مرة**»[1]، تكون سببًا في قوة البدن، وقوة الروح، والنبي ﷺ ذكره لبنته فاطمة، وزوجها علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، فكانا يستعينان به على تعب الحياة وضغوطها.

كما أن مِن وسائل مقاومة الضغوط: محاصرتها في مكانها، فهموم العمل يبقى بين جدرانه، والبيت لا ذنب له حتى تنقل إليه قلق العمل ومشاكله، فلا تنقل همومه إلى بيتك، وعِشْ راحتك مع أهلك من خلال جلسة، واستراحة، واسترخاء، وقراءة، ومتعة، وأكل، وشرب.. ولا تسمح لمتاعب العمل أن تنتقل معك إلى حيث انتقلت، وهذه قضية ضرورية من أجل المحافظة على بقائك واستمرارك.

(١) أخرجه البخاري (٣١١٣)، ومسلم (٢٧٢٧) من حديث علي رضي الله عنه.

ومن ذلك: تَقَبُّل الدعم الخارجي ومساندة الآخرين لك واستماعهم إليك، بدلًا من أن تكون مُخْرَجات الضغط وإفرازاته أن تغضب على زوجتك، بل اجعل من زوجتك سَنَدًا تحدِّثها، ومعينًا تعينك على كثير من الضغوط.

وإن من ضروريات الحياة وجود الأصدقاء نسأل الله ألا يعدمنا وجودَهم، فلولا فضلُ اللهِ سبحانه وتعالى بوجودهم ومَنْحِهم إيَّانا، لكان الإنسان يعطش في هذا الهجير فلا يجد من يسقيه، ويموت فلا يجد مَن يذرف عليه دمعة، وبقدر ما في هذه الحياة من كبدٍ وعناء، إلا أن الله أهدانا بفضله وجميل عطائه أولئك الأصدقاء الذين نجدهم في الحياة.

فكون الإنسان يجد مَن يتحدث إليه، وقد يسمع منه رأيًا أو نصيحة أو مشورة، أو مساندة؛ مما يبدد الضغوط ويخففها.

ومما يساعد على ذلك: قراءةُ الوجه الإيجابي للأشياء، حتى للضغوط نفسها، ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾، فمحاولة اكتشاف الجانب الإيجابي وتوسيعه وتفعيله، يعالج الضغوط ويحولها إلى محفزات، ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

فقه الموقف

إن هذه الشريعة مبنيَّةٌ على قاعدة **تحقيق المصالح ودَرْء المفاسد**، وهذا أصلُ مقاصدِها وقواعدِها عند سائر أئمَّة العلم، بل هذا أصل مقاصد الشرائع والرسالات السماويَّة جميعًا.

وخيرُ المصالح وأجلُّها تحقيق التوحيد، وشرُّ المفاسد وأعظمُها الشرك بالله.

وهذه الشريعة هي أقوم الشرائع في تحقيق هذا الاعتبار؛ ولهذا فإن سائر أحكامها الخاصَّة والعامَّة، اللازمة والمتعدِّية.. في العبادات، والمعاملات، والعقود، والعهود، جاءت على هذا النَّسَق.

ولذا كان التفقُّهُ في الدين مِن أهمِّ أبواب الخير، وأشرفِ مقامات الاتباع لَهْدي المرسلين عليهم الصلاة والسلام.

ولا بدَّ للأُمَّة مِن قائمين بهذا الأصل الذي هو معرفة أحكام الشريعة ومقاصدها؛ لتحقيق العبوديَّة لله بما شَرَعَ، وليقوم الناسُ بالقسط، فالالتفات إلى تحقيق مناط الأحكام والتصوُّرات التي يعتبرها القائمون في هذه الأُمَّة بتقرير مسائل الشريعة، واستعمال الفقه في النوازل والحوادث التي تتعلَّق

بحقوق الأُمَّة كافَّةً؛ هو مِن حِفْظِ مقام الديانة، وحِفْظِ الدماء والأعراض والأموال، ومَنْعِ الفساد في الأرض.

واستعمالُ الفقه في هذا الباب له اختصاص بمقام العلم، والقولُ فيه بلا علم هو مِن موجباتِ الفسادِ، وأسبابِ ظهور البغي والعدوان.

وهذا حديث مُوجَز في فقه الموقف من الأحداث والنوازل الكبار للأُمَّة؛ نَعْرِضُه مِن خلال هذه المقولات بشيءٍ مِن الإجمال من خلال الصفحات التالية.

أولاً: مفهوم الفقه وغرض الفقيه:

يُستعمل لفظ الفقه بمعنى: فِقهُ أحكَامِ المسائلِ التَّفْصِيلِيَّةِ مِن العِبَادَاتِ أَو المعَامَلاتِ. وهي المسائل التي تكلَّم الفقهاء في أحكامها وأدلَّتها، سواء كانت مِن مَعَاقِدِ الاتفاق وموارد الإجماع، أو كانت مِن مسائل الخلاف بين الأئمَّة والفقهاء، وهذا مِن الفقه في الشريعة، ولكنه ليس كلَّ الشريعة، ولا كلَّ الفقه.

ولا جدال في اعتبار هذا اللون مِن الفقه، ولا في فضله، بل الشأن في قَصْرِ قاعدة الفقه ونظامه عليه.

فحين يكون النظرُ في مسألة خاصَّة مِن آحاد مسائل الفروع، فإن هذه المسائلَ تظَلُّ مقصورةً على مَحَلِّها، ولا يتعدَّى حكمها إلى التعلُّق بما هو مِن ثوابت الشريعة وقواعدها، وحقوق الأُمَّةِ العامَّة ومصالحها.

ومع هذا ترى في مِثْلِ هذه المسائل عنايةً لدى الناظرين مِن الشيوخ والطلبة المتفقِّهين، وتجد سَبْرَ الأدلَّة وتحقيقها، وجَمْعَ الأقوال، وتحصيل الراجح، وإطالة النظر في اعتبار الحكم وتحقيق مناطه، وترى مَن ليس من

أهل الاختصاص بهذا العلم يقع له هيبةٌ وإحجام عن القول فيها؛ لما يُوْجِبه ذلك من الافتيات على الشريعة، ولذلك يذم من اقتحم القول فيه وهو ليس من أهل الاختصاص والرسوخ.

لكن ما هو أولى بالذَّمِّ مِن هذا، ما يَعْرِض لبعض الناظرين والطالبين مِمَّن يَتَخَوَّضُ في تقرير أحكام النوازل، وبناء المواقف على اعتبارات شرعيَّة، وهو لم يحقِّق ما تقتضيه أصولُها وقواعدُها من الفقه والاستنباط، مع أنها قد تكون مواقفَ تُعَدُّ بحقٍّ فواصلَ في تاريخ الأُمَّةِ.

إنَّ مِن نَقْصِ الفقه في دين الله أن يصير الناظر أو المتكلِّم إلى مسألة مُفَصَّلَةٍ قد جمع العلماء حكمَها ودليلَها وقاصيها ودانيها؛ فيُمْعِن النظرَ ويُطِيل النَّفَسَ في التحصيل، وربما تكلَّف بعضُهم فوقَ قَدْرِ المسألة عند العلماء، لكنَّه حين يصير إلى قولٍ في قضيَّةٍ عامَّةٍ مركَّبةٍ مُعَقَّدةٍ يأخذُها بظاهر النظر، ويهجم عليها بلا تَرَدُّد ولا رويَّة، حتى إنَّ قضايا النوازل تُصْبِحُ مادَّةً لحديث كلِّ أحدٍ في أسبابها ومفاصلها ومآلاتها، ويَصْدُق هنا قولُ ابنِ عمر ﷺ لبعض أهل العراق: «ما أَسْأَلَكم عن الصغيرةِ! وأَجْرَأَكم على الكبيرة!»[(١)].

والغريبُ أنَّ مسائل النوازل حين تكون مِن جنس المسائل الْمُفَصَّلة التي تكلَّم فيها الفقهاء، لا يقَعُ فيها استعجالٌ في الغالب؛ لتجرُّدِها عن المقارنات العامَّة، ولِقُرْبِ شَبَهِها بالمسائل الْمُفَصَّلة المعروفة عند الفقهاء، لكن حين تكون النازلة حَدَثًا عامًّا، وتكون مادَّتها مُرَكَّبةً مِن مؤثِّرات شتَّى، فكأن هذه الْمُؤَثِّرات جُرِّدَت عنها هيبة الشريعة؛ فيصير القول فيها عند كثير مِن العامَّة

(١) أخرجه البخاري (٤٣٢٥)، ومسلم (١٧٧٨) من حديث ابن عمر.

وبعض الخاصَّة مِن جنس القول في المسائل المبنيَّة على تَوْسِعة الشريعة وبُحْبُوحتها، والتي يُدْرِك فقهَها جمهورُ أهل الإسلام، ويفوت على هؤلاء ما يقتضيه الموقف مِن الأثر المتعلِّق بحقوق الأُمَّة الكليَّة وضروراتِها التي جاءت الشريعة بحفظها وتحصيلها.

إن الموقف هنا يجب أن يكون مُحَصَّلًا مِن أدلة الشريعة بحقٍّ، مبنيًّا على قواعد الهدى والرحمة التي بُعث بها عليه الصلاة والسلام.

وفي «الصحيحين» من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: لما حَصَرَ رسول صلى الله عليه وآله وسلم الطائفَ فلم يَنَلْ منهم شيئًا؛ قال: «**إنَّا قافلونَ غدًا إن شاء الله**». فَثَقُل عليهم، وقالوا: نذهبُ ولا نفتحُه. فقال: «**اغدوا على القتالِ**». فَغَدَوا؛ فأصابهم جراحٌ، فقال: «**إنا قافلون غدًا إن شاء الله**». فأعجبَهم، فضحكَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم[1].

وفي هذا الحديث من الفقه: أن بعض النفوس المؤمنة، لصِدْقِ يقينِها، تتطلَّب مقامَ الصبر والبلاء في ذاتِ الله، ولا يلزم أن يكون هذا الأمر مقصودًا للشريعة، ومعلومٌ أنَّ الرسولَ صلى الله عليه وآله وسلم أكملُ تحقيقًا لمقام الجهاد والصبر والصدق من غيره، لكن لكمال عِلْمِه لم تَغْلِب عليه حالٌ واحدة، بل وازن بين الأحوال المقارنة للموقِف، فراعى مصلحة الجهاد، وراعى حقَّ أصحابه رضي الله عنهم، وراعى قوَّتهم وتحمُّلَهم في هذا الموقف الخاص.

إن الكثير مِن الحوادث والنوازل يكون لها أبعاد قريبة يُدْرِكها كلُّ أحد، ويتكلَّم فيها العالِمُ وغيره، وهذه مِن الوضوح والإحكام بحيث لا تكون مَحَلَّ تَرَدُّد، لكنَّها لا تستأثر بالحكم والبتِّ؛ لأنَّ ثَمَّة جوانبَ أخرى ترفَعُ المسألةَ عن كونها من الفرعيات اليسيرة، وتتطلَّب أن يَلْزَمَ المسلمُ جانبَ

(١) صحيح البخاري (٤٣٢٥) واللفظ له، وصحيح مسلم (١٧٧٨).

التحوُّطِ والهيبة والورع؛ حمايةً لدينه وتقواه، ورعايةً لحقوق الأُمَّة ومصالِحها وحاضرِها ومستقبلِها.

ثانيًا: مفهوم الاجتهاد في الموقف الشامل، وأدب أهل الاجتهاد فيه:

حقيقة الاجتهاد في النوازل هو: رَدُّ حُكمِ النَّازِلَةِ إِلَى قَضَاءِ اللهِ وَرَسُولِهِ ﷺ.

وهذا مقامٌ يختصُّ بتمام الفقه فيه أهلُ العلم بالشريعة، وقد تستدعي كثيرٌ من النوازل العلمَ بما يلابسها ويقارنها من الأحوال التي لا تنفكُّ عنها، فالحكمُ على الشَّيء فرعٌ عن تصوُّرِه، وهذه مِن قواعد النظر الْمُسَلَّمَةِ.

ولذا فإن تجريد الْحَدَثِ عن لوازمه وارتباطاته مِن المعارف والأحوال؛ يُعدُّ نقصًا في التصوُّر، ينتج عنه تأخُّرُ الحكم عن مرتبة الصحَّة.

ومما يَعْرِض لبعض الناظرين استعمالُ ما هو مِن مُفَصَّل الأدلَّة (الدليل الجزئي)، لتخريج النازلة على أحد الفروع المقولة لدى الفقهاء في مُصَنَّفاتهم، وهذا مِن حيث الأصل هو مِن الاجتهاد المناسب؛ لكن مَحَلَّ الـمُؤَاخَذة حين يستعمل في حكم الحوادث العامَّة الـمُعَقَّدة والتي تتنازعها مؤثِّرات عديدة؛ فيجرِّدُها الناظرُ مِن كلِّ ذلك، ويُخرِّجُها مع فرع فقهيٍّ مخصوص -وربما كان مِن موارد الخلاف بين الفقهاء- ثم يجعل هذا مُنْتَهى البحث والنظر.

ولعلَّ هذا أثرٌ للقصور عن تحصيل فقه المقاصد، ومراعاته في اعتبار الأحكام.

لذلك فإنه وإن حَسُنَ اعتبارُ الفروع، والتخريج على المناسب منها في النوازل؛ فإنه لا بدَّ مع ذلك من اعتبار مقاصد الشريعة وقواعدها العامة المذكورة في كلام الله ورسوله ﷺ، ومَعَاقد إجماع أهل العلم، فإن ذلك أصل في أحكام النوازل العامَّة والاجتهاد فيها.

ومعلوم أنَّ مِن مادَّة أصول الفقه والقواعد الفقهية المقولة في كتب هذا الفنِّ ما هو من مَوارد الاجتهاد والنظر، وهذا يستدعي أنَّه وإنْ أمكن اعتباره؛ فإنَّ هذا لا يعني قَصْر التحصيل عليه.

ولهذا نرى في سُنَّة الخلفاء الراشدين، وأئمَّة الفقه والحديث، العنايةَ بتحقيق هذا الاعتبار فيما يَعْرِض لهم من النوازل.

ففي الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنَّ عمرَ بنَ الخطاب رضي الله عنه خرج إلى الشام، حتى إذا كان بسَرْغ[١] لَقِيَه أهلُ الأجناد[٢] أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه، فأخبروه أنَّ الوباء[٣] قد وقع بالشام. قال ابن عباس: فقال عمر: ادْعُ لي المهاجرين الأوَّلين. فدعوتُهم. فاستشارهم وأخبرهم أن الوباء قد وقع بالشام، فاختلفوا، فقال بعضُهم: قد خرجْتَ لأَمْرٍ، ولا نرى أن ترجِعَ عنه. وقال بعضُهم: معك بقيَّةُ الناس وأصحابُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولا نَرى أنْ تُقْدِمَهم على هذا الوباء، فقال: ارتفعوا عني. ثم قال: ادْعُ لي الأنصارَ. فدعوتُهم له، فاستشارهم، فسلكوا سبيلَ المهاجرين، واختلفوا كاختلافهم، فقال: ارتفعوا عني. ثم قال: ادْعُ لي مَن كان هاهنا مِن مَشْيَخَةِ قريش مِن مُهَاجِرَةِ الفتح. فدعوتُهم، فلم يختلفْ عليه رجلان؛ فقالوا: نرى أن ترجِع بالناس، ولا تُقْدِمَهم على هذا الوباء، فنادى عمرُ في الناس: إني مُصْبِحٌ على ظَهْرٍ[٤]؛ فأصبحِوا عليه، فقال أبو عبيدة بن الجراح: أَفِرَارًا مِن قَدَرِ الله؟! فقال

(١) قرية في طرف الشام مما يلي الحجاز، يجوز صرفه وتركه.

(٢) المراد: مدن الشام؛ فلسطين والأردن ودمشق وحمص وقسرين.

(٣) أي: الطاعون.

(٤) أي: مسافر في الصباح على ظهر الراحلة.

عمرُ: لو غيرُك قالَها[١] يا أبا عبيدة! - وكان عمرُ يكرُه خلافَه - نعم! نَفِرُّ مِن قَدَرِ الله إلى قَدَرِ الله[٢].

وقد صدَّقت روايةُ عبد الرحمن بن عوف المرفوعة هذا الاجتهادَ الراشديَّ.

وفي هذا الأثر من الفقه:

١- أَخْذ أمور العامَّة بَعْزمٍ وتأمُّل ومراجعة.

٢- قبول اختلاف المجتهدين في النوازل؛ فإنَّ المهاجرين والأنصار وهم مادَّة الصحابة ومُقَدَّمُوهم اختلفوا، ولم يُحْفَظْ بينهم في هذا الاختلاف تذامٌّ، ولا تطاعن، ولا تضييق لمقام الاجتهاد. وكأنَّ أهلَ الشوكة والصبر فيهم كانوا يميلون إلى الْمُضِيِّ وعدم الرجوع، وأهل الفقه -في الجملة- يميلون إلى الرجوع، وهؤلاء أَعْرَفُ بمقام الشريعة، والأَوَّلون غَلَب عليهم تعظيمُ مقام الإرادة والعزم في نصرة الإسلام بالسيف.

٣- تَرْكُ العنت الذي لا يُستطاع، وعدم ابتلاء بقيَّة أهل العلم والإيمان والجهاد بـه، وقريبٌ مِن هذا المعنى سَبَقَ في خَبَرِ حصار الطائف.

وهذا الأثرُ وأمثالُه يدلُ على أن تحصيل الموقف الشرعيِّ لا بدَّ أن يتحقَّق في صاحبه ديانةٌ وعلمٌ وفِقْهٌ وأناةٌ؛ فإن مقام الديانة يدفع الظلم، ومقامَ العلم يدفع الجهلَ، وهما مُوجِبا الخطأ، قال الله تعالى: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا**﴾. كما قرَّر هذا المعنى في الآية الإمام ابن تيمية رحمه الله[٣].

(١) الجواب محذوف، قيل: تقديره: لم أتعجب منه.

(٢) انظر: صحيح البخاري (٥٧٢٩)، وصحيح مسلم (٢٢١٩).

(٣) مجموع الفتاوى (١٠/ ٥٤٤).

والقول في مواقف الأُمَّة مِن أعظم الأمانة التي تنوء بحملها الجبالُ، وإنَّ مِن تقوى القلوب ألا يتحدَّث في المواقف العامَّة مَن لم يَزِن قولَه بميزان الشريعة.

إنه لا يكفي لموافقة الشريعة أن يكون الموقف مبنيًّا على مقام الصدق وحسن الإرادة، دون أن يتحقَّق له مقامُ العلم والمعرفة؛ فإن مقام العلم هو الذي يحقِّق موافقةَ مرادِ الشريعة، وليس مقام الإرادة وصدق النية.

ولهذا أمر الله تعالى باعتبار العلم عند الحوادث والنوازل، فقال سبحانه: ﴿**وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ**﴾، وأولو الأمر هم: أهل الإدارة والحُكم، ويدخل فيهم أهل الفقه في الدين، وهم أولو العقل والفَهْم، كما ذكره ابن جرير عن بعض مُتَقَدِّمي العلماء[1].

إنَّ مما يَفُوتُ على كثير مِن العامَّة وبعضِ الخاصَّة، عدمُ تحقيق الردِّ إلى الله والرسول ﷺ، ولئن كان مظنونًا في جملتهم حسنُ القصد وصلاح النيَّة في المواقف التي يتخذونها في حاضر الأمَّة وغابرها، إلا أنَّ التقصير في تحقيق العلم والفقه، ونقص قيمة الوعي وسلامة التفكير؛ هو مِن موارد الفتنة وموجبات الفساد.

ومَن يريد أن يكون له حَظٌّ مِن الاجتهاد في تقرير أحكام الشريعة في هذه النوازل، لا يصلح أن يكون فِقْهُهُ ومَدْرَكه من جنس فقه العامة ومَدْرَكهم وبَصَرِهم؛ فإنَّ الله تعالى قال: ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ**﴾، بل هذه درجةٌ مخصوصةٌ من العلم، شأنُها كما قال الإمام الشافعيُّ في الرسالة: هذه درجة مِن العلم ليس تبلُغُها العامَّة، ولم

(١) تفسير الطبري (٤/ ١٤٩).

يُكَلَّفْها كلُّ الخاصَّة، ومَن احتمل بلوغَها مِن الخاصَّة فلا يَسَعُهم كلُّهم كافَّة أن يُعَطِّلوها، وإذا قام بها مِن خاصَّتِهم مَن فيه الكفايةُ لم يُحْرِج غيرَه مِن تَرْكِها إن شاء الله، والفضل فيها لمن قام بها، لا مَن عَطَّلها[1].

ومما يَعْرِض لبعض أهل الاجتهاد في النوازل: المبالغةُ في مُنَازَعَة مَن يخالفه مِن ذوي العلم والدين، وهذا مِن ضعف الفقه؛ فإن اختلاف المجتهدين في مثل هذا أمرٌ تَفْرِضُه حالُ الحدث ومادَّتُه وطبيعتُه، مع تفاوُت الأفهام والمدارك والعلوم، وكثير مِن مُؤَاخَذة بعض القائمين على العلم والاجتهاد في المواقف العامة، هو عند التحقيق مِن غوائل النفس وضعف علمِها أو صِدْقِها، وليس تُوْجِبُ مثلَ هذا أصولُ الشريعة ونصوصُها، وترى أن الواقعَ في تلك المؤاخذة لا يَسَعُه أن يُعامَل رأيُه أو اجتهادُه بالطريقة التي يستعملها هو مع غيره مِن أهل العلم والدعوة، مِمَّن هم في كثير مِن الأحوال أعلم منه بهذه المقامات وأحوالها، وأظهر فقهًا. فهذا مِن أسباب مِثْلِ هذا التزاحُم في العذر والسَّعَة، وإنْ كان الغالبُ على مثل هذه الأحوال أنها مُرَكَّبة مِن جملة مِن الْمُؤَثِّرات.

ومِن أسباب هذا التضييق لمقام الاجتهاد: أن يكون الحدث مركَّبًا مِن موادَّ شتَّى، ويكون منها وجه مُحْكَم ظاهر، يعرفه العامَّة والخاصَّة، ويعتبرونه، فيقصرون الأمر على هذا الوجه البيِّن، ولا يلتفتون إلى سواه.

وهذا يقع كثيرًا، أعني أن يردَّ أكثرُ العامَّة، بل وبعض الخاصَّة الأمرَ إلى جانب مِن جوانبه الصحيحة والبيِّنة؛ ولكنَّهم يَقْصُرون الأمرَ عليه، ولا يتفطَّنون إلى الجوانب الأخرى التي خَفِيَت عليهم.

(١) الرسالة (ص: ٣٣٨).

ويكون سببُ هذا:

١- إما إلفٌ تحقَّق اعتيادُه.

٢- أو الولاء والتجمُّع.

٣- أو التخصُّص في نوع من العلم، ويكون المعنى الذي قُصِرَ الأمر على اعتباره لا يحسن الناظر إلا إياه، فهو مادَّته ومجاله الذي يُمْكِنه التحرُّك فيه، فهذه حال قاصرة في الفقه؛ ولهذا ترى أن أهل العلم والفقه والتحقيق، عندهم شمول في النظر، واعتبار لمقاصد الشريعة، فيعتبرون النظر البيِّن وغيره.

أي أنَّ أهل العلم والاعتبار يقع لهم نظر آخر، لمحلٍّ آخر مِن هذا الحدث، لا يُدْرِكه العامَّة، وهذا مِن أسرار قوله سبحانه: ﴿**لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ**﴾، فإن الاستنباط يكون فيه نوع معالجة وجهد، فهو مِن خصائص أولي العلم الذين يُدْرِكون جوانبَ مِن الأمر يغيب إدراكُها أو استحضارُها عن غيرهم.

إن الوجه الْمُحْكَمَ في الشريعة الذي لا تنفك عامَّة الأحداث عنه؛ يجب أن يبقى لُحْمَة أهل الإسلام، وعِصْمة اجتماعهم؛ لكن يبقى لخاصَّتهم حقُّ النظر في إحكام الموقف وتسديده على وِفْق قواعد الشريعة، التي جاءت بتحقيق المصالح ودَرْء المفاسد.

وهنا نَظَرٌ من الفقه: وهو أن يكون الحكم الْمُسْتَنْبَط باجتهاد دقيق لا يفطن له كلُّ أحد، قد لا تظهر مناسبته عند بعض العامَّة؛ بسبب الحكم الآخر الظاهر المُحْكَم، فيظنُّ مَن يظنُّ أن ذلك النظرَ الدقيق المستنبَط يقتضي التفريطَ في الوجه الْمُحْكَم أو مناقضته، وليس الأمر كذلك عند مَن له علمٌ وفقهٌ.

وقد جاء في السنة قصة صلح الحديبية المخَرَّجة في «صحيح البخاري» وغيره في سياق طويل، وكيف أن الشروط التي قَبِلَها ﷺ وإنْ رأى فيها بعضُ الصحابة، بل بعض خواصِّهم وأكابرهم رضي الله عنهم، مفارقَةً لمقام الجهاد وعلوِّ المؤمنين؛ لكنَّه كان الخيرَ والحقَّ والصوابَ، وسمَّاه الله فتحًا: ﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا**﴾[١]، وهذه السورة نزلت مَرْجِعَه عليه السلام من الحديبية، وهم يخالطهم الحزن والكآبة، كما ثَبَتَ في «صحيح مسلم» عن أنس بن مالك رضي الله عنه[٢].

ومِن فاضل فقه الصحابة رضي الله عنهم في هذا الوجه الذي قد كان بعضهم يراه منافيًا للوجه الـمُحْكَم، ما جاء في «الصحيحين» وغيرهما في غزوة مُؤْتة، عن أنس رضي الله عنه، أن النبيَّ ﷺ نعى زيدًا وجعفرًا وابنَ رواحة للناس قبل أن يأتيَهم خبرُهم، فقال ﷺ: «**أَخَذَ الرايةَ زيدٌ؛ فأُصِيبَ، ثم أَخَذَ جعفرٌ؛ فأُصِيبَ، ثم أَخَذَ ابنُ رواحـةَ؛ فأُصِيبَ**»، وعيناه تذرفان، «**حتى أَخَذَ الرايةَ سيفٌ من سيوفِ اللهِ، حتى فتحَ اللهُ عليهم**»[٣].

وأهل العلم وإن اختلفوا في تفسير هذا الحرف الآخِر، إلا أنَّ مِن أرجحِ الأقوال: أن الفتح المذكور تحيُّزُ خالد رضي الله عنه بالمسلمين عن عدوِّهم..

وسواء فُسِّر هذا الحرف بهذا، أو به وبغيره، أو حتى بغيره؛ فإنه يُعلَم بالإجماع أن تَحَيُّزَ خالد رضي الله عنه بالمسلمين كان محمودًا، وقد أقرَّه الرسول ﷺ وامتدحه، وإن كان هذا لم يَظْهَرْ مَبْدَأَ الأمرِ لبعضِهم.

وفي الحديث مِن الفقه: أنَّ مقام حُسْنِ القصد، والصبر، وبذل النفس، لا

(١) صحيح البخاري (٢٧٣٤) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم.
(٢) صحيح مسلم (١٧٨٦)، وانظر صحيح البخاري (٤١٧٢).
(٣) أخرجه البخاري (٤٢٦٢) من حديث أنس رضي الله عنه.

يحكم وحدَه سائر المواقف، بل هذه الشريعة جاءت بمراعاة القواعد الشموليَّة العامَّة، وهذا مِن فِقْهِ خالد ﷺ لمقاصد الجهاد، مع أنه مِن أكثر أهل الإسلام تحقيقًا لفِقْه الجهاد، وفقه المقاصد اللازمة والمتعدِّية.

وهما حرفان مِن المقاصد فيهما فقهٌ جامِعٌ، فيقع في المقاصد اللازمة: قَصْدُ الدرجات، والشهادة، والبِرِّ، وإصلاح النفس، واحتسابها في ذات الله.

ويقع في المقاصد المتعدِّية: بسطُ الإسلام، ببسطِ هدايته وسلطانه، وتديين الناس لربِّ العالمين، ورَفْع الظلم عن المظلومين من أجناس الكفار؛ لأن شريعة الإسلام لا بدَّ أن تكون أرحمَ بالناس مِن سائر شرائع الأرض.

ومن أخصِّ ما يجب على أهل الإسلام: ألاَّ يتخذوا العلمَ بَغْيًا بينهم؛ فإن الوحي نزل ليردَّ الناسَ إليه، ويجتمعوا به على الحقِّ، وسائر أوجه الحقِّ لا تظهر لكلِّ أحد، ويقع فيها ما هو من موارد النـزاع الْمُقَرِّ في الشريعة.

ثالثًا: حقيقة الخلاف الذي أقرَّته الشريعة:

الناظر في آيات القرآن الكريم، يجد أنَّ الله عز وجل ذكر الخلاف والنزاع في مورد الذمِّ كثيرًا، وذكره أحيانًا على أنه حالٌ تَعْرِضُ للمؤمنين، كما في قوله عز وجل: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾، وقوله عز وجل: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

وهذه الحال العارضة المقبولة هي التي تقع بين علماء الأُمَّة من الصحابة فَمَن بعدَهم، ومثلُ هذا لا يُوْجِب الذمَّ، ولا الطَّعْنَ، ولا التأثيم باتفاق العلماء.

فإنَّ مَن عُلِمَ منه الاجتهادُ السائغ، لا يجوز أن يُذْكَر على وجه الذمِّ والتأثيم، حتى لو عُلِمَ خطؤه، فإنَّ الله قد غفر له هذا الخطأ، وأصلُ اجتهادِه محمود في

الشريعة، وهو متردِّد بين أجر وأجرين، كما ثَبَتَ في حديث عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الـمُتَّفق على صحته[١].

وتحريم الطعن والذمِّ لا يُوجِب قبولَ الخطأ، ولا تَرْكَ البيان، كما قرَّر هذا المعنى وبَسَطَه غيرُ واحـد من العلماء.

وليس مِن شرع الله ولا قَدَرِه، أن يَتَّفِق علماء الأمَّة في سائر مواضع الاجتهاد، فمَن لم يَقْدُر لهذا المقام قَدْرَه؛ فقد اتَّخذ العلمَ بغيًا، وهذا مِن أعظم أسباب الفساد الذي وقع لأهل الكتاب، وخرجوا به عن حقيقة الإسلام الذي بُعث به جميع المرسلين، ولهذا قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

وإذا كان المجتهدون يُؤمَرون بالتَّعَاذُر، وعدم الطعن على المخالِف؛ فكيف بالعامَّة الذين لا اجتهادَ لهم أصلًا، وإنما فاضِلُهم مقلِّدٌ لأهل العلم!

إن الخلاف الْمَبْنِيَّ على مقام الديانة والعلم، وهو: اختلاف أهل الاجتهاد الْمُعْتَبَرِ في الأُمَّة، إذا تحوَّلت الآراء فيه إلى ولاءات خاصَّة، ومفهومات للحزبيَّة والطائفيَّة؛ فإنه يخرج بذلك عن كونه رحمةً ومُتَابعةً لحكم الله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ؛ ليكون تمزيقًا لأهل الإسلام، ورجوعًا إلى أمور الجاهليَّة، واتباعًا لسنَّة أهل الكتاب المنحرفين عن هَدْي أنبيائهم.

ومما يجب على أهل العلم فِقْهُهُ وتعليمه للناس: ألا تُسْتَبَاح قواعدُ الشريعة ومقاصدُها بالمخالفة والردِّ لتأويلٍ يستعملُه ناظر، ولو كان حَسَنَ القصد والإرادة.

(١) صحيح البخاري (٧٣٥٢)، وصحيح مسلم (١٧١٦)، وهو قوله صلى الله عليه وسلم: «إِذَا حَكَمَ الحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ، فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ، فَلَهُ أَجْرٌ».

ومما يدركه المُتَأمِّل: أن جُلَّ البغي في الأمَّة، يحصل بسبب تأويل سائغ عند أصحابه، ولكنَّهم تَحَلَّلوا به مِن عواصم الشريعة، ومُحْكَمَاتها؛ لمعنًى غَلَبَ في نفوسهم، تزيدُه الغيرة، وينقُصُه العلم.

وإذا كان كلُّ عاملٍ صادق في هذه الأمَّة يَعنيه أَمْرُ اجتماعها والتفافها، وتَرْكُ التنازع والاختلاف المذموم بين خاصَّتها، خصوصًا في أزمنةِ الضائقة والضعف وتسلُّط العدوِّ؛ فإنَّ مِن المعلوم قَدَرًا وشرعًا أنَّ هذا الاتفاق لا يكون باتِّحاد القول في مفردات المسائل وآحادها؛ إذْ هذا لم يقع لأبي بكر وعمر والراشدين، ولا للخيرة مِن أصحاب محمد ﷺ حالَ حياته؛ إذ اختلفوا في تفسير هذا الحرف: «**لا يُصَلِّيَنَّ أحدٌ العصرَ إلَّا في بني قريظةَ**»[1].

ومعظمُ المسائل التي اختلف فيها مَن بعدَهم في أبواب الفقه أو التفسير أو غيرهما، فإنما قَفَوا بذلك أثرهم، وكان لهم متبوع مِن الصحابة رضي الله عنهم.

وهذا الاختلاف راجعٌ إلى اختلافٍ في قَدْرِ العلم وسَعَتِه، أو اختلاف في تكوين العقل ومَدْرَكِه وحِدَّتِه، أو اختلاف في الطبع وما يغلب على المرء من الحال والمزاج، أو اختلاف في الموقف والظرف المحيط بالمجتهد..

كما أنَّ الله عزَّ وجلَّ جعل شريعَته وكتابَه على مُقْتَضى قواعد اللغة التي يكون فيها ما هو قطعيُّ الدّلالة، وما ليس كذلك، وما هو مُفَسَّر، وما هو مُجْمَل، وما هو مُحْكَم، وما هو مُتَشابه، وما هو ناسخ، وما هو منسوخ، ولو شاء لجعلَها حرفًا واحدًا لا يختلف عليه الناس، غير أنه عزَّ وجلَّ أنزلها لناس خَلَقَهم، وهو أعلم بهم، ﴿**أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ**﴾، ولهذا جمع

(١) أخرجه البخاري (٩٤٦)، ومسلم (١٧٧٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

عز وجل بين هذين المعنيين في قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فهو الخالق المالك المتصرِّف، وهذا مِن معنى الرُّبوبيَّة، وهو الإله المعبود الآمر الناهي، وهذا من معنى الألوهية.

والموقف الذي أوجبته الشريعةُ: أن يعتصم أهل الإسلام بالمنهج الشرعيِّ في فقه الخلاف السائغ، وأن يَسَعَهم ما وَسِعَ الْمُوَفَّقين مِن أصحاب محمد ﷺ وسَلَفِ هذه الأمة، مِن التوسعة في العذر، وحِفْظِ مقام الأخوة الدينيَّة، وإحسان الظنِّ، وتَرْكِ البغي والتسلُّط، وأن يعتصموا بعِصَم الإسلام الجامعة، ولا يتفرَّقوا بمُوجِب الاجتهادات الخاصَّة، والآراء المتنازعة، ولهذا قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

فالأخوَّة الدينيَّة: لفظ جامع ينتظِم كلَّ مَن صحَّ له عَقْدُ الإسلام كائنًا ما كان خطؤه، فمَن كَمُلَ له الإسلام والإيمان كَمُلت له حقوق الأخوَّة، وإلا قُدِّرَ له مِن هذه الحقوق والتولِّي بقَدْرِه.

وهي لا ترتبط بالموافقة أو المخالفة في رأي، أو مذهب، أو اجتهاد إذا كان مِن المسائل التي يسوغ فيها الخلاف.

ولهذا جاء في الآية بعدها قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

وهاهنا تجد النهي عن التفرُّق مطلقًا، فالتفرُّق مذموم بإطلاق، حتى جاء

في الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود وغيرهما عن أبي ثعلبة الْخُشَنِيِّ رضي الله عنه، ما يدُلُّ على النهي عن التفرُّقِ الحسِّيِّ فضلًا عن المعنويِّ، حيث قال رضي الله عنه: كان الناس إذا نـزلوا منـزلًا تفرَّقوا في الشعاب والأودية، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**إن تَفَرُّقَكم في هذه الشِّعابِ والأوديةِ، إنَّما ذلكم من الشَّيطانِ**»[1]. فلم ينـزلْ بعد ذلك منـزلًا إلا انضمَّ بعضهم إلى بعض، حتى يقال: لو بُسِطَ عليهم ثوبٌ لعَمَّهم.

وهذا المعنى كثيرُ التردُّد في الكتاب العزيز، خصوصًا حين الحديث عن الأمم الكتابيَّة وما عَرَضَ لها في دينها.

أمَّا عن الاختلاف فلمْ يَرِدِ النهيُّ مطلقًا، بل مقيَّدًا يتبيَّن به أن ثَمَّت خلافًا مردودًا، وخلافًا مقبولًا؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿**وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ**﴾، فهذا الاختلاف في موضع الذمِّ؛ لأنه إعراضٌ عن البيِّنات والهدى، واتِّباع للهوى، وفي مواضع أخرى رَبْطُ الاختلاف بالبغي والعدوان.

والمطلوب أن يكون ثَمَّتَ اتفاقٌ على الأصول والْمُحْكَمَات في الشرع التي جاءت جمهرةُ نصوص الكتاب والسنة بتقريرها، وتَوَافَرَ العلماءُ عليها خَلَفًا عن سَلَفٍ، وهو مَحَلُّ الإجماع الثابت المستقرِّ.

ثم يكون الاتِّفاق على طريقة التعامل مع الخلاف؛ بحيث لا يخرج عن إطاره، ولا يُؤَثِّر على حقوق الإخاء الدينيِّ بين خاصَّة المسلمين وعامَّتهم، ولا يُنْتِج تفرُّقًا مذمومًا وبغيًا بين المؤمنين، ولا يمنع من الردِّ والنصيحة والبيان وإظهار الْحُجَّة، دون أن يكون ذلك مُلْزِمًا، أو أنْ يظنَّ به صاحبُه أنه حَسْمٌ لمادَّة الخلاف.

(١) أخرجه أحمد (١٧٧٣٦)، وأبو داود (٢٦٢٨) واللفظ له، وابن حبان (٢٦٩٠)، والحاكم (٢/ ١١٥).

إننا كثيرًا ما نتوجَّع على الوحدة الضائعة، ونقصد بهذا أن يجتمع الناس على ما نظنُّ وما نرى، وهذا ما لم يَتَوَفَّر للخاصَّة مِن أصحاب محمد ﷺ، وأئمَّة السلف الصالح، ولكن في الأزمات الحادَّة التي تضرب الأُمَّة، تمسُّ الحاجة إلى نوع مِن التأليف، وتجاوُز الحظوظ الشخصيَّة، ومقابلة السيِّئة بالحسنة، والاشتغال بالعمل الجادِّ الْمُثْمِر.

وهذا رجل جاهليٌّ مِن إياد، وهو لَقِيْطُ بنُ يَعْمَر يُشَخِّص الحال، ويصف الدواء وَصْفَ الذي فَاتَه نورُ الهداية، لكن لم يَفُتْهُ دَرْكُ العقل والتجربة، ومناسبتها ما نراه اليوم من المكر الغربيِّ الذي تجاوز حدَّ التخمين؛ ليُصْبِحَ حقيقةً واقعةً:

بل أيُّها الراكبُ المزْجِي عَلَى عَجلٍ ... نحـو الجزيـرةِ مُرْتَـادًا ومُنتَـجِعا

أَبْلِغْ إيادًا، وخَلِّلْ في سَرَاتِهِمُ[1] ... إنِّي أرى الرأيَ -إن لم أُعْصَ- قد نَصَعَا

يا لَـهْفَ نفسي إنْ كانت أمورُكُمُ ... شتَّى، وأُحكِمَ أمـرُ الناسِ فاجتَمَعَا

ألا تــخافون قومًـا لا أبـا لكـمُ ... أمسَوا إليكم كأمثـالِ الدَّبَا سُرُعَا

فهـم سِـراعٌ إليكـم بيـن مُلْتَقِـطٍ ... شَوكًا وآخرَ يجني الصَّابَ[2] والسَّلَعَا[3]

لـو أنَّ جَمْعَهُـمُ رامَـوا بِهَدَّتِـهِ ... شُمَّ الشَّمَارِيـخِ مِن ثَهْلان لانْصَدَعَا

فـي كلِّ يـومٍ يَسُـنُّون الحِـرَابَ لكمُ ... لا يَهْجَعُـون إذا مـا غــافلٌ هَجَعَـا

(١) أي: أشرافهم.

(٢) هو شجر مرٌّ، له عصارة بيضاء كاللبن بالغة المرارة، إذا أصابت العين أتلفتها.

(٣) هو نبات أو شجر مر الطعم، وله شوك.

خُـزْرٌ عيونُهُـمُ[١] كأنَّ لَـحْظَهُمُ ... حريـقُ نـارٍ تُـرى منـه السَّـنَا قِـطَعَا
لا الحرثُ يشـغلُهم بل لا يرون لهم ... مِـن دونِ بَيْضَتِكُـم رِيًّـا ولا شِـبَعَا
وأنتمُ تحرُثُون الأرض عن عَرَضٍ ... في كلِّ مُعْتَمَلٍ تبغـون مُزْدَرَعـا
وتَلْبَسون ثيابَ الأمن ضَاحِيَةً ... لا تفزعون وهذا الليثُ قد جَمعَا
وقـد أظَلَّكُـمُ مِـن شَـطْرِ ثَغرِكُـمُ ... هـولٌ لـه ظُلَـمٌ تغشـاكمُ قِطَعَـا
مالـي أراكـم نيامـا فـي بُلَهْنِيَـةٍ[٢] ... وقد ترون شهابَ الحربِ قد سَطَعَا!
فاشفوا غليلي برأيٍ منكمُ حصد ... يضحى فؤادي به رَيَّانَ قَدْ نَقَعَا
قوموا قيامًا على أمشاطِ أَرْجُلِكم ... ثم افزعوا قد ينالُ الأمرَ مَن فَزِعَا
يا قومُ إنَّ لكم مِن إِرْثِ أَوَّلِكُم ... عِـزًّا أُحَاذِرُ أن يُودي فيَنْقَطِعا
يا قومُ لا تأمنوا إنْ كنتمُ غيرًا ... على نسائِكُمُ كِسرى وما جَمَعَـا
هو الفناءُ الذي يجتثُّ أصلَكُمُ ... فشَمِّروا واستعدُّوا للحروب مَعَا!
هذا كتابي إليكم والنذيرُ مَعَا ... فمَن رأى مثلَ ذا رأيًا ومَن سَمِعَا!
لقد بَذَلْتُ لكم نُصْحي بلا دَخَلٍ ... فاستيقظوا إنَّ خيرَ القولِ ما نَفَعَا

رابعًا: الموازنة بين القصد والولاء، وبين الفقه والتصور:

القصد والولاء هو مِن باب الإرادة والعمل، والفقهُ والتَّصوُّر هو مِن باب العلم والمعرفة.

(١) الخزر: ضيق العيون وصغرها.
(٢) أي: غفلة.

وكلا البابين من الإيمان، فإن الإيمان قول وعمل، كما قـرَّره سلف هذه الأمَّة وأصَّلُوه، وهما مِن مُعْتَبَر الشريعـة في اتخاذ الحُكْم والموقف، ولا بدَّ فيهما مِن الموازنة.

فالإرادة إذا تجرَّدت عن العلم تحصَّل منها مخالفة للشريعة وأحكامها.

والعلم إذا تجرَّد عن الإرادة؛ تحصَّل منه مخالفةٌ للشريعة من وجه آخر.

والناظرون من أهل الإسلام اليومَ لهم مقام محمود في بابَيْ الإرادة والعلم بحمد الله، ولكن ما يقع فيه شيء من الفَوْتِ والقصور لبعضهم هو الموازنة وضبط الاعتدال بين الولاء والتصوُّر، أو بين الفقه والقصد، أو بين العلم والعمل.

فترى بعضَ المواقف ناتجةً عن أَثَرِ الولاء الذي هو بذاته حقٌّ، وهو أحد أوجه الْحُكْم في النازلة، ولكنَّه لا يستقلُّ به، ومِن هنا يكون الحكم حكمًا ولائيًّا عاطفيًّا، ليس فيه مادَّة تناسبه من الفقه والعلم والتصوُّر اللازم شرعًا.

وترى مواقف أخرى تَعْتَبِر بالعلم والفقه فحَسْب، وتَقْصُر عن مقام الإرادة والولاء، فيدخل بذلك على الْحُكْم قصورٌ عن موافقة الشرع.

وبيان هذا المعنى: أنَّ علمَ الشريعة مَبْنِيٌّ على الرحمة، والرحمةُ من مقامات الإرادة؛ ولهذا قال تعالى لما ذكر قصة موسى والخضر عليهما السلام: ﴿**فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا**﴾، فجمع بين مقام العلم والفقه، وبين مقام الرحمة التي هي من الإرادة.

ولهذا كانت الكتب الْمُنَزَّلة على الأنبياء مشتمِلة على هذا التركيب والتوازن بين الولاء والتصوُّر، كما في قوله سبحانه: ﴿**ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ**﴾.

وقال عن كتاب نبيِّنا محمد ﷺ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝٧٦ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾. فجمع بين كشف الاختلاف الذي جرى لبني إسرائيل، وهو العلم، وبين الرحمة، وهذا في القرآن كثير، وهو مُعَبَّر عنه في مواضع بالهدى ودين الحق، أي: العلم النافع والعمل الصالح، كما فَسَّره بذلك كثير من السلف والأئمَّة.

والموازنة بين الإرادة والعلم في تقرير الْحُكْم وضَبْطِ الموقف في النوازل والمسائل العارضة، هو مِن التحقيق لأدب الشريعة، والاتِّباع لآثار الرسل، ولهذا كان محمد ﷺ رحمة للعالمين، ووُصِفَ الكتابُ بالرحمة في غير موضع، مع أنَّه هُدًى ونور.

إن في بعض النفوسِ ميلًا إلى الشوكة والْمَنعة والتحريب والنكاية، وربما غَلَبَ عليها لذلك باب الإرادة والفعل، فلا ترى إلا ما اقتضته طبيعتها، وتغفل عن غيره من أوجه النظر.

وفي بعض النفوس ميلٌ إلى العلم والمعرفة والنظر؛ فيَعْرِض لها مِن الأحوال المترتِّبة على ذلك ما يناسبها، وتقصر أو تغفل عمَّا سواه، مما هو من مُرَاد الشريعة، وفي بعض النفوس ميلٌ إلى القوَّة والشِّدَّة، وفي أخرى ميلٌ إلى اللين والسلامة، وهكذا..

ومعلوم أن تجريد النفوس عن ميلها الفطري ليس مقدورًا عليه في الجملة؛ ولذلك جاءت الشريعة بالأمر بالموازنة بين ما هو حقٌّ بذاته، والأمر بدفع ما ليس بحقٍّ، فإنه يَعْرِض للنفس في باب العلم، وفي باب الإرادة ما هو نوع شبهة أو تأويل، والله تعالى خلق النفوس وسوَّاها، وألهمَها فجورَها وتقواها.

وإذا كان من الْمُقَرَّر في الشريعة النهيُ عن اتخاذ العلم بغيًا بين أهله، ولو كان قول الباغي مُعْتَبَرًا موافِقًا في الأصل، إلاَّ أنَّ البغيَ زيادةٌ طارئة مذمومة؛ فكذلك من بابِ أولى أنَّ الشرع يمنع اتخاذَ أحوالِ النفوس المختلِفة بين بني آدم سببًا للبغي والعدوان.

وكما أن مِن الناس مَن يبغي بما معه مِن العلم المصدَّق، فإنَّ منهم مَن يبغي بما معه مِن أحوال النفس وطبائعها، وقد تكون بعض هذه الأحوال محمودةً في الجملة، كالقوة أو الشجاعة أو الصبر أو الكرم؛ لكن لا يلزم أن تكون محمودة في كلِّ الموارد، ولا يجوز أن يبغي بها صاحبها على مَن ليس مِن أهلها.

وبعض الناس قد يبغي بما معه مِن القول الذي هو مِن باب الظنِّ والاحتمال، وليس مِن العلم المصدَّق.

ومثله مَن يبغي بما معه مِن أحوال النفس التي ليست محمودةً في الشريعة، فضلًا عن البغي ببعض الظلم والهوى.

وإذا تقرَّر ذمُّ الله تعالى لمن اتَّخذ العلمَ الصادق الذي بعث الله به رُسُلَه بغيًا على غيره، فغيرُه أولى بهذا الذمِّ وأجدرُ.

والبغي له صور وأمثال، وهو مِن المعاني التي يعرفها الناس، وليس تُخْفِيها الحروفُ ولا صيغةُ الكلام..

ولهذا كان مِن فقه علي بن أبي طالب رضي الله عنه الذي تلقَّاه عنه أئمَّةُ الإسلام وفقهاءُ السنة: ألاَّ يُتَحَدَّث ببعض العلم المأثور لمن قَلَّ فقهُه، وتأخَّرَت رُتْبَتُهُ.

قال الإمام البخاريُّ رحمه الله: (باب مَن تَرَكَ بعضَ الاختيار مخافةَ أن

يَقْصُرَ فَهْمُ بعضِ الناسِ عنه)، ثم أوردَ حديثَ عائشةَ ﵂ قالت: قال النبيُّ ﷺ: «**يا عائشةُ، لولا قومُكِ حديثٌ عَهْدُهم بكفرٍ لَنَقَضْتُ الكعبةَ، فجَعَلْتُ لها بابين: بابٌ يدخلُ الناسُ، وبابٌ يخرجون**»[(١)]. ثم بوَّب البخاريُّ رحمه الله: (باب مَن خصَّ بالعلم قومًا دون قومٍ؛ كراهيةَ أن لا يفهموا)، ثم ساق قولَ عليٍّ ﵁: «حَدِّثوا الناسَ بما يعرفون، أتحبُّون أن يُكَذَّبَ اللهُ ورسولُه!»[(٢)].

وذكر الحافظُ أن المراد: بما يفهمونه، ثم ذَكَرَ أثرَ ابنِ مسعودٍ ﵁ المرويَّ في «صحيح مسلم»: «ما أنت مُحَدِّثًا قومًا حديثًا لا تَبْلُغُهُ عقولُهم، إلا كان لبعضِهم فتنةً»[(٣)].

ثم ذكر عن أحمد ومالك وأبي يوسف، ومِن قَبْلِهم عن الصاحبِ الحافظِ أبي هريرة ﵁ ما يُعَزِّز هذا المعنى[(٤)].

ولعلَّ مِن لطيف فِقْهِ هذا الباب: أنَّ المرءَ قد يفرح بما يوافقه في باب مِن أبواب العلم - ومثله الفعل والإرادة - فيحجبه ذلك عمَّا هو أوسعُ وأنفعُ، ويحمِله ذلك على بَطَرِ الحقِّ وغَمْطِ الناسِ، والْمُوَفَّق مَن وَفَّقَه الله.

خامسًا: التفاضل في التكليف:

مِن المُتَحَقَّق أن سائر تكاليف الشريعة داخلة في مُسمَّى الإيمان وحقيقته؛ فإن الإيمان: قول وعمل، يعمُّ سائرَ القول الشرعيِّ، وسائر العمل الشرعيِّ، وهذا مفهوم مُتَّفَقٌ عليه بين الصحابة رضوان الله عليهم.

(١) صحيح البخاري (١٢٦)، وهو في صحيح مسلم (١٣٣٣).
(٢) صحيح البخاري (١٢٧).
(٣) صحيح مسلم (المقدمة) (١/ ١٠).
(٤) فتح الباري (١/ ٢٢٥).

وثَمَّت حقيقة في هذا الباب، هي: أنَّ الْمُكَلَّفين يتفاضلون في التكليف، أي: في الأمر والنهي، وهذا التفاضُل تارةً يكون سببُه خاصًّا، وتارة يكون عامًّا، وتارة يكون لازمًا، وتارة يكون متعدِّيًا؛ فإنَّ الله خلقَ بني آدم، وجَعَلَهم درجاتٍ فيما آتاهم، وابتلاهم حسب هذا الْخَلْقِ والتقدير؛ ولهذا قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وإذا تحقَّق هذا القَدْرُ؛ فإنَّ من الفقه في المواقف العامَّة: اعتبارَ تفاضُل التكليف في الأمر الواحد، فإنَّ ما وجب على هذا لا يَلْزَم بالضرورة أن يجب على كلِّ أَحَدٍ يُقَدَّرُ في الظنِّ أنه مساوٍ له، فضلًا عمَّن عُلِمَ تفاوته معه في الحال والشأن.

وفقهُ تفاضُلِ التكليف يحصل بقدر مِن الاعتدال والوسطيَّة؛ فإنَّه يتكوَّن عنه تحقيقٌ لشموليَّة التكليف، ومراعاة مجموعة مقاصد الشريعة، وليس القصر على غرض واحد.

وحصول التعدُّدية في القول والعمل المحصَّل مِن شموليَّة الشريعة، هو المستوعِب لمساحات التفكير والعمل التي تتطلَّب مشاركةً يُقَدِّمُها أهل العلم والدعـوة؛ حتى لا يحاصِروا أنفسَهم في دائرة واحدة، ويراهنوا عليها تحت حساباتٍ قد تكون خاسرة، وحين يعيش هؤلاء هذا الضيقَ؛ تجد أنه ربما وقع نوعٌ من المراهنة على أقدارٍ هي من الغيب الذي لا يعلمُه إلا الله عز وجل، وهو راجع إلى مشيئته وحِكْمتَهِ.

وحين نَعتبرُ هذا المعنى في تفاضُل التكليف، فمِنَ اللازم: **ألَّا يُفتات على الشريعة بإيجاب ما لم يتحقَّقْ إيجابُه على المسلمين**، أو نوعٍ منهم.

والأقدار الربانيَّة التي يُبْتَلى بها أهل الإسلام، **تُدْفَع بما تأذَن به الشريعةُ، وليس بما يُفرض مناسبًا لدفعها، ولو كان فيه تخطٍّ لحدود الشرع والعقل**؛ فإنَّ قصدَ مقام الدفع للشرِّ قد يقع معه كثيرٌ مِن البغي والعدوان؛ لأن النفسَ مائلةٌ إلى هذا بطبعها؛ مما يستدعي تمامَ التحرِّي والعدل والقصد والتسليم بقصور إرادة العبد عن دفع الفساد في الأرض من كل وجه؛ فإن هذا قَدَرٌ ماضٍ في الناس بما كسبت أيديهم، ومن الإيمان بقَدَرِ الله الإيمانُ بعلْمه بما سيكون؛ فإرادتُه وخَلْقُه مُتَّصِلان بعلْمه، وعلى هذا مضى القدر بما هو كائن، وجاء مثل قوله عز وجل: ﴿**ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾.

ويدخل تحت هذا الباب: أن سائر أحكام الشريعة مُعَلَّقة بالاستطاعة، وعند فَقْدِها يُرْفَعُ التكليفُ، وهذا معروفٌ في المسائل اللازمة؛ لكن قد يخفى على كثيرين طردُه في الأحوال المتعدِّية، وأصله مَحَلُّ إجماع ظاهر.

فتحقيقُ شَرْطِ الاستطاعة وفِقْهها في اعتبار المشروع، مِن أقوم الفقه وأنفعه؛ فإنَّه مِن المعلوم: أن غيرَ المقدور عليه ليس مِن موارد التكليف الشرعيِّ.

ومِن اعتبار الفقه بالتكليف: الموازنةُ بين القضاء الشرعيِّ والقضاء القَدَرِيِّ، وأنَّ الأحكام الشرعيَّة لا تُجَرَّد عن اعتبار السنن الكونيَّة القدريَّة؛ لكنْ ليس مِن الفقه تحصيلُ هذا بمَحْضِ هذا؛ ولهذا ثَبَتَ التكليف فيما عُلِم مُضِيِّ القَدَرِ بخلافه، مِن جهة كَوْن التكليف جاء مُشَاعًا في مورد مِن الإمكان لا يلزَم عليه معارضةُ القضاء الشرعيِّ للقضاء الكونيِّ.

ومن المعلوم عند علماء السنن أنَّه: ليس ثَمَّتَ تَلَازُمٌ بين الإرادة الشرعيَّة والإرادة الكونيَّة القدريَّة، ومِن فِقْهِ: هذا أنَّ ما عُلِمَ بالاجتهاد من القضاء الشرعيِّ،

لا يُجْزَم بلزوم مطابقة القضاء القدريِّ له؛ فإن القضاءَ القدريَّ غيبٌ مَحْضٌ مبنيٌّ على العلم المطلق والحكمة الشاملة، وهذا مِن خصائص الربوبيَّة ومقامات التوحيد التي ربما غلطَ مَن غلط في الافتيات عليها.

فمن ذلك: حينما يُفْرَضُ التلازمُ بين (الحقِّ، والنصر)، يُقدِّم كثيرون معادلة: إنَّ هذا حقٌّ. **إذًا**: لا بدَّ مِن مُشاهدة النصر في مدى عمرنا المحدود، ورؤيتنا الخاصَّة؛ لأن الحقَّ منصور!! وصاحب هذا التصوُّر لا يستطيع التفريق بين المفاهيم المبدئيَّة والمفاهيم التطبيقيَّة!

إن مبدأ (الحقُّ منصور) قَدَرٌ مُؤَكَّد؛ لكنْ يتأخَّر الإدراك لماهيَّة هذا المبدأ، التي هي الشكل التطبيقيُّ لماهية (الحقَّ)، وماهيَّة (النصر).

فهنا معنًى مهمٌّ يجب أن نُدْرِكه: وهو أن القيم المبدئيَّة ليست هي المحاولة التطبيقيَّة لهذه القيم، فهذا قَدَرٌ تكليفيٌّ تحته دراسة واسعة لمدى شرعيَّة الموقف في الأمر نفسه، وليس خيارًا نُصِرُّ عليه، ونُلِحُّ على اعتباره.

قد نستطيع الإلحاح على الناس أنَّ تَصَرُّفَنا شرعيٌّ؛ لكن مِن المهمِّ أن نُدْرِك: أنه قد لا يكون كذلك مِن كلِّ وجه، وهذه أوَّلُ عقبة مانعة من النصر؛ لحقيقة يسيرة: وهو أن القول: بأنه ليس ثَمَّتَ حقٌّ، إذا لم يكن ثَمَّتَ نَصْرٌ، هو شكل مِن الخلل.

ومِن المهمِّ أن نعيَ حقيقة النصر وماهيَّته وأشكاله وصوره، وأنَّ السنن الكونيَّة قضاءٌ لله سبحانه، وليست استجابة لاجتهاداتنا حتى لو كنَّا صادقي النيَّة والعمل؛ فأَمْرُ الكون ومصلحتُه حُكْمٌ لله وحدَه، ولا يحيط بعلمه إلا هو، وهذا يستدعي ألَّا نُعْطي مواعداتٍ ونبوآت للناس مقابلَ الامتثال لاجتهادٍ رأيناه.

إنَّ الرسل عليهم الصلاة والسلام لم يتجاوزوا إلى رَسْمِ الوعد الذي يختصر خيارات الذات، ويجعل الإنسان انتظاريًّا خلاصيًّا.

هذه غفلة عن حكمة الاستخلاف في الأرض، والأنبياء عليهم السلام كانوا يأمرون الناس بالتقوى، ويَعِدُونهم بالجنة، وفي الرسالة الخاتمة كان الوعد بتمكين الدين ذاته لا غير.

إننا نحتاج إلى ترتيب المفاهيم التي نعرفها، وإلى فِقْهِها باعتدال، وأن نستقرىء المنهجَ الشرعيَّ في بناء الذات، والتخلُّص مِن حاكميَّة الطباع؛ لنحقق العبوديَّة لله وحده.

فقه الجهاد

طبيعة الموضوع:

أصبحَ موضوع الجهاد ذا صِبغة عالميَّة في التناول والتداول، وكَثُرَ الطَّرْقُ حوله باتجاهات متناقضة متعارضة.

فثَمَّت طرف دوليٌّ يَعْتَبِرُ الجهادَ رديفًا للإرهاب، ثم يحاول أن ينأى بالإسلام عن هذا المعنى؛ ليُفرِغ الإسلامَ مِن قدرته على المقاومة والممانعة، أو يحاول أن يُلْصِق بالإسلام تهمة الإرهاب.

إن تصوير الإسلام على أنه دين وديع، لا يملِك القدرة على الدفاع، ولا يحشد أتباعه في مقارعة الباطل، ولا يملك أدوات التجييش عند الضرورة، لهو مُجَانَبَةٌ للحقِّ، خاصَّة في هذه الغابة المتشابكة مِن المصالح والصراعات.

كما أن وصم الإسلام بالعنف والدمويَّة والتَّعَطُّش للقتل وإشاعة الكراهية، ظلم وجناية ومُجَافاة للموضوعيَّة.

وثَمَّت أطراف إسلاميَّة يحملها الحماس على تناول موضوع الجهاد وِفْقَ واقع محدَّد، فيتمُّ تنزيل المفهوم الشرعيِّ على هذا الواقع، ويكون الانطباع

بالوضع القائم أكثر مِن الانطباع بالرؤية الشرعيَّة والتاريخيَّة.

وإزاء هذا الاشتباك يكون الوصول إلى الحقيقة أمرًا صعبًا؛ لأنَّ الذي يريد أن يصل إلى الحقيقة عليه أن يتجرَّد.

وكيف يتجرَّد مَن تُحَاصِره وسائلُ الإعلام بإيحاءاتها السلبيَّة، وتخنُقه الأحداث العالميَّة بتعقيداتها وأحاديثها واستفزازها المستديم؟!

والموضوع يستوجِب المصداقيةَ والوضوحَ والإخلاصَ والتقوى.

والواجب على المسلم أن يراعي فيما يقوله رضا الله لا رضا الناس، وأن يكون مُحْتَكَمُه إلى النصوص الشرعيَّة ومعانيها الصحيحة، لا إلى المستقِرِّ في أذهان فِئَةٍ مِن الناس، يُصِرُّون عليه، ويغضبون له، ويردِّدونه، دون رؤية ولا تَأَمُّل.

ليس مطلوبًا منا لَيُّ أعناقِ النصوصِ؛ لاسترضاء هذا الطرف أو ذاك، ولا أن نتعسَّف الأمور؛ هربًا مِن تهمة الإرهاب عند قوم، أو مِن تهمة الخضوع للضغوط الدوليَّة عند آخرين.

وكلما استطَعْنا أن نتعالى عن الظرف الآنيِّ السائد، وأن نقرأ الموضوع بأصالة وهدوء، كنا أقربَ إلى تَلَمُّس الحقيقة.

ومن المهمِّ جدًّا: التأكُّد مِن مشاعرنا القلبيَّة، ومَدَى توافقها مع ما يريد الله وما يحبُّ، ومن مفاهيمنا العقليَّة والمعرفيَّة، وتطبيقاتها العمليَّة؛ لأن المرء قد يَجِدُ نفسَه في طريق ما، ولا وقت لديه للتصحيح والمراجعة، وقد قال سبحانه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾.

وصحَّ في الحديث: «**لا يؤمِنُ أحدُكم حتى يكونَ هواه تَبَعًا لما جِئتُ به**»[١].

وأهواء الناس تختلف، فمنهم مَن هواه في اللِّين والترفق، ومنهم مَن هَوَاه في الشِّدَّة والحزم، وتحقيقُ كمالِ الإيمان: أن يكون الهوى تَبَعًا لما جاء به النبيُّ ﷺ.

وهذا يقتضي عَزْلَ الهوى عن التأثير ما أمكن، ومطاردة آثاره، والكثيرون يدركون أثر الهوى في أحكام الآخرين، لكنَّهم أقلُّ إدراكًا لأثر الهوى في أحكام أنفسهم.

الجهاد الكبير:

لنقف أولًا عند كلمة (جهاد)، فهناك من يفهمونها على أنها رديفٌ لكلمة (قتال)، ومن هنا أَخَذَتْ رنينَها الخاصَّ، فالجهاد على هذا هو محلُّ السلاح في المعركة، وهو اختزال لمعنًى كبير.

ومِن جاري العادة أن يُطْلَق المعنى العامُّ على بعض أفراده، ولكن حين يكون هذا الإطلاق سببًا في انحراف التفكير والسلوك، تدعو الضرورة للتَّأنِّي عند هذا الاستعمال.

جاءني مَرَّة أحد المتحمِّسين الذين وقعوا فيما بعدُ في ورطة التفجير الداخليِّ، وكان يقول لي: منذ طفولتي وأنا أقول: لا حلَّ إلا بالجهاد! قلت له:

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١٤)، والحسن بن سفيان الفسوي في الأربعين (٩)، ومحمد ابن مسلم الطوسي في الأربعين (٩)، والبيهقي في المدخل (٢٠٩)، والصابوني في الحجة في بيان المحجة (١٠٣)، والهروي في ذم الكلام (٣١٣)، والسلفي في معجم السفر (١٢٦٥)، وابن الجوزي في ذم الهوى (ص١٨)، وابن العديم في بغية الطلب (٥/ ٢٣٦٥-٢٣٦٦) من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما.

هذا غلط نَشَأْتَ عليه، وتأبى أن تُعيدَ النظر فيه، ولعلَّه لأوَّلِ مرَّة يسمع مثلَ هذه المجابهة، وتهيَّأ للنِّزال، ولكنَّه بُهِتَ حينما سمعني أصحِّح له وأقول: لا حلَّ إلا بالإسلام، والإسلامُ ليس هو الجهادَ، وإن كان الجهادُ شَعِيرة مِن شعائره!

إن أوَّل آية ذُكِر فيها الجهاد هي قوله سبحانه: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾، وهي آية نزلت بمكة قبل الإذْنِ بالقتال[1]، وقد تحدَّثَتْ عن الجهاد بالقرآن، ووصفت الجهاد به بأنَّه: (جهاد كبير).

فالجهاد الكبير، أو الأكبر، هو جهاد القرآن بتلاوته، وتَدَبُّره، وفَهْمِه، والعمل به، والدعوة إليه، والوقوف عند حدوده، والصبر على أحكامه، وتحكيمه في قرارات العقول، ومشاعر النفوس، وحركات الجوارح.

والجهاد بالقرآن قد يُوَجَّه للكافرين به، كما في الآية: ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ﴾، فيعني: جهاد الحجَّة والبرهان والإقناع، وإعداد العُدَّة لذلك بالعلم والبصيرة والحكمة، والمجادَلة بالتي هي أحسن.

وقد يكون الجهاد الكبير غيرَ مُوَجَّه للكافرين على وجه الخصوص، فيعني الجهاد في ميادين الحياة كلِّها، مِن الإصلاح والمعروف والبِرِّ، والإقساط والتقوى والتواصل، وهذه ألفاظ وردت في القرآن الكريم في مقام الحثِّ عليها، والأمر بالتعاون فيها مع الآخرين، والتواصي بها، والصبر على تَبِعَاتها.

إن لفظ (الجهاد الكبير)، لفظ قرآنيٌّ راسخ ومتقدِّم ومتميِّز، فيجب إبرازُه وحشدُ الجهود حوله؛ بمقتضى كونه (جهاد الحياة).

وهو الموضع الوحيد الذي وُصِف فيه الجهاد بأنه كبير، وهو كبير فعلًا؛

(١) انظر: تفسير الرازي (١/ ٣٤٠٦)، واللباب في علوم الكتاب (١٤/ ٥٤٨)، وفتح القدير (٤/ ١١٧).

بعمقه، وامتداده، ومشقَّة الصبر عليه أمام طوفان المتحمِّسين للاندفاعات العشوائيَّة.

وقد جاء في حديث مرفوع: «**قَدِمْتُمْ مِنَ الجهادِ الأصغرِ إلى الجهادِ الأكبرِ**»(١).

ولكن تُغني عنه الآية الكريمة بوضوحها، وحين سَأَلَتِ النساءُ رسولَ اللهِ ﷺ عن مشاركتهن في القتال، قال: «**عليهنَّ جهادٌ لا قتالَ فيه: الحجُّ والعمرةُ**»(٢). وفي رواية: «**جِهادُكنَّ الحجُّ**»(٣). وفي رواية: «**لكنَّ أفضلَ الجهادِ حَجٌّ مَبْرُورٌ**»(٤).

فوَصَفَه بالأفضليَّة، مع النصِّ على أنه لا قتال فيه، يفُكُّ الارتباط الذهنيَّ بين الجهاد والقتال بصورة لا لَبْسَ فيها.

وفي حديث ابن عباس ﷺ، أن رجلًا قال: يا رسول الله، إن امرأتي سألتني أن أحج بها معك على جملي فلان، فقلت لها: ذاك حبيس في سبيل الله، فقال ﷺ: «**أما إنك لو أحججتها عليه كان في سبيل الله**»(٥).

وقد ورد في مواضع كثيرة من القرآن الكريم الأمر بالجهاد بالنفس والمال، وهذه شموليَّة بيِّنَة، لا تعني البذل في ميدان المعركة فحَسْب، بل تعني بذل

(١) أخرجه البيهقي في الزهد (٣٧٣)، والخطيب في تاريخه (١٣/ ٥٢٣)، وابن الجوزي في ذم الهوى (ص٣٩) من حديث جابر ﷺ، وضعفه البيهقي، والحافظ في تسديد القوس.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٩٠١)، وابن خزيمة (٣٠٧٤) من حديث عائشة ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري (٢٨٧٥).

(٤) أخرجه البخاري (١٥٢٠).

(٥) أخرجه أبو داود (١٩٩٠)، وقال النووي في المجموع (٦/ ٢١٢) : صحيح.

النَّفْسِ والنفيس في سبيل الله بمعناه الواسع، سواء كان لمصالح الدين أو لمصالح الدنيا.

وفي حديث أنس رضي الله عنه مرفوعًا: «جاهدوا المشركين بأموالِكم وأنفسِكم وألسنتِكم»[(١)]، والجهادُ باللسان يكون بالدعوة، والإصلاح، والبيان، وإقامة الحجة.

ومثله قوله ﷺ لما ذَكَرَ الأئمَّة المضلِّين في آخر الزمان: «**فمَنْ جَاهَدَهم بيدِه فهو مؤمِنٌ، ومَن جاهدَهم بلسانِه فهو مؤمِنٌ، ومَن جاهدَهم بقلبِه فهو مؤمِنٌ...**»[(٢)]، فأشار إلى جهاد القلب بالصبر والإنكار، ورعاية المعاني الشرعيَّة الباطنة، وتحقيقها.

وفي قوله سبحانه لنبيِّه ﷺ: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ**﴾ تأكيد لهذا.

فإن مِن المُجْمَعِ عليه أن جهادَ المنافقين ليس هو قتالهم، وإنما هو أَمْرٌ وراء ذلك، مِن المجادلة بالحجَّة والإقناع، أو اليقظة والتَّفَطُّن والْحَذَر، أو كَشْفِ خِطَطِهم وإحباطِها..، وما شابه هذا.

فهناك جهاد النفس والمال، وجهاد اليد واللسان، وجهاد القلب، وجهاد الدعوة، وهناك (جهاد الحياة):

جِهَادُ المسلمين لهم حياةٌ ... أَلا إنَّ الحيـــاةَ هِـــيَ الْجِهَـــادُ

فبناءُ الحياة وتنميتُها، والتأسيسُ لنهضتِها، وتحقيق مصالح الناس

(١) أخرجه أحمد (١٢٢٤٦، ١٣٦٣٨)، والدارمي (٢٤٣١)، وأبو داود (٢٥٠٤)، والنسائي (٣٠٩٦)، وابن حبان (٤٧٠٨)، والحاكم (٢/ ٨١).

(٢) أخرجه مسلم (٥٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

ورفاهيتهم، وإصلاح العقول والنفوس والأبدان، وتحسين التعليم والصحَّة والاقتصاد والإعلام، ورَفْعُ مستوى المعيشة، وتطوير أبحاث العلوم، وتشجيع الإبداع، وحلُّ المشكلات القائمة..؛ كلُّ ذلك مِن الجهاد، وهو مِن طاعة الله ورسوله ﷺ.

وكلمة (جهاد) مأخوذة في اللغة مِن الْجَهْدِ، وهو بَذْلُ الوُسْع واستفراغُ الطَّاقةِ[١]، فكلُّ مَن بَذَلَ وُسْعَه واستفرغَ طاقتَه في أَمْرِ مصلحة عامَّة أو خاصَّة، دينيَّة، أو دنيويَّة لا إثم فيها ولا قطيعة ولا إضرار بالآخرين؛ فله حظٌّ مِن هذا المفهوم.

إن الاختراعات الحديثة كالسيارة أو الهاتف أو الطائرة أو التلفاز.. قد أحدثت في حياة الناس ومجتمعاتهم، وطرائق عيشهم في البناء والتواصل والفَهم، والبرامج المختلفة..، أكثرَ بكثير مما أحدثته المعارك الكبرى في التاريخ، وأصحابها أصبحوا مشاهير كشهرة القادة العسكريين العظام أو أكثر.

وهذا يؤكِّد على الأهميَّة الكُبرى لتعميق هذا الفَهم في نفوس الناشئة؛ ليدركوا أن نجاحَهم في التعليم أو الابتكار أو التفكير الجادِّ، هو مصلحة دنيويَّة، وإلى ذلك فهو جهاد أخرويٌّ يُرْجَى لهم عليه جزيلُ الأجرِ ووافرُ الثواب، و«**مَن سَنَّ في الإسلام سُنَّة حسنة، فله أجرُها وأجرُ مَن عَمِل بها بعده**»[٢].

فكم مِن الأجور تنالها حين تكون مخترِعًا تقدِّم لملايين البشر تسهيلًا في سفرهم أو إقامتهم أو صِحَّتهم أو علاقاتهم؟ أليس تَغَيُّبُ هذا المفهوم الربانيِّ سببًا رئيسًا ومسؤولًا أَوَّلِيًّا عن التخلُّف الحضاريِّ الذي يعيشه المسلمون،

(١) انظر: لسان العرب مادة: جَهَدَ.

(٢) كما في صحيح مسلم (١٠١٧) من حديث جرير رضي الله عنه.

والذي لا يفكر الكثير مِن أبنائهم في الخلاص منه إلا مِن خلال البندقيَّة التي صنعها غيرهم؟!

إن هذا المفهوم الواسع للجهاد يستحقُّ المزيدَ مِن العناية لأسباب:

أولًا: أنه مفهومٌ مُسْتَوْعِبٌ لكلِّ أفراد الأمَّة بلا استثناء، وليس مقصورًا على فئة أو شريحة وُكِلَت إليها مَهَمَّات عسكريَّة أو حربيَّة، وبتفعيله يتمُّ توجيهُ الأفرادِ لأدوارهم الحياتيَّة الخاصَّة والعامَّة، وِفْقَ قُدْرَاتهم وإن قَلَّت.

وإن هذا الفهم الإيجابيَّ يحوِّل الناس إلى فاعلين منتجين مُؤَثِّرين، وليس إلى كسالى أو بَطَّالين.

ثانيًا: أنه مفهوم سُنَنِيٌّ صحيح، فالحياة لا يقوم بها إلا مَن حاطها مِن جميع جوانبها، وكذا الدين، والدين هو للحياة، وفكرة أن معركة قتاليَّة سوف تصحِّح أوضاع الناس والحياة، هي فكرة ساذجة ومغلوطة بيقين، وذلك لأنّ لكلِّ شيء سببًا، والنبيُّ الذي عَلَّم قادته كيف يديرون الجيوش، ووظَّف طاقات الـمُبْرِزين منهم، كخالد وعليٍّ ﷺ، هو الذي علَّم العادمين كيف يجمعون الحطب؛ ليكتسِبوا ويستغنوا عن السؤال[1]، وسَنَّ لأصحابه سُنَنَ البيع والشراء، والحرث والتَّعَلُّم والزواج والإجارة..

ثالثًا: أنه مفهومٌ يغطِّي كلَّ جوانب الحياة، فهو يشمل الفرد والأسرة والمجتمع، وفي كلِّ الأحوال والظروف، وليس لجانب دون آخر، ولا لظرف

(١) في قوله ﷺ: «**لأن يأخذ أحدُكم حَبْلَه، فيأتي بحُزمةِ الحطب على ظهره فيبيعها، فَيَكُفَّ اللهُ بها وجهَهُ خيرٌ له من أن يسأل الناسَ أعطَوْهُ أو مَنَعُوْهُ**». أخرجه البخاري (١٤٧١) من حديث الزبير ابن العوام ﷺ.

دون ظرف، وهو بهذا مفهومٌ مُؤَثِّر بصورة حقيقيَّة ودائمة، وليس في أحوال خاصَّة فَحَسْب.

رابعًا: أنه برنامج قائم دائم لا يفتقر إلى شروط، فهو يعمل في حال الضعف والقوَّة، والكثرة والقِلَّة، والصِّحَّة والمرض، ووجود الدولة وعدمها، ووجود المؤسَّسة وعدمها، بل هو يسعى لاستثمار الموجود، وتوظيفه توظيفًا حسنًا، واستكمال الناقص، وإيجاد ما تدعو الحاجة إلى إيجاده، فهو مَطْلَبُ الشريعة مِن المُكَلَّف بقَدْرِ وُسْعِه وطاقتِه وقُدْرَته التي هي شرط الوجوب، وهو أعلم بتقدير ذلك.

خامسًا: أنه مضمونُ العاقبةِ مَأمُونُها، فثمرتُه خيرٌ مَحْضٌ، وهو عمل صالح لا مخاطرةَ فيه، ولا إشكالَ، ولا إضرارَ، ولا سوءَ تقديرٍ، إنه مَغْنَم ظاهر، وغنيمة باردة.

سادسًا: أن الأُمَّة تعاني تاريخيًّا مِن حاجة ماسَّة إلى تجييش الكمِّ الغفير مِن العاملين المُخْلصين في ميادين الحياة والتنمية والمعرفة والعمل، وكُلَّما تقدَّم الزمن اتَّسعت دائرة الحاجة، وقَلَّ القائمون بها، وشغرت فروض الكفايات التي يتأثَّم الناس بالإخلال بها، سواء كانت في مجال الدعوة والبلاغ وإيصال الرسالة، أو في ميادين الحياة العلميَّة والصناعيَّة والاقتصاديَّة والإداريَّة وغيرها، وهذا خلل ظاهر، لا مخرج منه إلا تحفيز طاقات الناس إلى الانخراط في ميادين العمل والإنتاج والإنجاز.

سابعًا: أن الجهاد بمفهومه القتاليِّ الخاصِّ يفتقر من أجل تحقيق أهدافه إلى هذا المفهوم الشامل، وكم مِن قِتالٍ بَذَل فيه المسلمون الغاليَ والنفيسَ،

واسترخصوا الأرواح والـمُهَجَ في سبيله، وطاروا إليه سِراعًا، وصبروا وصابروا، ورابطوا، وانتظروا العاقبة، فلم يَحْظَوا بطائل يُذْكَر، نعم ربما أحدثوا النِّكايةَ في عدوِّهم؛ لكنْ حَدَثَ فيهم هم مِن الإثخان والقتل والفزع القَدْرُ الكبيرُ، وإنْ كانوا يحتسبونه، لكنَّه مكروه، وانتهى الأمر إلى غير نتيجة ملموسة في الحياة والمجتمع، أو إلى أثر سلبيٍّ وأُحْدُوثة مُخْزِيَةٍ مُحْزِنَةٍ لدى القريب والبعيد؛ بسبب غياب الوعي الرشيد والفَهم الشامل للحياة والشريعة، وما أدَّى إليه التَّعَصُّبُ والهوى والأنانيةُ مِن الاختلاف والتطاحن والتنازع، الذي هو آيةُ الفشلِ وذهابُ الريحِ، ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ﴾.

وكان مِن الْخَطْب في ذلك: غيابُ الكفاءاتِ الميدانيَّةِ القادرة على بناء الحياة، وقد ينجح قومٌ في معركة حربيَّة، ثم يخفُقون في بناء مدرسةٍ، أو تشييدِ مصنع، أو تَعْبيدِ طريقٍ، أو توفيرِ لحظةِ أَمْنٍ، أو لقمةِ عيشٍ؛ فضلًا عن صناعة الحياة بمجالاتها الخِصبة، ببناء العقولِ والنفوسِ والأرواحِ.

ولذا فالأمرُ مُفْتَقِرٌ غايةَ الافتقار إلى استنارة عاملة بصيرة، تعرف معنى الحياة، وتتحمَّل تكاليفَها، وتَفْقَهُ معنى الشريعة، وتلُمُّ بمقاصدها؛ لئلا تكون أعمالنا حرثًا في بحر، أو خطًّا في رمل متحرك!

القتال وميدانه:

الحرب جزء مِن شريعة الإسلام، والغريب أن الاستعمال القرآنيَّ قَلَّما يستخدم كلمة (حرب) التي تدل على الفعل، وإنما يستخدم لفظ (القتال) الذي يدل على التفاعل بين طرفين، وكأن ذلك إشارة إلى أن الصراع العسكريَّ هو نتيجة عدوان مِن طرف على آخر، أو نتيجة عدم الاتفاق على السلام.

وقد ذُكِرَ لفظُ (القتال) في القرآن الكريم ثمان مرات، والقتال غير القتل، فهو بمعنى الصراع أو التدافع، وهو بشروطه الشرعيَّة أحد معاني الجهاد.

وحين قال النبيُّ ﷺ: «**رأسُ الأمر الإسلامُ، وعمودُه الصلاةُ، وذِرْوَةُ سَنامِه الجهادُ**»[1]، فإن الأمر يحتمل معنى الجهاد العام، ويحتمل معنى القتال، على ما ذكره أهل الفقه.

والإسلام لا يتنكَّر للواقع، ولا يتجاهل الدوافع العُدوانيَّة لدى المجموعات المختلفة، وهو في الوقت الذي يحجز المسلمين عن العدوان، فإنه يمنحهم الحقَّ في مقاومة ذلك العدوان، وأحكمُ آيةٍ في هذا السياق هي قوله تعالى: ﴿**وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ**﴾.

فالإذن بالقتال كائن في مواجهة الذين يقاتلوننا، يعني بدؤونا بالقتال فعلًا، أو هم يتهيَّؤون لذلك، فهم مقاتلون بالفعل أو بالقوة، وهم معنا في حالة حرب أو محاربة.

وسمَّى الله ما زاد على ذلك (عدوانًا)، وعَقَّب بقوله: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ**﴾، وهذا نَهْيٌ وتحريمٌ لما زاد على ذلك، ووَصْفٌ له بالعدوان، وبيانٌ لعقوبته، وأن الله لا يحبُّه ولا يحبُّ فاعليه.

والصواب أن مثل هذا الحكم لا يعتريه النسخ، فإن نفي محبَّة الله ثابت، والوصف بالعدوان قائم، فهي شريعة مُحْكَمة لا تُنْسَخ.

إن الحرب جزء لا يتجزَّأ مِن تاريخ البشرية، ولكلِّ الشعوب، ولا تزال الشعوب المُستضعَفة والعاجزة عن الدفاع عن نفسها في العالم الإسلامي وفي غيره تعاني

(١) أخرجه أحمد (٢٢٠١٦، ٢٢١٣٣)، والترمذي (٢٦١٦)، وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (٣٩٧٣)، والنسائي في الكبرى (١١٣٩٤)، وابن حبان (٢١٤) من حديث معاذ رضي الله عنه.

وَيْلاتِ الحروب المفروضة عليها مِن قوى الطُّغيان والاستكبار العالميَّة.

والإسلام يعترف بسنَّة المدافعة في الحياة، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾، ولكنه لا يدعو إلى استخدام العنف في التغيير والإصلاح إلا عند تعذُّر الوسائل السلميَّة، ورجحان مصلحة القتال، كما قال سبحانه في شأن الاختلاف بين المسلمين: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ...﴾.

وحتى مع الكفَّار، فالكفرُ ليس سببًا للقتل أو القتال، ولا مُوْجِبًا له عند الفقهاء، وفي مُحْكَم التنزيل: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ...﴾، فأَمَرَنا بإجارة المشركِ ودعوتِه، ثم إيصاله إلى المكان الذي يَأْمَن فيه، وعلَّل بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾.

والكافر قد يكون ذِمِّيًّا أو مُعَاهَدًا أو مُسْتَأْمَنًا أو غيرَ ذلك، وهو مَحَلٌّ للدعوة والمجادلة بالحسنى، وقد يكون جاهلًا يحتاج إلى تعليم، أو ملهوفًا يحتاج إلى غَوْثٍ، «في كلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أجرٌ»[1]، فمسوِّغ القتال ليس هو الكفر، ولكنه العدوانُ، فإذا صدر العدوان والبغي مِن طائفة مؤمنة قُوتِلت كما في سورة الحجرات، وإذا صدر العدوان مِن كافر قُوتِل، كما في آية البقرة السابقة، ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

إن الإسلام ليس دينًا روحانيًّا فحسب، بل هو دين جاء بالوحي وجاء بالقوَّة، وقد جمع بينهما سبحانه فقال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، وهذه هي الحجج والمعارف والعلوم، والدعوة والمجادلة بالحسنى، ﴿وَأَنزَلْنَا

(١) كما في صحيح البخاري (٣٣٦٣)، وصحيح مسلم (٢٢٤٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾، وهذا هو العدل الربانيُّ مع البَرِّ والفاجر، والمؤمن والكافر، والعدوِّ والصديق، ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾، وهذه هي القوة في ردع المعتدين، وحماية جناب الدين.

وما يزعمه بعض المستشرقين مِن أن الإسلام انتشر بالسيف فهو ادِّعاء موهوم، لا تسنِده حقائقُ التاريخ، وها هو الحكم الإسلاميُّ قد انحسر، وظلَّت البلاد التي دانت له وَفِيَّة قائمة بدينها على الرغم مِن حملات الإبادة والمسخ والتنصير، كما تشهد بذلك شبه جزيرة البلقان، وألبانيا، وجمهوريات آسيا الوسطى، وأفريقيا، وسواها.

وما يظنُّه بعض المسلمين مِن ذلك فهو خطأ، يُضَاهِئون فيه قولَ المستشرقين، كما قال أحدهم:

دعا المصطفى دَهْرًا بِمكَّةَ لم يُجَب ... وقد لان منه جانبٌ وخطابُ

فلمَّا دعا والسيفُ صَلْتٌ بِكَفِّه ... له أسلموا واستسلموا وأنابوا

وهذا خطأ، فأصل الاستجابة كان بمكة، والسابقون الأَوَّلون كانوا هناك، وما كان ثم قتال، والمدينة دخلت في الإسلام وصارت قاعدته من غير قتال.

وأما الذين يريدون إلغاء مبدأ القتال والمقاومة في الإسلام، فهم يريدون أن تكون الأمَّة بلا أسوار ولا حصون ولا حماية، وهيهات ذلك!

لقد ضعف المسلمون سياسيًّا واقتصاديًّا وعسكريًّا، ولكن روحَ التضحية والاستشهاد ظَلَّت حيَّة فاعلة في مواجهة كيد المعتدين مِن الغُزَاة والـمُحْتَلِّين والطامعين، وما عصورُ الاستعمار وحروبُ التحرير عنَّا ببعيد.

جهاد الطلب وجهاد الدفع:

كثيرًا ما يُثار السؤال عن الجهاد، هل هو هجوم ومُبَادَأة، أو دفاع فحسب؟

وفي ظنِّي أن هذا سؤال مُفَخَّخ، لا يجب افتراضه، ولم يَرِدْ بهذه الصيغة في كتاب ولا سنة، وهو يفترض أمام المجيب طريقين لا ثالث لهما.

ونحن نجد مِن السابقين مَن قال: إن الجهاد هو لمدافعة العدوِّ كما نصَّ عليه سفيان الثوري، وفي سِيَر الشيباني وغيره إشارة لهذا[1].

والمدافعة مَحَلُّ اتفاق، فالمسلمون وغير المسلمين، وشرائع السماء ودساتير الأرض، كلها تمنح الإنسان الحقَّ في مدافعة الباغي والـمُحْتَلِّ، ولولا ذلك لفسدت الأرض.

ومقصد القتال في الإسلام هو حماية المشروع الإسلامي، وحماية الأرض والْمِلَّة والإنسان، وهذا يتضمَّن المدافعةَ قطعًا، وربما كان مِن المدافعة الـمُبَادَأةُ والطلبُ أحيانًا.

والأُمَّة المعتدية البادئة بالحرب تستحقُّ الردَّ والمدافعة والمقاومة؛ لئلا تلِجَّ في عدوانها، والأمة التي تتهيَّأ للحرب والعدوان والقتال، ولا تربطها بالمسلمين عهود أو عقود أو مواثيق أو اتفاقيات، لا ثُنَائيَّة ولا دوليَّة فليس مطلوبًا أن يترك الإسلام زِمَام المبادرة والـمُبَادَأة بيدها أبدًا، بل قد تفرض ضرورةُ الحماية مهاجمتَها ابتداءً باعتبار هذا مِن ضرورات الدفاع.

وحين شرع الله القتال بَيَّن أسبابَه، فقال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾، فجاء الإذْنُ هنا تعقيبًا على كونهم قُوتلوا وظُلِموا، وآنَ الأوانُ لأن ينتصفوا وينتصروا مِمَّن ظَلَمَهم وقاتلهم.

(١) انظر: السير، لمحمد بن الحسن الشيباني (١/ ٣٢).

ثم قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾، إمعانًا في تفصيل العدوان عليهم وعلى أرضهم وديارهم، وحقِّهم في العبادة والإيمان.

وهذا ليس استثناءً ولا حالة تاريخيَّة، بل هو شأن يتكرَّر؛ ولذا عقَّب تعالى بقوله: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾.

وانظر كيف ذكر هنا الصوامع، وهي للنصارى، والبِيَعَ، وهي لليهود، والصلوات والمساجد التي يُذْكَر فيها اسمُ الله كثيرًا!

وفي سياق آيات القتال نجد قوله تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

وهذا لا يتنافى مع مبدأ أن المقصِد هو حماية الإسلام، بل هو يعزِّزه، فليس المقصودُ إكراهَ أحدٍ على الإسلام ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾، ولكنَّ المقصودَ مقاتلةُ الذين يقاتلوننا؛ لدَفْع فتنتِهم وضررِهم على مجتمعات المسلمين.

الفتوحات الإسلامية:

إنَّ مصطلحَ الفتحِ الإسلاميِّ أصبح مُتَّصلًا بمبدأ القتال والتَّوَسُّع في الهيمنة الماديَّة.

بَيْدَ أننا لو رجعنا إلى اللفظ القرآنيِّ لوجدنا الفتحَ يعني: نشرَ الدعوة والخير. وقد كان الرسلُ يدعون ربَّهم: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَـٰتِحِينَ﴾، فالفتحُ فتحُ القلوبِ للهداية، وفتحُ العقول للمعرفة، وفتحُ المجتمعات للوعي والحوار والتغيير الإيجابيِّ الرشيد، وهذا يمكن أن يتمَّ

بطرائقَ كثيرةٍ، فالإعلامُ فَتْحٌ، والتعليم فَتْحٌ، وزوالِ الـمُؤثِّرات السلبيَّة فَتْحٌ، والدعوةُ الصادقةُ فَتْحٌ، ولكنَّ هذا المصطلحَ ظلَّ يتقلَّص حتى تمَّ قصرُه على بعض أفراده، وصار رديفًا للانتصار في المعركة العسكريَّة، واعتراه ما اعترى مفهومَ الجهاد مِن التضييق، ومفهومَ الفقه، ومفهومَ العبادة.

وحين وعد اللهُ رسولَه ﷺ أن يأتي بالفتح أو أَمْرٍ مِن عنده، كان الفتح مفهومًا واسعًا لانطلاقة الدعوة وزوال مُعَوِّقاتِها، وحين أخبر الله تعالى بأنه جاء نصر الله والفتح، كان الفتحُ غيرَ النصرِ، وكان مِن علاماته دخولُ الناس في دين الله أفواجًا، كما في آخر سور القرآن نزولًا.

إن غزوات الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم كانت تحت مظلة شرعية واضحة، والنبي ﷺ حين بعث سرية أو جيشًا ـ كما في حديث بُريدة رضي الله عنه ـ أوصاهم بتقوى الله، وقال في آخر الحديث: «**إِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّـهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، فَلاَ تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّـهِ وَلاَ ذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَلَكِنِ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ، فَإِنَّكُمْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَمَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِن أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللَّـهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ. وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّـهِ، فَلاَ تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّـهِ، وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ، فَإِنَّكَ لاَ تَدْرِى أَتُصِيبُ حُكْمَ اللَّـهِ فِيهِمْ أَمْ لاَ**»[(١)].

وفي قصَّة خالد بن الوليد رضي الله عنه لما تأوَّل وقَتَلَ بعضَ الأسرى، رَفَعَ النبيُّ ﷺ يديه إلى السماء وقال: «**اللَّـهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ ممَّا صنَع خَالدٌ**» مرتين[(٢)]..

(١) أخرجه مسلم (١٧٣١).

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٣٩) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

فهنا لم يأخذ النبيُّ ﷺ بيد قائد الجيش، ويهمِس في أُذُنِه هَمْسًا أن ما عملتَه خطأٌ، بل أعلنها على الملأ، وتَنَاقَلَها الرواة.

لقد قاتل المسلمون قتالًا شرعيًّا أُمَمًا وقبائل ودولًا ليس بينهم وبينها عقد ولا ميثاق، وكانت تتهيَّأ لقتالهم وإبادتهم، وكانوا مثالًا في الرحمة والصبر وحَقْنِ الدماء، حتى كان عددُ الذين قُتِلوا في حياة النبيِّ ﷺ مِن الكفار لا يتجاوز بِضْعَ مئاتٍ، وقد قُتِل مِن المسلمين أكثر منهم، ولم يقتل النبيُّ ﷺ بيده أحدًا، وتركَ غَوْرَثَ بنَ الحارثِ الذي اخترطَ سيفَه وهمَّ بقتلِه[(١)]، وترك ثُمَامَة بن أُثَال وأطلقه[(٢)]، وهو في حال حرب، وعفا عن أهل مكةَ وأطلقهم[(٣)]، وفَكَّ بني المُصْطَلِقِ[(٤)]، وكان مثالًا عمليًّا للرحمة والوفاء وحفظ العهود.

أما الغزوات التي تمَّت بعد ذلك في عهد الدولة الأُمويَّة، ثم العباسيَّة، والمماليك والعثمانيِّين؛ فلا شكَّ أنه جاء مِن ورائها خيرٌ كثير في دخول كثير مِن الأمم والأجناس والشعوب والأعراق في الإسلام، وانتشار الحضارة الإسلاميَّة والعدل والرحمة والحريَّة، ولا يمنع هذا أن يكون تخلَّلها أخطاء وتجاوزات، وقد كتب الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله كلامًا علَّق فيه على هذا الموضوع، وغلَّب في هذا جانبَ التوسُّع الإمبراطوريِّ في آخر الدولة

(١) أخرجه أحمد (١٤٩٢٩)، والبخاري (٢٩١٠)، ومسلم (٨٤٣) من حديث جابر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٢)، ومسلم (١٧٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٤١١)، وصحيح مسلم (١٧٨١)، وسنن النسائي الكبرى (١١٢٩٨)، وشرح معاني الآثار (٣/ ٣٢٥)، والأموال لابن زنجويه (١/ ٢١٤)، وتاريخ الطبري (٢/ ١٦١)، وأخبار مكة للأزرقي (٢/ ١٢٢-١٢٣)، وسنن البيهقي (٩/ ١١٨)، والبداية والنهاية (٦/ ٥٦٧-٥٦٨).

(٤) أخرجه أحمد (٢٦٣٦٥)، وأبو داود (٣٩٣١)، وابن حبان (٤٠٥٤)، والحاكم (٤/ ٢٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

الإسلاميَّة على الفتح الإسلاميِّ، ولذلك فأعمال المسلمين في التاريخ قابلة للنقد والمراجعة والردِّ.

طبيعة العلاقة مع غير المسلمين:

يتحدَّث بعض الناس عن العلاقة بين المسلمين وبين غيرهم، فيلخِّصونها في ثلاثة أحوال: إمَّا دخولهم في الإسلام، أو قَبُولهم لدَفْعِ الجزية، أو القتال!

وهذا مِن الأخطاء العلمية التي يجب تصحيحُها، فهذه الأشياء هي علاقة الجيش الإسلاميِّ الـمُقاتِل بجيش العدوِّ، فهي إذًا علاقة جيش بجيش في ساحة القتال، بمعنى أن مِن شِدَّة الاحتياط أن الإسلام لا يأذن بالقتال حتى في حال الحرب إلا بعد الدعوة إلى الإسلام، فإذا رفضوا الدعوة، عُرِضَت عليهم الجزيةُ مقابلَ حمايتِهم، فإذا رفضوا قاتلْناهم؛ لكنَّ علاقةَ المسلمين بالأمم الأخرى أوسعُ مِن هذا، فهناك علاقةُ دعوةٍ، وعلاقةُ صلحٍ مُتَّفَقٍ عليه عند الفقهاء، وعلاقة مهادنة، وعلاقة سكوت ومتاركة، ولو نظرْنا إلى رُقْعَةِ الحياة البشريَّة من لدن عهد النبيِّ ﷺ إلى يومنا هذا، لوجدْنا فيها رُقْعَةً كبيرة جدًّا هي دول وأمم مسكوت عنها، وليست داخلة في دائرة مِن الدوائر.

فقضيَّة التخيير بين الإسلام أو الجزية أو القتال، تُمَثِّل عَلاقةَ الجيش بالجيش، أما عَلاقة الفرد بالفرد، والدولة بالدولة، والأمة بالأمة؛ فهي أوسع مِن ذلك، وقد تكون عَلاقةَ مصالحَ مُشْتَرَكةٍ، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾.

وفَرِحَ المسلمون بانتصار الروم على الفرس؛ لأن الروم أهل كتاب، والفرس وثنيُّون، وأولئك أقرب إلى المسلمين، وقصَّة أبي بكر مع زعماء قريش في هذا معروفة[١].

وهنا سؤال كثيرًا ما يُطْرَح: هل الأصل في علاقة المسلمين بغيرهم القتال أو السلم؟

وهذا السؤال هو الآخر ليس له أصل، ولم يرد في قرآن ولا سنة، ولا يُعرَف فيه بيانٌ لعلماء السلف، ولا يلزم أن نضع تأصيلًا هنا؛ لأنه لا معنى له، إلا أن نقول: إنَّ الأصلَ في علاقة المسلم بغيره هي علاقة (المعروف): ﴿**وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ**﴾، ومن التعارفِ التعاملُ بالمعاني الأخلاقيَّة الفِطْرِيَّة التي جُبِلَ عليها الناس، وهذا يفعله المسلم لذاته، ولا يمنع أن يكون سببًا وتمهيدًا لنشر الهداية والدعوة، ولذلك حتى في حال القتال هناك الدعوة قبل القتال، والقتال هو ذراعٌ للدعوة وحسب، فلو نَظَرْنا إلى مدينة رسول الله ﷺ،

(١) كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما، في قوله تعالى: ﴿**الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ**﴾. قال: غُلِبَتْ وغَلَبَتْ. قال: كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم؛ لأنهم أهل أوثان، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس؛ لأنهم أهل كتاب، فذكروه لأبي بكر، فذكره أبو بكر لرسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «**أما إنهم سيغلبون**». قال: فذكره أبو بكر لهم، فقالوا: اجعل بيننا وبينك أجلًا، فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا، فجعل أجلًا خمس سنين فلم يظهروا فذكر ذلك أبو بكر للنبي ﷺ فقال: «**ألا جعلتها إلى دون**». قال: أراه قال: «**العشر**». قال: قال سعيد بن جبير: البضع ما دون العشر، ثم ظهرت الروم بعد قال فذلك قوله ﴿**الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ**﴾ إلى قوله ﴿**وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ**﴾. قال: يفرحون بنصر الله.
أخرجه أحمد (٢٤٩٥)، والترمذي (٣١٩٣) وقال: حسن غريب، والنسائي في الكبرى (١١٣٨٩)، والحاكم (٢/ ٤١٠).

لوَجَدْنا أنها أصبحت عاصمةَ الإسلام بالدعوة والإقناع، لا بالقتال، وإنما احتِيْجَ إلى القتال لحمايتها، بعدما أصبح أكثرُ أهلها مسلمين، وصاروا يتعرَّضون لتآمرِ أَقلِّيّةٍ كافرة مع جهات خارجيَّة للأذى، فيكون القتال لحمايتِها وتأمينها.

إن النبيَّ ﷺ دعا بمكة بغير قتال، ودخل المدينة بغير قتال، وفتح مكة في نهاية المرحلة النبوية بغير قتال، وسمَّى اللهُ صلحَ الْحُدَيْبِيَةِ فتحًا مُبِيْنًا مع أنه لم يكن فيه قتال، وهنا أؤكِّد على أهمية الدعوة، وأن المسلمين جميعًا بحاجة إلى الدعوة، وكثيرًا ما يطرح بعض الإخوة هذا السؤال: هل الجهاد فرض عين أو فرض كفاية؟

فكنت أقول لهم: دعونا الآن مُؤَقَّتًا ننظر إلى قضية الدعوة إلى الله: هل هي فرض عين أو فرض كفاية؟ مِن عهد النبوة، إلى عهد بني أمية، إلى عهد بني العباس، إلى اليوم، هل يقول قائل: إن كلَّ الناس بلغتهم دعوة الله؟ هل يقول قائل: إن كلَّ المسلمين عرفوا دينَهم؟ الجواب قطعًا: لا.. ففي كلِّ بلد إسلامي يوجد مناطق شاسعة تعيش ألوانًا مِن الجهالات، فضلًا عَمَّن يَعْرِفون ويُخْطِئون، فالدعوة فرض عين على المسلمين، بسبب عدم وجود مَن يقوم بكلِّ الدعوة، فإذا افترضْنا أن الدعوة فرضُ عينٍ، والجهاد فرض عين، والطبُّ فرض عين، والاقتصاد فرض عين، وهكذا.. فمعناه أن كلَّ مسلم أصبح عنده مجموعة مِن فروض الأعيان لا يمكن أن يقوم بها، ولذلك يرجع الأمر إلى التخصُّص والانضباط.

الانحياز للحياة:

إن الإسلام يكرِّم الحياة الإنسانية ويحترمها، حتى جاء في القرآن وصف الشهداء بقوله: ﴿**بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**﴾، وقد جرى نقاش بيني وبين أحد الإخوة فقلت له: هل الشهادة هدف وغاية أو وسيلة؟!

إن الشهادة في سبيل الله وسيلة وليست غاية، أي ليست مقصودة لذاتها، وإلَّا فإنَّ الله سبحانه وتعالى يكرَه موتَ المؤمن، كما في الحديث: «**يَكْرَهُ المَوتَ، وأَنَا أَكرَهُ مَساءَتَهُ**»[1]، ويحبُّ الله تعالى بقاء المؤمنين على ظهر الأرض وحياتهم وطول أعمارهم، وأن يستمتع بهم أهلوهم، وينتفعوا بهم، وأن يعبدوه سبحانه، ولا يشركوا به شيئًا، وأن يدعوا إليه على بصيرة، ولكن الشهادة ضرورة، وقد علم الله أن الحرب جزء مِن الحياة لا بدَّ منها، كما ذكر الله سبحانه القصاص، وهو قتل، وسمَّاه حياةً: ﴿**وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾.

والعرب في الجاهليَّة كانوا يقولون: القتلُ أَنْفَى للقتلِ! فبدأ المثلُ الجاهليُّ بقَتْلٍ وانتهى بقَتْلٍ، ولكن في القرآن الكريم ذكر الله عزَّ وجلَّ القِصاص وسمَّاه حياةً، فالإسلام دين يتشوَّف إلى المحافظة على حياة الناس وتحسينها، ولهذا كانت الدعوة حياة: ﴿**أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ**﴾.

إن الظرف الزمنيَّ قد يُوْجِدُ نوعًا مِن التوتُّر في نفوس الناس، فالمشكلات التي تقع في العالم الإسلاميِّ، والعدوان الذي يجتاحه، ووسائل الإعلام والفضائيَّات التي تصوِّر هذه الجرائم، والعجز الإسلاميُّ السياسيُّ والشعبيُّ،

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وضعف الانضباط والتنظيم، ووهن التواصل والنصرة، كلُّ ذلك أَوْجَدَ مِزَاجًا مُتَكَدِّرًا مُتَوَتِّرًا عند كثير مِن شباب المسلمين دفعهم إلى العنف والميل إلى منهجه.

إن الإسلام ينحاز للحياة، والموتُ في سبيل الله مَطْلَبٌ له ظرفه ومكانه، والحياةُ في سبيل الله مَطْلَبٌ أعظمُ، ومَن لم يُتْقِنْ فَنَّ الحياة في سبيل الله فلن يُتْقِنَ فنَّ الموت في سبيل الله.

إن الإسلامَ دينُ الحياةِ بكلِّ ما تحمله مِن هَنَّات، وبكلِّ ما تزدان به مِن هِبَات.

فقه الأَولويات

فقه الأولويَّات بهذا الترتيب ليس معروفًا في كتب المتقدِّمين، فمهما قلَّبْتَ مِن كتب الفقه، أو الأصول، أو التربية، أو السلوك، فإنك لا تكاد تجد ذِكْرًا لهذا الاسم بتركيبه، ولكنَّك تجدُ كلمة «الفقه» التي هي كلمة أصيلة في القرآن والسنة، شديدة الاشتهار على ألسنة العلماء، كما في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿**وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي**﴾، وقول النبيِّ ﷺ: «**مَن يُرِدِ اللهُ به خيرًا يفقِّهْه في الدِّين**»[(١)].

ويقصد بالفقه ما هو أوسع مِن العلم، وأوسع مِن الحفظ، فإن مجرَّدَ حفظِ النصوص لا يَعني بالضرورة الفقه فيها، و«**رُبَّ حاملِ فقهٍ ليس بفقيهٍ، وربَّ حاملِ فقهٍ إلى مَن هو أفقهُ منه**»[(٢)].

ففي الصحابة رضي الله عنهم مَن تميَّزوا بالحفظ كأبي هريرة، لكن هناك مَن تميَّزوا بالفقه كابن عباس، ومعاذ بن جبل، وربما محفوظات أبي هريرة أكثر بكثير

(١) أخرجه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧) من حديث معاوية رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٢١٥٩٠) واللفظ له، وأبو داود (٣٦٦٠)، والترمذي (٢٦٥٦)، وابن ماجه (٢٣٠)، والنسائي في الكبرى (٥٨٤٧)، وابن حبان (٦٧) من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه.

مما يحفظان، لكن ما نُقِل عنهما مِن الآراء والأقوال، والاجتهادات الفقهيَّة أكثر مما نُقِل عنه رضي الله عنهم، وفي كلٍّ خيرٌ.

فالفقه هو القدرة على الاستنباط مِن النصوص.

أما الأولويَّات: فيعبر عنها العلماء بـ «هذا أولى مِن هذا»، و«أنَّ هذا هو الأولى، أو هو الأحسن أو الأفضل»، ويرد هذا كثيرًا في كتبهم ومصنَّفاتهم.

إنَّ كلمة «الأَوْلَى» تعني: الأحقُّ بالولاية، وبالتقديم، وهذه صيغة تفضيل تدلُّ على اشتراك الطرفين في الأفضليَّة، ولكن أحدَهما يتفوَّق على الآخر فيها.

ومِن هنا نستخرجُ درسًا مهمًّا، وهو أنَّ كلمة «فقه الأولويَّات» لا تعني إلغاء بعض الاعتبارات الشرعيَّة أو الدنيويَّة بحجَّة أنَّ غيرَها أولى منها، بل تعني أنَّ هذا الأمرَ المهمَّ وما دونه يشتركان في أصل الأهميَّة، لكن أحدهما - وهو الأولى - أكثر أهمية من الآخر.

فالأعمال الصالحة كالصلاة فيها أركانٌ، وواجباتٌ، وسُنَنٌ، ومستحبَّاتٌ، وكلُّ هذه مأمورٌ بفِعْلِها، إمَّا على سبيل الحتم والإيجاب، أو على سبيل الاستحباب، أو أنْ تكون مِن فِعْله صلى الله عليه وآله وسلم المأثور عنه.

وهكذا ما يُسمَّى بشُعَبِ الإيمان، فإنَّ هذه الشُّعَبَ أعلاها «**قول لا إلهَ إلا اللهُ. وأدناها: إماطةُ الأذى عن الطريق، والحياءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإيمان**»[1]. كما قال النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم، فأعلى شُعَبِ الإيمان التوحيد، فإنَّه هو أعظمُ الأبواب وأعلاها وأولاها بالرعاية والاهتمام.

وأدنى شعب الإيمان: إماطة الأذى عن الطريق وما كان مِن جنسه، وكونه

(١) كما في صحيح البخاري (٩)، وصحيح مسلم (٣٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

«أدنى»، لا يعني أنَّه ليس مطلوبًا، فإنَّه يظلُّ مِن خصال الإيمان التي ينبغي على الإنسان أنْ يرعاها ويعمل بها.

وهكذا أمور الحياة الدنيا، فإنَّ عند الإنسان أمور ضروريَّة لا بدَّ مِن فِعْلِها، وأمورٌ لها حاجة، ولكن يمكن الاستغناء عنها في حالات خاصَّة، وهناك أمورٌ قد تكون مِن باب التكميل والتحسين، وليس لها ضرورة ملزِمة.

إنَّ المقصود بفقه الأولويات: هو العلم بتفاضل الأعمال، ومعرفة أحقِّها بالتقديم.

أو: هو إدراك مراتب الأمر الشرعيِّ، وما يستحقُّ مِن المطالب الشرعيَّة أن يُقَدَّمَ ابتداءً، أو أنْ يُقَدَّم عند التزاحم، أو في حال معيَّنة:

١- **فمِن الأشياء ما يستحقُّ أن يُقَدَّم مطلقًا**: فالتوحيد والإيمان بالله تبارك وتعالى مِن الأمور المطلوبة ابتداءً وفي كلِّ حال، فهي أَوْلى الأشياء مطلقًا بالعناية والرعاية.

وأوَّلُ ما يُدْعى إليه هو الإيمان، كما في «الصحيحين» أن النبيَّ ﷺ قال لمعاذ رضي الله عنه حين بعثه إلى اليمن: «**إنك تأتي قومًا أهل كتابٍ فليكنْ أوَّلَ ما تدعوهم إليه: شهادةُ أن لا إلهَ إلا اللهُ، وأنَّ محمدًا رسولُ الله**»[1]. وهنا أشار بكلمةِ «أَوَّل»، وهذا دليل على أولويَّة هذا الركن العظيم، وهو الإيمان؛ لأنَّ الإيمانَ شرطٌ للأعمال كلِّها، فلا يكون العملُ صالحًا إلا إذا سبقه الإيمانُ بالله عز وجل.

٢- **وأحيانًا يكون الفعل أَوْلى بالتقديم عند التزاحم**: فإذا ضاق الوقت أو الفرصة أو الجهد، فلم يَعُدْ بمقدور الإنسان أن يجمع بين الأمرين؛ فهنا يُقَدَّم أَوْلَاهما وأحقُّهما، كتقديم الفريضة إذا ضاق وقتُها على النافلة التي تُفْعَل قبلَها.

(١) صحيح البخاري (١٤٥٨)، وصحيح مسلم (١٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

٣- وقد يُقَدِّم الإنسان شيئًا ليس على سبيل التزاحم، ولكن لاعتبارات خاصَّة: كاعتبارِ جنس العمل، فجنس الصلاة أفضلُ مِن جنس القراءة أو الذكر؛ لأن الصلاةَ تنطوي على الذكر وزيادة، فذِكْرُ الله تعالى في أثناء الصلاة أفضل مِن الذكر خارج الصلاة، فتكون الصلاة بهذا الاعتبار أفضل وأَوْلى.

٤- وقد يكون تقديم العمل باعتبار الوقت: فبعضُ الأعمال مؤقتة بزمانٌ خاصٌّ تكون مطلوبةً فيه، أو على النقيض: يكون لها زمانٌ خاصٌّ ينبغي ألا تُوقَع فيه.

ولعلَّ مِن أوضح الأمثلة: وقت النهي عن الصلاة: «**لا صلاةَ بعدَ الصبحِ حتى تطلُعَ الشمسُ، ولا بعدَ العصرِ حتى تغرُبَ**»[(١)]. فهذا الوقت يكون ذكرُ الله تعالى أو الاشتغال بأمرٍ مِن الأمور الأخرى، أولى وأفضلَ مِن الصلاة فيه، بل تكون الصلاة فيه إمَّا مُحَرَّمة أو مكروهة على حسب الحال.

٥- وقد يكون تقديمُ العمل باعتبار حال الفاعل: فيكون مُتَلَبِّسًا بحال يُطْلَبُ منه عملٌ، ولا يُطْلَبُ منه عملٌ آخرُ.

يقول ﷺ: «**نُهِيتُ أن أقرأَ القرآنَ راكعًا أو ساجدًا**»[(٢)]، فقراءة القرآن في السجود أو الركوع منهيٌّ عنها[(٣)].

أي: فذِكْرُ الله بالتسبيح، والتهليل، والدعاء أفضل مِن قراءة القرآن بالنسبة لحال الراكع والساجد، مع أنَّ قراءةَ القرآنِ في غير هذا الحال هي خيرٌ وأفضلُ.

---

(١) كما في صحيح البخاري (١٩٩٦) واللفظ له، وصحيح مسلم (٨٢٧) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٤٧٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) وهو نهيَ تحريمٍ إذا أداها على سبيل التلاوة، بخلاف ما إذا قرأها على سبيل الدعاء.

٦- **وقد يكون التقديم باعتبار المكان**: كما إذا كان الإنسان قريبًا مِن البيت الحرام، فإنَّ الطوافَ للقادم إلى مكةَ يكون أفضلَ مِن الصلاة.

٧- **وقد يكون التقديم باعتبار الاستطاعة والقدرة**: كمَن يقدر على شيء مِن الأعمال الصالحة التي يحتاج الناس إليها، ولا يقدِر عليه غيرُه، فيكون هذا العملُ أَوْلى، وأوجبَ وألزمَ له؛ لقِلَّة مَن يستطيعون القيامَ به، مثل العبادات الماليَّة للأغنياء، وقصة: «**ذهبَ أصحابُ الدثورِ بالأجورِ**» معروفةٌ، فإنَّهم استطاعوا أن يحصلوا على الأمرين معًا، فنافسوا أهلَ العبادات والطاعات والقربات والأذكار، وزادوا عليهم أنَّهم يتصدقون بفضول أموالِهم[(١)]، فقال النبيُّ ﷺ: «**ذلك فضلُ اللهِ يؤتيه مَن يشاء**»[(٢)].

إن فقه الأولويَّات فرع عن مجموعة مِن العلوم:

أولًا: فرع عن الفقه في الشريعة، فإنَّ الفقه في الشريعة أساس لِمَنْ يريد أن يعرف الأولويَّات؛ لأن الحديث عن أولويَّات لها امتدادٌ واعتبار شرعيٌّ، فلا بدَّ لمن يتحدَّث في فقه الأولويَّات أن يكونَ عنده إلمامٌ شرعيٌّ، ولا يلزَم أن يكون مُلِمًّا بالشريعة كلِّها، لكن أن يكون لديه إلمامٌ بالباب أو المسألة التي يريد أن يتحدَّث فيها.

ثانيًا: أن يكون لديه إلمامٌ بالحال أو بالظروف، وهذا ما يُعَبِّر عنه البعضُ بـ (فقه الواقع).

وفقهُ الواقعِ ليس مُصْطَلحًا جديدًا، أو معنًى مُبْتَكرًا، وإنما هو أمرٌ معروف عند جميع مَن أَلَّفوا، وصنَّفوا في موضوع الفتوى، كما تكلم فيه الإمامُ أحمدُ

(١) أي: يتصدقون بالزائد عن حاجتهم.

(٢) أخرجه البخاري (٨٤٣)، ومسلم (٥٩٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

رحمه الله، وأشار إليه ابنُ القيم في إعلام المُوقِّعين، والقرافيُّ وغيرُهم، ممن أشاروا إلى أن المفتي يجب عليه أن يكونَ فقيهًا عارفًا بالمسألة والحال التي يريد أن يُفْتي فيها.

ثالثًا: هذا العلم هو فرع عن فِقه التجربة والخبرة؛ لأن أكثر ما يُتَكَلَّم عنه في موضوع الأولويَّات هو الأشياء التي تحتاج إلى خبرة ومعرفة، وعلمُ الإدارةِ مِن العلوم الوثيقةِ الصلة بفقه الأولويَّات، غير أنَّ عددًا مِن الذين كتبوا في فقه الأولويَّات -ومنهم الأستاذ محمد الوكيلي من خلال أطروحة ماجستير عنوانها: «فقه الأولويَّات دراسة الضوابط»، وأخرجَها المعهدُ العالميُّ للفكر الإسلاميِّ، وكذلك الدكتور يوسف القرضاويُّ وغيرهما- فكلُّ هذه الكتب حاوَلَت أن تستفيدَ مما كتبه علماء الأصول السابقون، لكنْ لم يزاوج أحدٌ منهم بين ما كتبه علماء الفقه والأصول، وبين ما كتبه علماء الإدارة المعاصرون في موضوع إدارة الأولويَّات، كما في عدد مِن الكتب المترجَمة الشهيرة.

فهذا العلم الرابع هو فقه الأولويَّات الذي تفرَّع عن هذه العلوم الثلاثة، وهو وثيق الصلة بها.

إضافةً إلى أنَّه لا بدَّ لمن يبحث في هذا العلم أنْ يكون لديه قَدْرٌ مِن الاتزان الفطريِّ والتكوين النفسيِّ، أو ما يسمِّيه بعضُ العلماءِ كالْجُوَيْنيِّ بـ «فقه النفس»، ويُقصَد به أن يكونَ عند الإنسان في أصل طبيعتِه قَدْرٌ مِن الفقه الفطريِّ الذي يستطيع به أنْ يميِّز الأشياءَ ويفرِّق بينها، ولذلك يستطيع أن يُدْرِكَ مسائلَ كثيرةً دون جهد، ولا استقصاء في الاستدلال.

وأحيانًا قد يجهد الإنسان في بحث الأدلَّة الشرعيَّة في مسألة لا تحتاج إلى كلِّ ذلك؛ لأنها داخلةٌ في باب العفو العامِّ، أو البراءة الأصلية.

فمَن شاء أن يتكلَّم عن فنون الإلقاء، فإنه لا يحتاج إلى تأصيل شرعيٍّ لفنِّ الإلقاء مِن حيث أصل جوازه، وإذا أراد أن يتكلَّم عن بعض طرائق الإدارة فكذلك.

ودور الشارع هنا هو في إيقاف الإنسان عند حدود الله تعالى، فلا يتعدَّاها إلى ارتكاب حرام..، هذا هو المطلوب! أعني أن فقه الأولويَّاتِ مَعْنِيٌّ باختيار الأنسب مِن إرشادات الشريعة لإصلاح الواقع.

فقه الأولويات في قضايا الأمة:

ما سبق كان في فقه الأولويات بالنسبة للفرد، أما بالنسبة للقضايا العامة للأمة، فنقول:

إن تحديد الأولويَّاتِ العامَّة للأُمَّة، مِن مهمَّة أهل العلم والبصيرة، الذين يستطيعون أن يُدْرِكوا احتياجاتِ المجتمع؛ لأنهم يُطِلُّون عليه، وينظرون إلى مُجْمَل احتياجاتِه.

وهم أيضًا يعرفون الكفاءاتِ والقدراتِ والإمكانات الموجودة في هذا المجتمع، إضافةً إلى أنَّهم يعرفون الفرص الموجودة فيه.

إنَّ فقه الأولويَّات إذا نظرْنا إليه على مستوى الأُمَّة، وتحديد أولويَّاتها بكلِّ دولها وشعوبها، أو نظرنا إليه على مستوى دولة مِن الدول؛ سيكون عِلمًا شديدَ الخطورة؛ لأنَّه يدخُل في باب السياسة الشرعيَّة، التي يكون الإقدام فيها أو الإحجام، والحرب أو السِّلم، والأخذ أو العطاء أو المنع.. قائمًا عليه، فله ما بعدَه.

فربما تكون فرصةٌ نادرةٌ وسانحةٌ، والتأخير والتفريط يضيع هذه الفرصة على الأُمَّة، فيعضُّ الناسُ أصابعَ الندمِ.

وربما تكون هذه الفرصة الموهومة، كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء، حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا؛ فيكون لإقدام الناس فيها التهلُكة، يقول الإمام ابن تيمية: «إنَّ معرفةَ المعروفِ والمنكرِ أَمْرٌ مُتَيَسَّرٌ لكثيرٍ مِن الناسِ، أنْ يعرفوا أنَّ هذا معروفٌ، وأنَّ هذا منكرٌ، وأمَّا معرفةُ أعرفِ المعروفَين وأنكرِ المُنْكَرَين، فهذا هو الأمرُ الذي لا يعرفُه إلا خاصَّةُ العلماءِ بهذا الدين»[1].

فالإمام ابن تيمة يشير إلى أن معرفة «فقه الأولويَّات» في القضايا الكبرى العامة المتعلِّقة بالأُمَّة ومواقفها، وحياتها، وقضاياها السياسيَّة أو الاقتصاديَّة العامَّة إقدامًا أو إحجامًا، لا ينبغي أن تكون لآحاد الناس.

وفي ظلِّ الانفتاح الإعلامي الكبير، تُتَناوَل من خلال الحوارات في الإنترنت، أو من خلال القنوات الفضائيَّة، كثيرٌ مِن القضايا المتعلِّقة بالأُمَّة.

وهذا الكلام لا يقصد به الحَجْر على الناس أن يتحدَّثوا، لكن لا ينبغي أن نعتبر أنَّ هذا الحديث يعني الحقيقة والتطبيق والتنفيذ، ولكنَّه عرض الرأي الذي يقرُب ويبعُد، ويخطئ ويصيب، وما زال الناس في مثل هذا، والأولى أن تتربَّى الأُمَّة على منهج ناضج بعيد عن العنف والتشنُّج، وعن الاحتقان في مثل هذه القضايا.

وفي قصة أسرى بدر، لـمَّا اختلف الناسُ فيهم، وطلَب النبيُّ ﷺ مشورة أصحابه، فقال أبو بكر رضي الله عنه: «يا رسولَ الله، بنو العمِّ والعشيرة، وأرى أن تستأني بهم لعلَّ اللهَ أن يهديَهم إلى الإسلام»!

فلاحظ أبو بكر رضي الله عنه قضيَّةَ القرابة، وأنهم أبناء العمِّ، وأنَّ هذا ربما يكون

(١) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ١٢٧).

مَدْعَاة للرحمة بهم، والشفقة عليهم، ومصابرتهم، وعدم معاجلتهم بالقتل، بل تؤخذ الفدية والجزاء منهم.

ولما سأل النبيُّ ﷺ عمرَ رضي الله عنه قال: «والله يا رسول الله، ما أرى الذي رآه أبو بكر، وإنَّما أرى أنْ تُمَكِّنَني مِن فلان، وتُمَكِّن عليًّا وحمزةَ وفلانًا - وذكر أُناسًا- فيضربوا أعناقَهم»[(١)].

فعمر رضي الله عنه لحَظ موضوع القرابة، ورأى أنه حقيق بمزيد مِن العقاب؛ نكاية بأولئك المشركين، فكلُّ قريب يتولَّى قتل قريبَه؛ حتى يعلمَ اللهُ أنَّه ليس في قلوبنا مودَّة ولا هوادة للذين كفروا!

فالذي رآه أبو بكر رضي الله عنه مَدْعاةً للتخفيف، رآه عمرُ رضي الله عنه مدعاةً للتشديد، فأخذ النبيُّ ﷺ برأي أبي بكر رضي الله عنه، وأطلق الأسرى بفداء، وانتهت القضيَّة عند هذا الحدِّ.

ولم يذكر لنا التاريخ أنه بعد هذه القضية تفرَّق الصحابة إلى استقطابات معيَّنة، ومجالس وأحاديث، يؤيِّد فيها هذا رأيَ أبي بكر رضي الله عنه، وهذا يؤيِّد رأيَ عمرَ رضي الله عنه؛ لأنَّ هذا التعليل لم يكن إلا تبريرًا لاجتهاد.

فانتهى الأمر عند حدِّ أنَّ كلَّ إنسان عبَّر عن رأيه بأرقى ما يمكن مِن الأساليب، وانتهت القضية.

والشيء العجيب أن النبيَّ ﷺ أخذ برأي أبي بكر رضي الله عنه، والمشهور عند الناس أن رأي عمر رضي الله عنه كان أصوبَ، وأن النبيَّ ﷺ كان يقول: «**كاد يصيبُنا في خلافِكَ شَرٌّ**»[(٢)].

(١) انظر: صحيح مسلم (١٧٦٣).

(٢) أخرجه أبو نعيم (١/ ٤٣)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

وأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

والذي يظهر أنه لا تعارض في هذا، فإنَّ الذي اختاره النبيُّ ﷺ هو الأصوب في الموقف نفسه؛ لأنَّ القضيَّة المعروضة كانت قضيَّة أسرى تَمَّ أَسْرُهم وهم يحاربون، ووُضِعَت فيهم الأغلال والقيود، فتحوَّلوا مِن مقاتلين إلى أسرى حرب، وانتقل حكمُهم إلى حكم جديد.

والحكم الجديد هنا هو ألا يُقْتَلوا، كما في قول الله عز وجل: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، يعني في ساحة المعركة، ﴿فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ﴾، في القتل أثناء الحرب، ﴿فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾، هنا انتقلوا مِن مقاتلين إلى أسرى، ويأتي الحكم: ﴿فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ﴾.

ولم يذكر القتل، ولهذا قال بعض الفقهاء: إنَّ الصحابة رضي الله عنهم أجمعوا على أن أسيرَ الحرب لا يُقْتَل، وإنما الذي عاتبهم الله تبارك وتعالى عليه هو أبعدُ مِن ذلك، وهو: لماذا يتمُّ أسرُهم؟ فلماذا لم تقتلوهم في ميدان المعركة، وهذا كان قتلًا مشروعًا مسوَّغًا؟ وهو أوَّلُ يوم أعزَّ اللهُ فيه الإسلامَ، فكانت النِّكايةُ لهؤلاء الكافرين المعاندين أحقَّ وأَوْلى، أَمَا وقد أُسِروا.. فكان الرأيُ ما رآه أبو بكر رضي الله عنه، واختاره النبيُّ عليه الصلاة والسلام.

فهذا العلم إذا تعلَّق بقضايا الأُمَّة، فإنه لا ينبغي أن يستقلَّ به إلا أهل العلم والمعرفة، والخبرة، والبصيرة، والرأي، والتجربة، ولا بأس أن يطرح غيرهم آراءهم ولو كانوا مِن آحاد الناس، فقد يوجد الرأي عند مَن لا يُلْتَفت إليه، وقد يوجَد في الأنهار ما لا يوجَد في البحار، لكن أيضًا يبقى الأمرُ في نصابه.

أَمَّا في العصر الحاضر فقد تعقَّدت المشكلات، وأصبح الْحُكْمُ في كثير

مِن القضايا لا يفتقر فقط إلى فقيه شرعيٍّ يعرِف الأحكامَ، والحلالَ والحرامَ؛ لأن القضيَّة الواحدة لها أبعاد سياسيَّة، واقتصاديَّة، واجتماعيَّة، وإعلاميَّة، إلى غير ذلك، ولذا لا ينبغي أن يضطلع بهذه الأولويَّات إلا مجموعاتٌ مثلُ المجالس والمجامع العلميَّة والفقهيَّة التي لها استقلال، وليست خاضعة لسلطة سياسية، وإنما لها استقلال شرعيٌّ فيما تَدِين اللهَ تبارك وتعالى به مِن الآراء، دون أيِّة ضغوط قد تجعلُها تمِيلُ إلى هذا الرأي أو ذاك.. **هذا أولاً**.

ثانيًا: لا بدَّ أن يكون ثَمَّت اعتبار للتخصُّصات، فلا يكفي نظر الفقيه، بل لا بدَّ من استماع عدد مِن التخصُّصات المتعلِّقة بهذه القضيَّة.

فإذا كانت القضيَّة اقتصاديَّة، فإن الفقيه لا يُدرِك مِن أبعادها ما يُدرِكه الاقتصاديُّ المتخصِّص، أو قد تكون القضيَّة طبيَّة، فيُسْمَع فيها رأيُ طبيبٍ، أو تكون إعلاميَّة، فيُؤْخَذ فيها رأيُ إعلاميٍّ.. إلى غير ذلك.

ثالثًا: لا بدَّ من «التحديث»، أي: تجديد ومراجعة هذه الأولويَّات بشكل مستمرٍّ؛ لأنَّ ما كان بالأمس أولويَّة ربما صار اليوم غيرَ أولوية.

ووتيرة التغيير في العالم أصبحت متسارعة جدًّا.

وهذا التسارع في وتيرة المتغيِّرات يُلْقِي بظلاله على المتغيِّرات والأولويَّات.

أنواع الأولويات:

الأول: ما هو خاصٌّ بالعمل الواحد فبعضه أولى مِن بعض، فالإنفاق على القريب ـ مثلًا ـ أولى مِن الإنفاق على البعيد.

والإنفاق في مجالات الدعوة والبناء والإصلاح، أولى مِن الإنفاق في مجالات أقلَّ أثرًا منها.

فبدلًا مِن أنْ يبالَغ فيُبْنَى مسجد بملايين الريالات، وقد لا يُصلَّى في هذا المسجد إلا عدد قليل، يكون خيرًا مِن ذلك بناء الإنسان، وإرسال الدعاة، وتشييد المؤسَّسات التي يتمُّ مِن خلالها إعداد الكوادر والكفاءات الإسلاميَّة والعلميَّة.

الثاني: متعلِّق بأولويَّات الفرد ذاته، فمِن الناس من يتوجهون، ثم يقع عندهم حَيْرةٌ وارتباك!

فأمامهم طريقٌ واسع، وطموحات متعدِّدة في العلم، والعمل، والدعوة، والإصلاح، وبِرِّ الوالدين، وصلة الرحم، والإنفاق والبذل، وفي ألوان كثيرة مِن ألوان المجاهَدات بالنفس أو بالمال أو بالبدن أو باللسان أو بغير ذلك، فيتحَيَّر الإنسان أمام هذه الأشياء، بأيها يبدأ، وأيها يختار، وقد أرشَد إلى هذا المعنى ما في «صحيح البخاري» مِن حديث أبي جُحَيْفَة رضي الله عنه في قصة سلمان لـمَّا بات عند أبي الدرداء رضي الله عنه، وقال له: «إنَّ لنفسِك عليك حقًّا، ولأهلك عليك حقًّا، ولربِّك عليك حقًّا، فأعطِ كلَّ ذي حقٍّ حقَّه». ولما سأل أبو الدرداء النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم، قال له النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم: «**صدق سلمان**»[1].

فهذا تنبيه إلى أن يُعطِي الإنسانُ كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، وأن لا يطيح في سبيل اعتبار الأولويَّات بجانب مِن هذه الجوانب.

الثالث: ما هو عامٌّ للأُمَّة مما تحتاجه، وتتعامل به في ذات نفسِها أو مع غيرها مِن الأمم، ومثل ذلك ما تحتاجه دولة مِن الدول في مفردها وخصوصها.

وإنَّ هذه الأنواع مِن الأولويات تحتاج إلى معرفةِ مقاصدِ الشريعةِ وعلل الأحكام، فإنَّ مِن المتقرِّر عند أغلبيَّة أهل العلم أنَّ أحكام الشريعة مُعَلَّلة، وأنَّ

(١) صحيح البخاري (١٩٦٨).

المقصودَ فيها مصلحةُ الناس في دينهم ودنياهم، فحتى العبادات أشار الإمام ابن القيِّم رحمه الله[١] إلى أنَّها مُعَلَّلة، وهذا هو ما يقتضيه ظاهر الكتاب في تعليل الصلاة: ﴿تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾، والصيام: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، والزكاة: ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾، والحج: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَافِعَ لَهُمْ﴾.

فهناك ارتباط قويٌّ لهذه الأنواع كلِّها بجانب مراعاة المقاصد الشرعيَّة، التي منها المقاصدُ الضروريَّة الخمسة المعروفة: المحافظة على الدين، والنفس، والعقل، والعرض، والمال، ومنها ما هو دون ذلك.

أهمية فقه الأولويات:

إنَّ موضوع الأولويَّات يعني كلَّ فرد، حتى الطفل في بيته يحتاج إلى فقه الأولويَّات؛ ليعرِف أن عنده اختبارًا غدًا، وبالتالي عليه أنْ يؤجل اللعبَ، ويُقْبِل على الدراسة، أو أنَّ عليه واجبًا يجب أنْ يؤدِّيَه، فهذا كلُّه جانب مِن الأمور الفطريَّة في رعاية الأولويَّات.

والفتاة تحتاج هذا العلمَ في مراحل حياتها، ومِن ذلك عندما تفكِّر في القبول بشريك حياتها، ولديها أكثر مِن خيار، فهنا تأتي قضيَّة الأولويَّات.

والشاب يحتاج إليه حين يَهُمُّ بالانتقال إلى مرحلة جديدة، فيحتاج إلى أنْ يدرُس التخصُّصات التي هو مُقبِلٌ عليها، وأيُّها أَوْلى وأنسب مع مواهبه وظروفه.

وهكذا نجد أن الأولويَّاتِ لا تخصُّ فئةً مِن الناس، بل تهمُّ الجميعَ.

(١) انظر: أعلام الموقعين (٢/ ٧٥).

تناول الأولويات:

يتم تناول موضوع الأولويات لأمور منها:

أولًا: اتساع ميادين الحياة الزاخرة بالعمل والنشاط والحيويَّة، فقد جعلَ ربُّنا تبارك وتعالى فيها هذه القوَّة، وهذه الروح، وهذا التيار المتدفِّق، وكلُّها ميادين مفتوحة أمام الإنسان في العمل، والدراسة، والتجارة، والعلاقات، والمشاركة، والنشاط، فهذه الميادين واسعة، وعلى الإنسان أنْ يختارَ أَوْلاها وأفضلَها بالنسبة له.

ثانيًا: كثرة الواجبات، فالإنسان أمام واجبات والتزامات متعددة، بعضُها شرعيٌّ، وبعضها حقوقي، وبعضها أدبي، فأيها عليه أن يقدِّمَه.

ثالثًا: ضيق الجهد ومحدوديته، فالكثير مِن الناس لديهم طموحات غير عاديَّة، وأشياء أقرب إلى الوهم والخيال، لكن كلَّما تقدَّم بهم الزمن بدأوا يطرحون على أنفسهم أسئلة جادَّة، وفي النهاية قد يجد الواحد منهم أنه لم يصنع شيئًا أبدًا، بينما لو رتب أولوياته وحدَّد هدفًا واضحًا وصمَد إليه..، أبدع وأنتج، وأعطى ثمرة كبيرة.

رابعًا: ضعفُ رصيدِ التجربةِ لدى الإنسان، فإنَّ العاقل الموفَّق مَن يبدأ مِن حيث انتهى الآخرون، فإذا استطاع أن يأخذَ بعضَ الأساليب والوسائل في اختيار ما هو الأفضل والأَوْلَى، فإنَّ هذا سوف يقصر عليه الطريق.

وإنَّ غياب الوعي بما هو مهمٌّ، هو التزامٌ بشيء غير مهمٍّ، و(نفسك إن لم تشغلْها بالحقِّ، شَغَلَتْكَ بالباطل).

فمن آثار غياب هذا الفقه عن حياة المسلمين اليوم: الاستغراق في الجزئيَّات

والتفاصيل، والغفلة عن الكلِّيَّات والأصول والقواعد العظيمة، وهذا داء دويّ ضارب في كل اتجاه.

ففي الجوانب الشرعيَّة قد يستغرق الناس في جدل ومناظرات حول مسائلَ قد تكون في الدرجة الثالثة مِن الأهميَّة، والذي أعرفه مِن واقع الناس وأسئلتِهم واستطلاعاتهم وحواراتهم: أنَّ أكثرَ الجهد الذي يبذلونه، والأسئلة التي يُوَجِّهونها، هي في هذه القضايا الدقيقة الصغيرة التي جُبِلَت النفوسُ على تطلُّبها، والبحث عنها، فيسألون عن أشياء ربما لم يكن هناك مَدْعَاةٌ للسؤال عنها، وهي في دائرة العفو الأصليِّ، أو أشياء أَمْرُها يسيرٌ، ولا تتطلَّب كلَّ هذا الجهد، كما في قصة ابنِ عمر ﷺ حين قال لبعض أهل العراق: «ما أَسْأَلَكم عن الصغيرة وأَجْرَأَكم على الكبيرة، تقتلون الحسين وتسألون عن دم البعوضة»[(١)]!

فهذا الكلام يَصْدُق على بعض الناس الذين يتجرَّأ الواحدُ منهم على قضايا ضخمة، بينما يشغَل نفسَه في البحث في جزئيَّات ليس لها كبيرُ أهميَّةٍ.

ومن آثار الغفلة عن ذلك: الاختلافُ والتشاحنُ، حين يكون هناك عدد مِن المجموعات الإسلاميَّة العاملة في الميدان، ولكن اختلفت أولويَّاتهم بحسب الاجتهاد، فيترتَّب على ذلك الصراع والخلاف، وانشغال بعضهم ببعض، والصراع والخلاف يؤكِّدان أنَّ خارطةَ الأولويَّات عندهم غيرُ واضحة؛ لأنها لو كانت واضحةً؛ لأدركوا أنَّ مِن الأولويات تركَ هذا الخلاف الذي لا طائلَ مِن ورائه.

(١) أخرجه أحمد (٥٦٧٥)، والبخاري في الأدب المفرد (٨٥)، والنسائي في الكبرى (٨٥٣٠).

ومن ثمار الغفلةِ عنه: فقدانُ البوصلة التي تُوصِل المرءَ إلى هدفه، وهذا فيه ضياعُ كثيرٍ مِن الجهود، والانحراف عن الأهداف، ويترتَّب على ذلك تَكرار المحاولات دون جدوى..

إنَّ تحديد الأولويَّات يُعين الإنسان على أن يتأكَّد مِن الطريق الذي يريد أن يصل به إلى هدفه، فيحدِّد الهدف بدقة، ويصل إليه مِن خلال أقرب الطرق الممكنة، بعيدًا عن التعرُّجات والتأخُّر.

تطبيقات لفقه الأولويات:

ثَمَّت تطبيقاتٌ كثيرة مِن القرآن والسنَّة:

١- يقول الله جل وعلا: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾. فالقول: هو القرآن نفسه، ويقول سبحانه: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾.

والأوامر الربانية كلُّها حسنة، لكن فيها ما هو أحسن، وهذا الأحسن قد يكون أحسن مطلقًا، وقد يكون أحسنَ في وقت مِن الأوقات، كالعفو، فإنَّه أحسنُ مِن المؤاخذة، وقد يكون هذا بحالة ما إذا كان العفو يترتَّب عليه إصلاحٌ، ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾، ومعنى قوله سبحانه: ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥ﴾، أي: يختارون الأفضل، وكلُّه مما أنزل الله، ومما أَمَرَ به، والله سبحانه وتعالى أنزله على نبيِّه ﷺ.

٢- وقال جل وتعالى: ﴿أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌ﴾، فعاب الله على بني إسرائيل أنهم أخذوا الأدنى، وتركوا الذي هو خير، وفي ذلك إشارة إلى أنَّ على الإنسانِ العاقلِ الحصيف أنْ يأخذَ الذي هو خيرٌ، ويترك الذي هو أدنى.

٣- ويقول جل وعلا: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فبَيَّن سبحانه أنَّهم لا يستوون عنده جل وعلا، وأن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا هم الأفضل والأعظم درجة عند الله، وهم الذين أخذوا الأَوْلَى.

٤- وفي قوله سبحانه: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾، إشارة إلى اختيار الأَوْلَى، وأنَّ الكلامَ الطيِّبَ والعفوَ، أفضلُ مِن أنْ يتصدَّق الإنسان، ثم يُتْبِع صدقتَه الـمَنَّ والأذى.

٥- ومن السنَّة النبويَّةِ في الحديث القدسي: «**وما تَقَرَّبَ إليَّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ ممَّا افْتَرَضْتُ عليه**»[(١)]، فأشار إلى محبَّة الله تبارك وتعالى لهذا العمل الذي هو الفريضة، ثم يأتي بعده النافلة.

٦- «**أيُّ العملِ أفضلُ**»، وفي هذا جاءت أحاديثُ كثيرةٌ عن النبيِّ ﷺ، فمَرَّة يقول: «**الصلاةُ على وقتِها**»[(٢)]، ومَرَّةً: «**الإيمان بالله**»[(٣)]... إلى غير ذلك مِن اختلاف الجوابات التي قال أهل العلم والتحقيق: إن اختلافَ الجوابِ فيها يدلُّ على أنَّه ليس واحدٌ منها يمكن أن يُقَال: إنه هو الأفضل مطلقًا، وإنما يكون كلُّ واحدٍ منها أفضلَ لاعتبار مِن الاعتبارات، فيكون أفضل لحال السائل، أو أفضل لحاجة الناس، أو لغير ذلك مِن الأسباب، وهو ما يُسَمَّى بـ «واجب الوقت»، ولا نقول: إن واحدًا منها أفضلُ مِن غيره مطلقًا إلا الإيمان بالله؛ لأنَّه هو الأصل.

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٨٢)، ومسلم (٨٥) واللفظ له من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٢٦)، ومسلم (٨٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٧- وفي الحديث الآخر: «**الإيمانُ بضعٌ وسبعونَ** - أو: **بضعٌ وستونَ**، على الروايتين- **شعبةً؛ أعلاها قولُ: لا إله إلا الله**»[١]، فهو إشارة إلى تفاوت أعمال الإيمان.

فالواجبُ درجاتٌ تبدأ بالأركان، ثم الواجبات، ثم أيضًا المأمورات مِن السُّنَن والمُسْتَحبَّات، وهكذا، والواجب المقطوع به غير الواجب المظنون، والواجب العينيُّ على أفراد الناس، غير الواجب الكفائيِّ عند جمهور العلماء.

٨ - يقول النبيِّ ﷺ: «**ألا أُنبِّئُكم بأكبرِ الكبائرِ**»[٢]، وهو يومِئُ إلى أنّ المنهيَّات - وهذا مما هو أولى تركُه والابتعاد عنه - درجاتٌ، تبدأُ بالشرك بالله سبحانه وتعالى، ثم أكبر الكبائر، ثم الذنوب الـمُجْمَع على تحريمها، ثم اللَّمَم، ﴿**ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ**﴾.

٩ - حديث معاذ رضي الله عنه: «**إنك تأتي قومًا أهلَ كتابٍ**»[٣]، وفيه التدرُّج إلى الدعوة، وحمْل الناس على الخير، وهذا مِن الفقه الرشيد العظيم في الدعوة إلى الله تعالى؛ لأن الناس إذا حُمِلوا على الواجبات دُفْعَةً واحدةً، فإنَّ هذا يُصَعِّب عليهم الالتزام، ولذلك ربما يكون مِن الحكمة التي تُقْتَبَسُ مِن هذا الحديث في إطار الدعوة إلى الله عز وجل، أنَّ علينا أن نُسَهِّلَ على الناس عمليَّة الالتزام، وأنَّها ليست عمليَّة مُعَقَّدة أو صعبة، أو تقتضي أنَّ الإنسان يقوم بانقلاب على حياته كلِّها، فنقدِّم له شيئًا سهلًا في مُتَنَاوَلِه، وهذا الشيء يكون بدايةً جَيِّدةً يتطوَّر الأمرُ فيها إلى أنْ يُصبِحَ الإنسان مِن الأخيار الفضلاء.

(١) أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥) واللفظ له من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري (٢٦٥٤)، ومسلم (٨٧) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.
(٣) أخرجه البخاري (١٤٥٨)، ومسلم (١٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

كيف نحدِّد الأولويَّات؟

أولًا: بالتفكير والنظر، فإنَّ اللهَ سبحانه وتعالى رَزَقَنا هذه العقولَ وتَعَبَّدَنا بأنْ نُعْمِلَها، قال أهل العلم: إنَّ الشريعة جاءت بالمصالح كلِّها ودَفْعِ المفاسدِ كلِّها.. فمدار الشرع على تحصيل المصلحة ودفع المفسدة، وهذا باتفاق العلماء، وقد نصَّ عليه مَن كتبوا في الأصول كالشاطبيِّ والغزاليِّ وابنِ تيمية وابنِ القَيِّم وابنِ عبد السلام وغيرهم.

فالشريعة جاءت؛ لتحصيل المصالح، وقد أشار العزُّ بن عبد السلام إلى أنَّ المصالِحَ والمفاسِدَ تُعْرَفُ بالعقل، فكثير مِن المصالح الدنيويَّة، ينظُر فيها الإنسانُ فيُدْرِك أنَّ فيها خيرًا ومصلحةً، أو أنَّ فيها ضررًا ومَفْسدةً. والكلام فيما لم يَرِدْ فيه نصٌّ شرعيٌّ بتحريم أو إيجاب.

وإعمال الفكر والعقل في معرفة المصالح والمفاسد، وخير الخيرين وشرِّ الشَّرَّين، هو مِن أعظم الفقه، ومِن أوسع العلم، وهو يحتاج إلى الخبرة والتدريب.

وكثير منَّا تسيطر عليهم الأعمالُ أكثر من التفكير، فنحن تَدَرَّبنا على أن نعملَ؛ لكن لم نتدرَّبْ على أنْ نفكِّر.

فأن يَدْرُس الإنسان، ويفكِّر في نتائج العمل الذي قام به وآثاره وإيجابيَّاته وسلبيَّاته، أمر مطلوب، وليس صحيحًا ما نردِّده من أن علينا العمل، وليس علينا النتائج، **بل الصحيح**: أننا تُعِبِّدْنا بالبحث عن المصالح، فإن لم نجد في العمل نتائجَ إيجابية، فإننا نُعِيد النظرَ فيه، فعلينا أن نُعْمِلَ التفكيرَ في تحديد الأولويَّات والنظر فيها.

ثانيًا: المشاورة والحوار، فبالتجربة يتبيَّن أنَّ عقلًا واحدًا ليس كعقلين، وأنه يقع بالحوار تصحيح للأفكار والنظرات.

ومَن شاور الرجال شاركها في عقولها، ولا يستطيع الإنسان أن يستبدَّ بمعرفة المصلحة والـمَفْسدة والأَوْلَى، لكنَّه يستطيع أن يستفيد مِن الآخرين.

ثالثًا: التأنِّي بحسب الأهميَّة، فالعَجَلَةُ ربما تخطف الإنسان عما هو أَوْلَى وأصوب.

وكثير مِن القضايا تحتاج إلى طول النَّفَس، فأعطِها وقتًا، فقد تنفتح لك فيها أبواب، فإذا فَكَّرَ الإنسانُ في مسألة، ولم يتبيَّن له فيها شيء، فأَجِّلها وأعطاها وقتها من التأمل، نشط عقله وذهنه، وانجلى الضباب الذي يُلَبِّس عليه.

رابعًا: الرجوع إلى أهل الخبرة والاختصاص، فيما يحتاج إلى متخصصين يُعنون بتوضيح الأمر وتحديد الأولوية.

وأخيرًا وهي جديرة بأن تكون الأُوْلَى: الاستخارة، فإنَّ النبيَّ ﷺ أرشد أن الإنسان إذا همَّ بالأمر صلَّى ركعتين - كما في حديث جابر رضي الله عنه في البخاري[1]- واستخار اللهَ تعالى بعلمِه، واستقدَره بقُدْرَتِه، وسأله مِن فضلِه؛ أن يدلَّه على ما هو الخير والأرشد في الأمر الذي يتوجَّه إليه.

معايير الأولوية:

يمكن الحكم على عمل مُعَيَّن بأنه أولى مِن غيره، من خلال أمور:

الأول: أنْ يكون مهمًّا لذاته، لا لشيء خارج عنه، كأهميَّة الإيمان، وأهمية الأشياء الضروريَّة في الدين، كالضرورات الخمس التي جاءت الشريعة لحِفْظها، ولتحصيل المصالح.

(١) صحيح البخاري (١١٦٦).

الثاني: موضوع الوقت والفوات؛ فتُقَدَّم الأشياءَ التي تفوت على الأشياء التي لا تفوت، ومن ذلك تقديم الواجبات التي تفوت كالصلاة، أو الأعمال الصالحة التي لها وقت مُعَيَّن تنتهي بانتهائه.

الثالث: الشخص نفسه في إمكاناته وقدراته وموقع عمله، وكذلك لتخصُّصه ولطبيعة علاقته بهذه المشكلة أو تلك، وهناك ما يعتبر أولويًّا لشخص دون شخص؛ لأن الإمكانات تتفاوت، والظروف تختلف، إلى غير ذلك مِن الاعتبارات.

الرابع: شمول النفع؛ فما كان نَفْعُه أشملَ وأعمَّ للناس، فهو أفضلُ وأَوْلى، وأحق بالتقديم.

الخامس: تلاؤم هذه الأولويَّة مع البرنامج الخاصِّ، سواءً كان لفرد أو مجموعة، شركة أو مُؤَسَّسة، فربما اختارت فئة لنفسها طريقة معيَّنة باجتهادها، ورأت أنَّ لهذا الطريق أولويَّةً، كمن تخصصوا في دعوة غير المسلمين، ورأوا أنَّ هذا الجانب مغفول عنه، ولذلك نظَّموا شبكة مِن العلاقات والمكاتب لدعوة غير المسلمين، مع أنه قد يعرِض لهم مَن يقول: أنتم تهتمون بإدخال غير المسلمين في الإسلام، بينما الذين دخلوا في الإسلام يكادون أن يبتعدوا عنه، أو يخرجوا منه، فلماذا لا تشتغلون بتثبيتهم على دينهم؟! فيجاب: بأن هذه أولويَّة اختاروها، ورأوا أنَّ الأمة بحاجة إليها، فجهودهم وإمكانياتهم تتلاءم معها، وعلى غيرهم أن يهتمُّ بالجانب الآخر.

السادس: القدرة؛ فالإنسان قد يقدر على شيء، ولا يقدر على غيره، والشيء الذي تقدر عليه أنت، ربما لا يقدر عليه سواك.

السابع: الثمرة والنتيجة مقارنةً بالجهد، فهناك ثمرة، لكن إذا قستها بالجهد الذي بُذِل، تبين لك هل الأَوْلى أنْ تستمرَّ في هذا العمل، أو أن تنتقل إلى غيره؟!

إدارة الأولويات:

إدارة الأولويَّات تتعلق بأولويَّات الإدارة، وفيها فوائد نحتاجها، وهي:

أولًا: الأولويَّات في إدارة الوقت ذات علاقة وطيدة بالأولويَّات في الشريعة.

ثانيًا: التوفيق بين ما هو عاجل وما هو مهمٌّ، وفي كثير مِن الحالات لا تكون الأشياء العاجلة مهمَّةً، لكنها تفرِض نفسَها، وهنا يقع الارتباك، فيقدم ما هو عاجل، بينما الأصلُ تقديمُ ما هو مهمٌّ؛ لأنه هو الأَوْلَى والأهمُّ، وإنْ كان هناك إلحاح على العاجل، وهذا أيضًا يُعَبِّرُ عنه بعضهم بـ«الفرق بين الساعة والبوصلة»، والفرق بين الوقت والواجب، فإذا سيطرت الساعة على الإنسان، فإنه يعيش دائمًا ردودَ فعلٍ وقتيَّة لأحداث يعملها الآخرون، وهذا يترتَّب عليه أن يغفل عن العمل الابتدائي الذي ينبغي أن ينطلق من ذاته.

إنه لا بدَّ أن يحدِّد الإنسان لنفسه هدفًا، لما يريد أن يكونه في المستقبل، وذلك على مستوى الفرد والجماعة والدولة والأمة، كما يجب أن يكون هناك برنامج واقعيٌّ يحقِّق هذا الهدف.

اجتمع مجموعة مِن الشباب في مكتبة، وأخذوا يتناقشون فيما بينهم، فقال بعضهم: إنه قرأ في كتاب أنه لا بدَّ مِن تحديد الأهداف، وكان قد أتى لهم بكتاب قد طبعت عليه أهداف من الخلف، ومكتوب على ظهره: أول هدف

إقامة الحياة الإسلامية، والحكم الإسلامي، فقال هؤلاء الشباب: هذا أفضل هدف يمكن أن نجتمع عليه.

وهذا ليس هدفًا بالمعنى الصحيح بالنسبة لهؤلاء؛ لأن المقصود: الهدف الذي ترسِم طريقًا إليه، وفق مرحلةٍ زمنية وخطةٍ للإنجاز، كالتزوُّد بالعلم الشرعيِّ، وحفْظ القرآن الكريم، وحفْظ مَتْن في السنة، ومعرفة بعض العلوم، وتوظيف بعض الطاقات، إلى غير ذلك مِن الأهداف العمليَّة الممكنة.

إنَّ فَهْمَ الواقع جَيِّدًا قد يعفي من القلق، ويُعِين على العمل الرشيد، فإنَّ مصدر قلق الكثيرين توقُّعات معيَّنة، وبعض هذه التوقُّعات مخاوف مُبَالَغ فيها، والتجارب علَّمتنا أن لا نبالغ في المخاوف؛ فإن الأمورَ لا تذهب بعيدًا، ومن سُنَّة الله أنَّ الله يجعل مِن كلِّ شيء ما يقاومه:

لـكلِّ شـيءٍ آفـةٌ مـن جنسِـهِ حتـى الحديـد سـطا عليـه المبـردُ

فعلى الإنسان أن يقلَق، ولكن باعتدالٍ، فلا يبالِغ في القلق مِن المخاوف التي يتوقع جديتها، وكما يقال:

سـهرت أعيـنٌ ونامـت عيـون لأمـور تكـون أو لا تكـونُ

إنَّ ربًّـا كـفـاك مـا كـان سـيكفِيك فـي غـدٍ مـا سيكـونُ

ولا يعني أن يكون الإنسان لامباليًا، لكن هناك فَرْقٌ بين هذا، وبين أن تأخذَنا حالةٌ مِن الذعر والهلع الذي يوقف حراكنا، ويجعلُنا لا نستطيع أن نركِّز في جهودِنا وأعمالنا.

إن أعمارنا لا تكفي لأعمالنا وخُطَطِنا كلِّها، فلماذا لا نفكِّر بطريقة نستطيع من خلالها أن نحقِّق مزيدًا مِن الأهداف، فيمكِن أنْ توظِّف وتفوِّض وتُوجِّه

آخرين، وإن كان عندك مجموعة مِن الآراء والمقترَحات تبثُّها للناس، فإن عملوا بها فكأنَّك أنت الذي عمِلْت، و«**مَن دعا إلى هُدًى، كانَ له مِن الأجرِ مثلُ أجورِ مَن تَبِعَه**»[١].

إننا لا نملك سيطرة مطلقة على الحياة كلِّها، ولكننا نملك بعضَ السيطرة على أنفسنا، وعلى خياراتنا الخاصَّة، واجتهاداتِنا الذاتيَّة.

كما أن معالجةَ الأزماتِ العابرةِ، ربما تصنع عند الإنسان القلقَ والإجهادَ والضغطَ.

كم يخدع الإنسان نفسه حينما يزعم أنه مشغول دائمًا، ويظن أن مَن كان كذلك فهو مهمٌّ.

إنَّ الإنسان المهمَّ يجد وقتًا لكثير مِن الراحة والأنس والهدوء والقراءة، وليس علامة الأهميَّة هو الانشغال الدائم، فربما كان الانشغال بسبب عدم التنظيم، أو عدم ترتيب الأولويَّات.

الوقت والانتفاع به:

فلا تظنُّ أن الوقت مليء ولا يتسع.

تشتهر قصة رجل أحضر إناء له فُوَّهة واسعة، وأحضر مجموعة مِن الحجارة الكبيرة، ووضعها فيه حتى امتلأ بهذه الحجارة، ثم سأل الحضور: هل امتلأ؟ قالوا: نعم. فأخرَجَ مجموعةً أخرى مِن الحجارة الصغيرة ووضعها عليها، فتخلَّلَتْها حتى وَسِعَها الجالون كلَّها أيضًا، فقال: هل ترونه امتلأ؟ قالوا: نعم. فأخرج إناءً فيه رملٌ، ووضعه عليها، فاستوعبها، فسألهم: هل امتلأ؟ قالوا: نعم. فأخرج إناءً فيه ماءٌ، فصبَّه عليها، فتخلَّلها.

(١) انظر: صحيح مسلم (٢٦٧٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

إن من النضج أن نفكِّر بالأشياء الكبيرة؛ لكن الأشياء الصغيرة ولو كانت من الدرجة الثالثة أو الرابعة، فلها في الوقت مُتَّسع إذا أُحْسِن توظيفها.

نماذج من الأولويات:

أولًا: مِن الأولويَّات العناية بالأولويَّات وضَبْطِها ومدارستها وقبول التنوُّع فيها، وعدم البغي بسببها، فلا يبغي بعضنا على بعض بسبب هذه الأولويَّات، فقد يكون هذا أولى لك، ولكنَّه ليس أولى لغيرك.

ثانيًا: المحافظة الدائمة على الصفاء والنقاء والسلام النفسيِّ، والهدوء والاستقرار والسعادة والرضا، فهذه مكاسب حقيقيَّة، وعلينا أن لا نُفرط فيها، بل علينا المحافظة على العلاقة الطيِّبة الأخويَّة مع المسلمين، وهذه مِن الأولويَّات القلبيَّة الأساسيَّة التي في ظِلِّها تصفو الحياة، فإيَّاك ثم إيَّاك أن تسمح لأي اختلاف في الاجتهاد أو في الأولويات مع أخيك المسلم؛ أن يجعل في قلبك عليه غِلًّا أو كراهية أو حقدًا.

ثالثًا: عدم التقاطع بين أولويَّات الأُمَّة، وأولويَّات فئة مِن فئاتها، فكُلَّما تكرَّس لمجموعة برنامج معين، وأبلَغوا في العُزْلة فيه، ضَعُفَت مراعاتُهم لمصلحة الأُمَّة، وصاروا يرون مصلحةَ الأُمَّة مِن خلال مصلحة هذا الفريق أو هذه المجموعة التي رسمت لنفسها برنامجًا خاصًّا، قد لا يتطابق مع مصلحة الأُمَّة كلِّها، ولما حاصر النبيُّ ﷺ الطائفَ أصابتهم جراحٌ، فقال لهم النبيُّ ﷺ، وقد رأى ما مَسَّهم: «**إنا قافلون غدًا**»، فقالوا: يا رسولَ اللهِ، نرجعُ ولم نفتحْها؟ فترَكَهم، فلما كان مِن الغدِ أصابَتْهم جراحٌ، فقال

لهم النبيُّ ﷺ: «**إنَّا قافلون غدًا**»، فأعجبهم ذلك، وتطلَّعوا إليه، ورفعوا رؤوسَهم، فتبسَّم النبيُّ ﷺ[١].

فمصلحة الأُمَّة العامَّة في سوادِها، وجمهورِها، وعامَّتها، وفي هدوئها، وسكينتها، وفي حِفْظِها، وحِفْظ ثغورها، وفي عدم تسليط أعدائها.

رابعًا: ضرورة تحريك قناعات أفراد الأُمَّة للعمل المنتِج للإصلاح الشامل، فمليار ومائتا مليون إنسان، عددٌ هائلٌ يسدُّون الأُفُق، فهم خُمْسُ سكانِ الكرة الأرضيَّة، ولو أن كلَّ واحد منهم عنده عملٌ -ولو صغيرًا- لكان للإسلام مِن وراء ذلك عِزٌّ أكيد، ولو كان عندنا عشرة ملايين إنسان منتخَب في عِلْمِه وعقله وإدراكه وسلوكه ونُضْجِه، لكان لنا حال أخرى ومكان أسمى، فاليهود كلُّهم لا يتجاوزون سبعةَ ملايين نسمة، ومع ذلك أصبحت هذه الدولة شوكةً في خاصرة العالم الإسلاميِّ، بل إنها تتحدَّى هذه الأُمَّة من أقصاها إلى أقصاها، بجيوشها، وحكوماتها، وشعوبها، ليس فقط في المجال العسكريِّ، بل حتى في المجال المعلوماتيِّ، والتقنيِّ، والسياسيِّ، وهذه مصيبة كبيرة جِدًّا.

ولو استطعنا أن نحرِّك طاقاتِ الأُمَّة، فسوف نكون أمام نتيجة مبهرة، وليس المقصود رَفْع الشعارات، ولا توزيع المسؤوليَّات، وإنما المقصودُ حركةٌ فعليَّة تنطلق مِن قناعة الإنسان؛ لأنه جزء مِن المشكلة، وهو بالتالي جزء مِن الحلِّ، ولذلك لا يمكن أن يكون بيننا إنسانٌ يرى أنَّه ليس جزءًا مِن المشكلة؛ لأنه حينئذٍ لن يكون جزءًا مِن الحلِّ، والذي لا يعترف بأنَّه مسؤول عن خطأ، لن يقوم بالتصحيح.

(١) أخرجه البخاري (٤٣٢٥)، ومسلم (١٧٧٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

خامسًا: تصحيح المفاهيم المغلوطة المرتبطة بالدين، وهذا مِن الأولويَّات المهمَّة جدًّا؛ لأن هذه المفاهيم تكون عصيَّة على التصحيح؛ إذ يظنُّ الناس أنها مِن الدين، فإذا رأوا مَن يحاول تغييرها قالوا: هذا يريد أنْ يغيِّر ديننا.

فالعمل للدنيا مِن الدين، والإنجاز مِن الدين، والإخلاص في العمل مِن الدين، والأمانة مِن الدين، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وعند قراءة هذه الآية يتبادر إلى أذهان بعض الناس الصلاة والصيام، بينما هذا جزء مِن المعنى، وهو من أمر الله، ولكنه ليس كلَّ المعنى، فالمعنى يقتضي فِعْلَ كلِّ ما أمرَ الله به، فيدخل في ذلك العمل في الدنيا.

ولو أنَّ إنسانًا صلَّى وصام، ولم يَسْعَ في طلب الرزق، فعليه ألا ينتظر وصوله؛ لأنَّ السماءَ لا تمطِر ذهبًا ولا فضة.

وأي إنسان لم يرتِّب ولم يخطِّط، فعليه أنْ لا ينتظرَ النجاحَ، ومَن لم يَسْعَ في الزواج، فعليه أنْ لا ينتظرَ الولدَ..

وهذا يقودُنا إلى نقطة أخرى في موضوع تصحيح المفاهيم، وهي المتعلِّقة بالأسباب:

فعند المسلمين إيمان مُبْهَم بالأسباب، بينما في الشريعة تأكيد عظيم على قضيَّة السببية، وأنَّ الأشياءَ التي يجدها الناس هي نتيجة للأسباب التي فعلوها، هذا في الدنيا، وفي الآخرة يدخلون الجنة برحمة الله تعالى، لكن الله تعالى قال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، فهذه الأعمال التي عملوها جعلتهم يتأهَّلون لرحمة الله عزَّ وجلَّ.

ومثلُ ذلك أيضًا: التفريقُ بين القَدَر، وبين الاستسلام والقعود، ولا بدَّ من الإيمان بالقَدَر خيره وشره، وأنَّ اللهَ تعالى عَلِم كلَّ شيء، وكتب مقاديرَ الْخَلْقِ، لكنَّ القَدَر لا يدعو الإنسان إلى القعود والاتكاليَّة وتَرْك العمل.

ومن ذلك: التفريقُ بين الغيب الذي نؤمن به، وبين الخرافة والأسطورة التي نرفُضها وننأَى بديننا وعقولنا عنها، فالكثير مِن المسلمين تتسرَّب إليهم خرافاتٌ وأساطيرُ مِن جَرَّاء رَبْطِها ببعض القضايا الغيبيَّة، وهذه مشكلة كبيرة، فنحن نؤمِن بالدار الآخرة التي تبدأ مِن حياة البرزخ بعد موت الإنسان ووَضْعه في قبره؛ لكن عندما يأتي مَن يروي قصصًا وأخبارًا تتعلَّق بمشاهدات يزعمُها، أو ينقُلها عمَّن يثِق به، فلسنا مُلْزَمين ولا متعبَّدين شرعًا بأن نؤمِن بهذه الأخبار، وليست هذه جزءًا مِن ديننا، وقد تكون روايات غير صحيحة، وبعض المسلمين أصبح في عقليَّاتهم قابليَّة للتصديق بالأشياء الخياليَّة، وهذا موجود عند مُعْظَم الشعوب التي غلب عليها الجهل، فبعض الخرافات أسرع في الناس مِن السحاب استدبَرَتْه الرياحُ، بينما الحقائق والمعلومات والقضايا الصحيحة لا يتقبَّلُها الناس بسهولة.

ولو أن إنسانًا طبَع حديثًا من «صحيح البخاري»، ووزَّعه على الناس، أو علَّقه في المساجد؛ لم يقرأْه إلا القليلُ، ولم يسأل عنه إلا القليل مِن الناس؛ لكنه لو جاء بحديث موضوع، وفيه غرائب وعجائبُ، لوجدت أن الناس يسألون عنه، ويتناقلونه، ويصوِّرونه إلى غير ذلك.

سادسًا: مقاومة الاستبداد والطغيان السياسيِّ، مع عدم الانتقال مِن طغيان إلى طغيان آخر، بمعنى أن لا يتحوَّل المجتمعُ المسلمُ إلى ميدان تجربة اختبار.

فلا بد من تحديد الموقف مِن الأنظمة، والحكومات في العالم الإسلاميِّ بوضوح واتزان أيضًا، فيجب أن يكون هناك حذرٌ مِن كَيْل المديح، والثناء المفرِط، وبالمقابل يكون هناك اعتدالٌ في المطالَبة بالاصلاح والتصحيح، ولا بد أن يكون هناك نوع مِن الجهود والمطالبات، ولكن بعيدًا عن الأساليب التي قد تنتهج منهَج العنف، أو محاولة فرض الرأي بالقوة، فهذا لا يخدم إلا أعداءَ الأُمَّة في الداخل والخارج.

سابعًا: المشاركة والتَّمَيُّز، فمن المهمِّ جدًّا أنْ يكون لدينا جواب واضح أمام الفرص الجديدة القادمة، ولا بد أن يكون الخيار محسومًا في ضرورة المشاركة وبذْل الجهد في هذه الأشياء، مِن خلال التأثير المباشر وغير المباشر.

ومن ذلك: المشاركة الاقتصاديَّة، مِن خلال البنوك الإسلاميَّة، والمعاملات المصرفيَّة التي يمكن أن تشكِّل مواجهة في ظِلِّ الغزو الاقتصاديِّ.

ومن ذلك: المشاركة السياسيَّة في المجالس النيابيَّة، في الانتخابات، فالأفضل أن يكون هناك نوع مِن الحزم واختيار المشاركة، بغضِّ النظر عن السلبيَّات الموجودة، وعما يكتنِفها مِن مخاوف، وعن حداثة التجربة، وبغض النظر عن أشياء كثيرة، إلا أنَّه يظلُّ في النهاية أنَّ المشاركة أفضل.

وقد يكون منَّا مَن لا يرى ذلك على الأقلِّ لنفسه، وهذا أيضًا ينبغي أن يكون محترَمًا، فليس المقصود أن تُجْمَع الخيارات كلُّها في رأي واحد، لكن أن نتعلَّم كيف نختلف، والذي أميل إليه: أنَّ الأصل والمبدأ هو مبدأ المشاركة المتميِّزة التي لا تجعَلك مُجَرَّد رقم، أو تذوب في هذا التيار، أو

في هذا العمل، وإنما تشارك مشاركة متميِّزة تُعَبِّر فيها عن قناعتك، وموقفك، ورؤيتك الإيمانيَّة الخاصَّة.

ثامنًا: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فتقديم الأمر بالمعروف كما قدَّمه الله ورسوله ﷺ مِن خلال البرامج والمشاريع الكثيرة التي نعملُها، وبعد ذلك يأتي النهي عن المنكر، وهو واجب، فينبغي أن يتخصَّص فيه طائفة، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾، وكما قال سبحانه: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾؛ لكن علينا أن لا نربط نشاطنا بوجود مُهَيِّجَات، أو بما يسمِّيه بعضُهم «إدمان الطوارئ»، فلا نتحرَّك إلا على وقْع مشكلة، أو أزمة، أو أمر طارئ، وأن نشتغل بإطفاء الحرائق، وأن تكون مهمَّتُنا مُجَرَّد الاحتجاج، فلا يكفي أن نعرف ما لا نريد وما نرفض، بل لا بد أن نعرف ما نريده، فنسعى في طلبه، ونجتهد في إدراكه والحصول عليه.

فقه الموازنات

أولًا: تعريف الفقه:

الفقه هو الفَهْمُ، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي﴾، ويُستعمل بمعنى: الاستنباط والاستخراج، ولذا عَرَّفه الاصطلاحيون بأنه: معرفة الأحكام الشرعيَّة مِن أَدِلَّتها التفصيليَّة[١].

وهذا قَصْرٌ للفظ على بعض معناه، فإنَّ الفقه يشمل المعرفةَ الإسلاميَّة كلَّها جُمْلة، بل ويشمل الممارسة العمليَّة للسلوك الإسلاميِّ، ولذا جاء في حديث معاوية رضي الله عنه في «الصحيحين»: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**»[٢].

وتواردت نصوص السلف على أن الفقه يعني: معرفة الشريعة جملة، وأَلْحَقَ بعضُهم بذلك السلوكَ الشخصيَّ، وكأنَّ هذا مِن باب فِقْهِ القلوب، وأن المرادَ مِن المعرفة الشرعيَّة الامتثالُ، فهو غايتها ومقصدها، وقد يكون هذا مِن باب الإلحاق والإتْباع، وليس مِن باب التعريف الموضوعيِّ.

ولا مشاحَّة أنْ يُقْرَن الفقه بما يدلُّ على مقصود الباحث، فيقال: فِقْه الفروع،

(١) انظر: شرح الكوكب المنير (١/ ٤١).

(٢) صحيح البخاري (٧١)، وصحيح مسلم (١٠٣٧).

فقه الأصول، فقه الدعوة، فقه المصلحة، فقه الأولويات، فقه الموازنات، فقه النوازل، فقه الأزمة، فقه اللغة، فقه الحديث، فقه السنة، فقه التمكين، فقه الاستضعاف..إلخ.

ثانيًا: معنى الموازنات:

الموازنات: جمع مُوازَنة، مأخوذة مِن الوزن والميزان، وهي مُفَاعَلَة بين شيئين فأكثر، وكأنَّ الـمُكَلَّفَ يكون مُتَرَدِّدًا بين أمور عِدَّة، فيساعده هذا الفقه على حُسْنِ الاختيار، كالكَفَّارات التخييريَّة، يقول الله تعالى: ﴿**فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ**﴾، ويقول سبحانه: ﴿**فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ**﴾.

ثالثًا: تعريفه:

فقه الموازنات: هو العلم الذي يتمكن به الـمُكَلَّفُ مِن اختيار الواجب، أو الأولى.

ونقرأ في هذا التعريف أمورًا:

١- الإشارة إلى الاختيار؛ لأنه لا يمكن تصوُّر الموازنةِ إلا بين أمرين فما زاد، وإلَّا فالمرء حين يكون أمام طريق واحد لا سبيل له إلى غيره، فإنَّه لا يحتاج إلى إعمالِ ذهنٍ أو مشورة، لكن يقع له التردُّد بين سلوك هذا الطريق، أو التوقُّف عنه؛ لعدم الجزم.

وهذان في الحقيقة طريقان:

الأول: العزيمة والمضيُّ فيما خِيْر له فيه.

الثاني: التوقُّف والتروِّي.

ومثال هذا أن يتردَّد العالم في القول في مسألة ما، هل يُفْتي فيها، أو يسكت؟ فهذان طريقان يحتاج فيهما إلى الموازنة.

٢ - الإشارة إلى «اختيار الواجب»؛ لأن البحث قد ينتهي إلى القول بوجوب سلوك هذا الطريق، ولذا يقول الأصوليون: إنَّه لا يكاد يوجد في الدنيا خير مَحْضٌ ولا شرٌّ مَحْضٌ، ولكن ما غَلَبَ خيره فهو مطلوب، وما غلَب شرُّه فهو مدفوع.

وعلى هذا فالواجب قد يتضمَّن مَفْسَدةً، ولكنَّها مغمورةٌ في مصلحة أعظمَ منها، بمعنى أن اختيار الوجوب هو موازنة بين مصالح ومفاسد تَمَخَّضت عن ترجيح جانب على آخر.

وهذا قد يتحقَّق في مسائل شرعيَّة، مثل الجهاد المشروع، ففيه ذهابٌ للأنفس، ويُتْمٌ للأطفال، وترميل للنساء، ولكن مصلحتَه أعظم في حماية الأُمَّة، ورَدِّ المعتدين.

وقد يتحقَّق في مسائلَ مصلحيَّة لا نصَّ فيها، مثل أنْ يعتقدَ الـمُكَلَّفُ أنَّ شيئًا ما هو واجب عينيٌّ عليه؛ لأنَّه لا يقوم به أحد غيره، وهو يَقْدِر منه على شيء لا يَقْدِر عليه سواه، وهذا يكثُر في أبواب العلم والدعوة والإصلاح ونحوها.

٣ - والإشارة إلى اختيار الأَوْلَى، حيث لا يكون في المسألة وجوب أو تحريم؛ لعدم ظهور الْحُكْم، أو للتَّنازع فيه، فيُرَجِّح المرءُ وجهًا أو سبيلًا على جهة الميل، لا على جهة القطع واليقين.

ومن ذلك: الاختيارُ بين أنواع مِن الخير كلها مطلوب؛ لكن يَقَع التردُّد في

أيها أفضلُ عند الله وأنفع لعباده، كالعلوم النافعة، سواءً كانت علومًا دينيَّة، أو علومًا دنيويَّة، مما يحتاجه الناس في حياتهم.

رابعًا: استمداد فقه الموازنات:

فقه الموازنات يتصل بالعديد مِن العلوم، وقلَّ مَن ألَّف فيه تأليفًا مستقلًّا، ولكنه يقتبس مِن أبحاثٍ أصوليَّة مثل:

١- بحث المصالح والمفاسد، كما قرَّره الشاطبيُّ والغزاليُّ وابن تيمية وابن عبد السلام ومَن بعدَهم.

وهو أهمُّ متعلِّقات فقه الموازنات.

٢- بحث القياس، فإن القياس نوع مِن الموازنة، كما ذكر الأصوليُّون في تعريفه: أنَّه إلحاقُ فرعٍ بأصلٍ في حُكْمٍ لعِلَّة جامعة بينهما[١].

وقد يكون الفرع المنظور إليه مُتَرَدِّدًا بين المسكوت عنه، وبين إلحاقه بأصول منصوص عليها، فهذه موازنة، وصوابها يعتمد على صدْق المقايسة واعتدالها.

٣- بحث المقاصد الشرعيَّة، من حيثُ إنَّ فَهْم المقاصد واستيعابها يُعِين على اختيار الأَسَدِّ والأنفع في موارد النزاع، ومواضع الإشكال، ومواطن الغموض، والاختلاف بين الناس.

وبحث المقاصد وإن كان سَبَقَ إلى دَرْسِه الإمامُ الشاطبيُّ، وتوارد عليه مِن بعدِه الباحثون، وكان من أكثر البحوث المتأخِّرة فيه تجويدًا كتاب الإمام الطاهر بن عاشور في مقاصد الشريعة، وتوسَّع في استنباط المقاصد وتطبيقها سماحة الشيخ عبدُ اللهِ بنُ بيه حفظه الله تعالى في كتابه: «علاقة مقاصد

(١) انظر: شرح الكوكب المنير (١/ ٤١).

الشريعة بأصول الفقه»، إلا أنه لا يزال بحاجة إلى مزيد مِن التقعيد والضبط والنشر المتوازن.

٤- ويتطرَّق إليه أهلُ العلم في مُصَنَّفَاتهم التي تحتاج إلى نَظَرٍ متوازن بين مصالحَ ومفاسدَ، مثل أبواب السياسات الشرعيَّة، كما في كتاب الماورديِّ وأبي يعلى وابن القيِّم وغيرهم.

أو في أبواب خاصَّة مِن سياسة الفرد والمجتمع، كما في بحث العُزْلة والْخِلْطة، والذي كتب فيه الخطابيُّ وابنُ رَجَبٍ وسواهم.

حيث لا تخلو هذه الأبحاث وتلك مِن مقايسة بين المصالح المترتِّبة على عمل ما، وبين المفاسد، مع بناء الحكم أو الاجتهاد الذي يصل إليه المصنِّف على هذه المقايسة.

ومن أبرز مَن اعتمد هذا المعنى في تفصيل المسائل الحادثة الإمام الجوينيُّ في كتابه: «غِياث الأُمَم في الْتياث الظُّلَم»، حيث وازن بين خروج الإمام للحجِّ الفريضة -مثلًا- وبين بقائه لحراسة البَيْضة، وحماية الأُمَّة، وتدبير شأن الرعيَّة.. وهَلُمَّ جَرًّا..

خامسًا: ما كتب في فقه الموازنات:

وهذا البحث - أعني: فقه الموازنات - كُتِبَت فيه سطورٌ مُتَفَرِّقة، وأُدْرِج ضِمن أبحاث أوسع في «فقه الأَوْلَوِيَّات»، كما فعل الشيخ الدكتور يوسفُ ابنُ عبدِ اللهِ القرضاويُّ رحمه الله، وأفرده الأستاذ الكماليُّ في بحث خاص تحت عنوان: «الشريعة الإسلاميَّة وفقه الموازنات»، وتَحَدَّث عنه الأستاذ ياسر العدل في كتاب: «الفقه الغائب».

وهناك رسالة علميَّة مُتْقَنَة للشيخ سليمان بن عبد الله النجران، بعنوان: «المفاضلة بين العبادات».

وصنَّف فيه الأستاذ ناجي إبراهيم السويد مُصَنَّفًا خاصًّا تحت عنوان: «فقه الموازنات بين النظريَّة والتطبيق».

وجدير بالباحث المعاصر أن يتوسَّع في دراسة هذا الموضوع بالانفتاح على عدد مِن العلوم الحديثة، باعتبار أن الحياة شيءٌ واحدٌ مُتَّصِلٌ بعضُه ببعض، وأنَّ ثورة المعلومات تُوْجِب الانتفاعَ بالـمُنْجزات المعرفيَّة، والتجارب البشريَّة في علومٍ مثل:

١- علم الإدارة، وإدارة الوقت أو إدارة الذات، وترتيب الأَوْلَوِيَّات، ومن ذلك الرباعيَّة المعروفة بين العاجل والمهمِّ، والعاجل غير المهمِّ، والمهم غير العاجل، وغير المهمِّ غير العاجل.. وما يُسَمَّى بـ «الفرق بين الساعة والبُوصْلة»، فالساعة تعبيرٌ عن واجب اللحظة الآنيَّة، أما البُوصْلة فتعبيرٌ عن واجب المستقبل الأوسع.

٢- علم التنمية المجتمعيَّة، والتنمية البشريَّة.. مما يَعْني إضافة اهتمامات جديدة لدى الباحث، تفتحُ أُفُقَه وعقلَه على ميادينَ قد لا يجدُها لدى الأقدمين.

٣- علم الاقتصاد.

٤- علم السياسة.

٥- علم الإعلام والاتصال الجماهيريِّ، ويُرْشِد إلى أهميَّته في باب التوازنات قولُ النبيِّ ﷺ: «**لاَ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**»[1].

لقد كان ﷺ أمام خيار قَتْلِ أشخاصٍ معروفين، ثَبَتَ نفاقُهم، واستحقُّوا

(١) أخرجه البخاري (٤٩٠٥)، ومسلم (٢٥٨٤) من حديث جابر رضي الله عنه.

القتلَ، ولذا لم يقلْ هنا كما قال في شأن حاطب بن أبي بلتعة ﷺ: «**فَإِنَّهُ شَهِدَ بَدْرًا وَالْحُدَيْبِيَةَ**»[١]. وإنَّما اعتذر بما يترتَّب على الفعل مِن المقالة الضارَّة التي يصعب حصارها، فدلَّ على جواز الفعل مِن حيث الأصل.

٦- علم الاجتماع، فإنَّ معرفةَ سُنَن الله في المجتمعات والأُمم ضرورةٌ لكلِّ عمل يستهدِف الإصلاحَ، ولا بدَّ مِن الموازنة بين مراعاة أَمْزِجَة المجتمعات، وبين مطالب التغيير والترقِّي، وبين مصالح الفرد والجماعة، وبين الحاجات النفسيَّة والاقتصاديَّة..

سادسًا: تأصيل شرعي:

١- عند استحضار لفظ «الموازنة» نجد أن الكلمات الكليَّة لهذا الجذر في القرآن الكريم تبلغ (٢٣ كلمة)، يمكن تصنيفها كما يلي:

أ- **الوزن والميزان يوم القيامة**، والذي تُوزَن به الأعمال والأشخاص، وتَرْجُح معه كِفَّة الحسنات، أو كِفَّة السيئات، فهذا إلى الجنَّة، وهذا إلى النار..

وهذا المعنى هو موازنة أخرويَّة ربانيَّة، شأن الإنسان فيها أن يحاسِب نفسَه قبل أن يُحَاسَب، وأن يَزِنَ أعماله قبل أن تُوْزَن، كما قال عمرُ ﷺ: «حاسِبوا أنفسكم قبل أن تُحَاسَبوا، وزِنُوها قبل أن تُوْزَنوا، وتهيَّئوا للعرض الأكبر، ﴿**يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ**﴾»[٢].

وقد جاء هذا المعنى في خمسة مواضع:

(١) أخرجه مسلم (٢٤٩٥) من حديث جابر ﷺ.

(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٣٠٦)، وابن أبي شيبة (٣٥٦٠٠)، وابن أبي الدنيا في محاسبة النفس (٢)، والآجري في أدب النفس (١٧)، وابن عساكر (٤٤/ ٣١٤، ٣٥٧)، وابن الجوزي في ذم الهوى (ص: ٤٠).

* ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾، فذَكَرَ الموازين، جمع ميزان، باعتبار أنَّ لكلِّ فرد ميزانًا، كما جاء في مواضعَ أخرى، ووَصَفَها بالقِسْط، يَعْني العدل التامَّ الْمُطْلق، ولذا أكَّد بقوله: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾، يعني: لا تُحَمَّل ما لم تعمل، ولكن لا يُغَادِر الميزانُ مِن عَمَلِها شيئًا أيضًا، ولذا عَقَّب بقوله سبحانه: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾.

* ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾.

* ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٠٢ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾.

* ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾.

وفي هذه المواضع ذَكَرَ الموازين الخاصَّة لكلِّ شخصٍ، وأنها تثقُل أو تطيش، وترتيب النجاة أو الهلاك على ثقل الموازين أو خِفَّتها.

* وفي موضع آخر يُشْبِهها قال سبحانه: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾، وليس المعنى أنَّهم لا توزن أعمالهم، بل الأقرب جمعًا بين الآيات، أن المراد أنَّ اللهَ لا يعبأ بهم، كما يقال في جاري اللغة: فلان ليس له وزن، يعني: لا قيمة له، فأعمالُهم تُوْزَن، ولكنَّها لا وزنَ لها يُذْكَر، كما جاء مِن حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه مرفوعًا:

«إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لاَ يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، اقْرَءُوا: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾»[1].

ب- قصة قوم شعيب وما وقعوا فيه مِن بَخْس الميزان والمكيال، وما حلَّ بهم مِن العقوبة، وهذا جاء في ثلاثة مواضع:

* ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

* ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

ويختلف الموضعان بأنَّه أَمَرَ بإيفاء الكيل والميزان في الموضع الأول، بينما في الموضع الثاني أَمَرَ بإيفاء المكيال والميزان بالقسط، ونهى عن ضِدِّه، وهو نقص المكيال والميزان.

* وقال: ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾.

ج - **الإشارة إلى الوزن والتوازن في الصنعة الإلهيَّة** في قوله سبحانه: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ﴾، الإشارة إلى الموازنة في الخلق بتَتَبُّع استدعاء الموازنة في الأمر، كما قال سبحانه: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾.

(١) أخرجه البخاري (٤٧٢٩)، ومسلم (٢٧٨٥).

د - **أَمْرُ الناس كافَّة بالعدل في الكيل والوزن**، والنهي عن البَخْس والتطفيف والإخسار، وهذا جاء في ثلاثة مواضع:

* ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

* ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾.

* ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾.

هـ - **ذكر الميزان بمعنى العدل في سائر الأشياء** الحسيّة والمعنويّة، الفرديّة والجماعيّة، وهذا جاء في ثلاثة مواضع:

* ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾، أي: أنزله مِن السماء.

فذكر الميزان هنا ثلاث مرات، وذكر الوزن، وذكر القسط، فعن مجاهد، في قوله: ﴿ وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴾ قال: العدل[١].

وعن قتادة، قوله: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ﴾: اعدل يا ابن آدم، كما تحبُّ أن يُعْدَلَ عليك، وأوفِ كما تحبُّ أن يُوفى لك، فإنَّ بالعدل صلاح الناس[٢].

وكان ابن عباس ﷺ يقول: «يا معشر المَوالِي، إنَّكم قد وُلِّيْتُم أمرين، بهما هَلَكَ مَن كان قبلَكم، هذا المكيال والميزان»[٣].

(١) تفسير مجاهد (٢/ ٦٣٩-٦٤٠)، وأخرجه ابن جرير (٢٢/ ١٤).
(٢) أخرجه ابن جرير (٢٢/ ١٤).
(٣) أخرجه ابن جرير (٢٢/ ١٤).

فهو سبحانه وَضَعَ الميزانَ، أي: شرع العدل وبيَّنه للناس، وحَبَّبه إليهم، ورَكَزه في فِطَرِهم، وجَعَلَ الشريعةَ قائمةً عليه، وأَمَرَ الناسَ به، ثم نهى عن الإفراط أو التفريط، وهما الطرفان، وأمر بالوَسَطِ وهو العدل، فقال: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ﴾؛ أي: لا تزيدوا وتتجاوزوا، وهذا حدُّ الإفراط، وقال: ﴿وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾، أي: تنقصوه، وهذا حدُّ التفريط، وأمر بالعدل الوسط، فقال: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾.

* ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾.

فذَكَرَ هنا إنزالَ الكتاب والميزان، وهو بمعنى وضعه، وهذا يُبَيِّن سِرَّ ارتباط الميزان في سورة الرحمن بالسماء: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾.

* ومثله في سورة الحديد: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾.

والسرُّ - والله أعلم - في جَمْعِ الكتاب والميزان: أنَّ المدار في التكليف على أمرين:

أحدهما: النقل الصحيح، وهو الكتاب، قال تعالى ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾.

والثاني: العقل الصريح، وهو الميزان ولا تكليف لغير العقلاء؛ فإنَّ المرء يُدْرِك الصواب والْحُجَّة والعدل بسَدَاد عقلِه، وهكذا دَرْكُ المصلحة فإنَّه بالعقل، كما يقول العزُّ بنُ عبد السلام في القواعد: «معظمُ مصالحِ الدنيا ومفاسدِها معروفةٌ بالعقل، وذلك مُعْظَمُ الشرائع»[1].

(١) قواعد الأحكام (١/ ٤).

ويقول أيضًا: «ومَن أراد المتناسبَ والمصالِحَ والمفاسدَ راجحهما ومرجوحهما، فليَعْرِضْ ذلك على عقلِه بتقدير أنَّ الشرعَ لم يَرِدْ، ثم يبني عليه الأحكام، فلا يكادُ حُكْمٌ منها يخرُج عن ذلك، إلا ما تَعَبَّد اللهُ به عبادَه، ولم يقفهم على مصلحتِه ومفسدتِه»[١].

وهذا يقود إلى شيء مِن الموازنة بين النصِّ والعقل، وهي معضلة تاريخيَّة ممتدَّةُ الجذورِ، ولكنَّ المرادَ تقريرُه أنَّ الشرعَ لم يأتِ بالـمُحَالات، ولا بما يخالِف النظرَ السليمَ، بل جاء وِفْقَ الميزان، وقد قال الإمام ابن تيمية: «الرسل صلوات الله وسلامُه عليهم تخبرُ بمحاراتِ العقولِ، لا تخبرُ بمحالاتِ العقولِ»[٢].

ولا تضادَّ أصلًا بين العقل والنقل، فلكلٍّ ميدانُه، ولكن المعركة التاريخيَّة أَلْقَت بظلالها على ميدان البحث الإسلاميِّ، وكادت أن تفرز الناس إلى مَن يُقَدِّمون العقلَ مطلقًا ويؤخِّرون النصَّ، أو مَن يتعاملون مع حرفيَّة النصِّ ويستخفُّون بالعقل، والأمرُ بحاجة إلى رويَّة، وإعمال لكلا الْحُجَّتين، فإنَّ اللهَ استشهدَ بالعقلِ في كتابه: ﴿**أَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾، فالعقل الصادق لا يُخْطِئ بدلالة هذه الآية؛ ولكنَّ الخطأَ يأتي مِن تَلَبُّس الهوى والشبهة، والله أعلم.

مع الآيات:

* إن المجموعة الأولى مِن الآيات الكريمة تشير إلى الوزن الأخرويِّ، وهذا مُؤَدَّاه أن الإنسان لا يخلو غالبًا مِن عيب أو نقص، ولكنَّ العبرة بما غَلَب عليه، ولذا تثقُل موازينُ أقوام، وتطيش موازينُ آخرين.

وهذه هي الموازنة، وعليها قام أَمْرُ الآخرة بحُكْمٍ إلهيٍّ عَدْلٍ لا يظلم أحدًا

(١) قواعد الأحكام (١/ ٨).

(٢) مجموع الفتاوى (١٧/ ٤٤٤).

شيئًا، ولو كان مثقال حَبَّة مِن خردل، وهو مُوْجِبٌ للموازنة في الكلام على الناس والْحُكْم عليهم، وعدم الْحَيْف أو الميل، أو محاصرة الناس بأخطائهم، فإن هذا مَسْلَكٌ وبيلٌ، ومنهجٌ مَرْذولٌ، يَنُمُّ عن قِلَّة التقوى، وعن الكِبْر الذي قال فيه ﷺ: «**الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ**»[١].

والعدل يقتضي ألا يجعلَ المرءُ نفسَه قاضيًا على الخلق، ولا أن يحاكِمَهم، وإذا ابتُلِيَ بذلك، وجب عليه أن يتحرَّى غايةَ العدلِ والإنصاف والضبط، وكما قال الشافعيُّ للمزني: يا أبا إبراهيم، اكسُ ألفاظَك[٢].

وكذلك الأمر في خَلْقِ الله وكونه، فإنه مبنيٌّ على الوزن والتوازن، كما في الآية الكريمة: ﴿**وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ**﴾، فالكون قائم على القسط والاعتدال والوزن، وهذا تجده في الأفلاك والهواء والماء والطعام والنبات وكلِّ شيء.

* وفي القسم الثالث مِن الآيات الكريمة الإشارة إلى أنَّ هذا المعنى هو شريعة الله التي بُعثَ بها أنبياؤه، فقد جاء شعيب يُحَذِّر قومَه بَخْسَ الكيل والوزن وظلم الناس: ﴿**وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ**﴾، ويُنْذِرهم عاقبة ذلك مِن الفساد الذي يضرب المجتمع، ويعمُّه بالظلم وإخسار الموازين.

* وفي القسم الرابع تأكيد الشريعة الخاتمة على ما جاء به المرسلون جميعًا، مِن إقامة القسط والميزان والمكيال، وتهديد المطفِّفين بالعذاب.

* وفي القسم الخامس تقرير قاعدة العدل العامَّة في كلِّ شيء، وأنَّها قرينة الكتاب الْمُنَزَّل، والتمييز بين الناس فيه.

(١) أخرجه مسلم (٩١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) انظر: فتح المغيث للسخاوي (١/ ٣٧١).

وكأنَّ هذه النصوص قسمت الناس بحسب الميزان إلى:

* فريق يعدِل ويُقسِط، وهم المقسطون، الذين أقاموا الوزن بالقسط، وفي السنة قولُ النبيِّ ﷺ: «**إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللهِ عَلَى مَنَابِرَ مِن نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا**»[١].

* وفريق يطغَون في الميزان، فيَقَعون في الإفراط، فيَبْغُون على الناس بغير الحقِّ، وأولئك لهم عذاب شديد.

* وفريق يُخْسِرون الميزانَ فيقعون في التفريط، فلا يَرْكَنون إلى حقٍّ، ولا ينتصرون مِن باطل.

* وفريق رابع لا يدينون بالميزان أصلًا، وإنما ميزانُهم هو ما قدروا عليه، وتمكَّنوا منه، فدينُهم ودَيْدَنُهم العدوان على الناس، وانتهاك حقوق الأفراد والجماعات والشعوب والأُمَم، وهؤلاء شَرَعَ اللهُ لعباده دعوتَهم ووَعْظَهم، وإقامةَ الْحُجَج عليهم، كما قال: ﴿**ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ**﴾، وقال: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ**﴾.

ثم مقاومتهم ودفعهم، كما يشير إليه قوله: ﴿**وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ**﴾.

إنَّ مُجْمَل هذه النصوص يؤكِّد أن العدلَ قيمةٌ عُظْمى قامت بها السموات والأرض، والدنيا والآخرة، وبُعِثَ بها الرسل، وأُنزلت بها الكتب، ولذا يجب تربية المؤمنين عليها في خاصِّ أمورِهم وعامِّها، حتى مع النفس، فلا

(١) أخرجه مسلم (١٨٢٧) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

يظلمُها، ومع الأهل والولد، ومع الأعداء المنابذين، وفي المادِّيَّات المكيلة أو الموزونة، وفي المسائل العلميَّة والمعنويَّة.

وليس المرء بقادر على تحقيق كمال العدل في ذلك إلا بعون مِن الله، ولكن عليه ألا يَرْكَن إلى الحال التي هو عليها، وألا يعتبِرَها تمامَ العدل ونهايته، بل يراجع أحكامَه وقناعاتِه وآراءه ومواقفه واجتهاداتِه، وِفْقَ مستجدَّات العلم والمعرفة لديه، ويصحِّحها وِفْقَ مُقْتَضيات الإيمان الحقِّ، ويُعَدِّلها وِفْق مُتَطَلِّبات الواقع ومتغيِّراته.

وما كان عدلًا في حال فقد لا يكون كذلك في كلِّ حال، وما كان ملائمًا بالأمس قد لا يكون كذلك اليوم.

ومن الموازنةِ: التوسُّطُ بين المسارعة لكلِّ جديد، وتَشَرُّب النقد، وضعف الثقة بما عليه المرء ومَن حوله، وبين الجمود والتحجُّر والتصلُّب على المألوف، والامتناع مِن التجديد والتصحيح والمراجعة؛ خشية انكسارِ الجاه، أو تفرُّق الأتباع.

وإذا تجاوزْنا لفظَ «الموازنة» إلى معناه، فإننا نجد الاعتبار المذكور في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾.

وقد أَخَذَ غيرُ واحدٍ مِن علماء الأصول مِن هذه الآية حكمَ القياس؛ لأنه لون مِن الاعتبار، أي: أخذ العبرة، فكما أنَّ العلَّة فيما وقع لهم مِن العقوبة هي

في سوء أعمالهم ومقاصدهم، فكذلك إذا وُجِدَت في غيرهم نَزَلَ بهم ما نزل بسابقيهم.

والقياس في حقيقته نوع مِن الموازنة، وإذا تحقَّق فيه العدل والوسط بلا طغيانٍ ولا إخسارٍ، بل الوزن بالقسط؛ كان صوابًا جاءت به الشريعة؛ لأنَّ العدلَ لا يُفَرِّق بين الـمُتَمَاثِلات، ولا يجمع بين المختلفات، بل يعطِي كلَّ ذي حقٍّ حقَّه.

وفي مواضع عديدة ذَكَرَ الله تعالى الموازنة بمعناها، وكأنَّ المقصود تعارُضَ أمرين في نظر المكلَّف فيختار أحسنَهما، كما في قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾، ﴿وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَا﴾، ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾، فإنَّ مِن دلالة النصِّ أن يكون الْمُكَلَّف بين خيارات عِدَّة، فيختار أمثلَها، مثل الكفَّارات التخييريَّة، أو المباحات المتعدِّدة، كالانتصار مِمَن ظَلَمَه، أو الصبر عليه، كما في قوله سبحانه لنبيِّه ﷺ: ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ﴾.

وقد جاء في الحديث الذي رواه البخاريُّ، عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه، أن النبيَّ ﷺ قال: «لَوْ أَعْلَمُ أَنِّي إِنْ زِدْتُ عَلَى السَّبْعِينَ يُغْفَرُ لَهُ لَزِدْتُ عَلَيْهَا»[1].

وما ورد فيه مِن اتباع الأحسن، فالأحسنية قد تكون مطلقة ودائمة، مثل الأعمال المتفاضلة، كالإيمان والإحسان والإسلام، فهي درجات أحسنُها الإحسان، ثم الإيمان، ثم الإسلام، ومثله قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾.

(١) صحيح البخاري (١٣٦٦).

وقد تكون الأحسنيَّة نسبيَّة مقيَّدة، تختلف بحسب الظرف والزمان والمكان والملابسات المختلفة، كما يكون الأحسن لقوم الاشتغال بالعلم، ولآخرين بالتجارة، ولسواهم بالدعوة.. وكما تتفاوت العلوم بحسب حاجة الناس إليها، وقدرة الفرد على اكتسابها ومعرفتها وتطويرها وتوظيفها.

سابعًا: أنواع الموازنات:

١- الموازنة بين المصالح عند تعارضها، وعدم إمكان تحصيلها معًا، فيختار الفرد أو المجتمع أرجحَها وأفضلَها، وقد حكى ابن تيمية الإجماع على أنَّ الشريعة جاءت لتحصيل المصالح وتكميلها، وتقليل المفاسد وتعطيلها، فيختار أحسن الحسنتين، قيل: ليس الفقيه مَن يعرف الخير مِن الشرِّ، لكن الفقيه مَن يعرف خيرَ الخيرين وشرَّ الشرَّين[1].

إنَّ مِن الموازنة بين المصالح الاشتغالَ بالقضايا الكبار التي عليها مدارُ صلاح الأُمَّة في دينها ودنياها، والاقتصاد في المسائل الفرعيَّة والجزئيَّة والتفصيليَّة دون إيغال فيها أو إلحاح عليها، فكم سَبَّبت مِن فرقة، وأزالت مِن وحدة، وصنعت مِن تحزُّب، وأهدرت مِن أوقات، وعَوَّقت عما هو أهمُّ منها وألزم.

وقد تجد المَفْتونَ بها يقول: لا مانع من أن نهتمَّ بهذا وبهذا! وكأنَّه نَسِيَ تَعَذُّر الجمع بين المصالح كلِّها، وأنَّ الوقت والقوة العقليَّة والنفسيَّة والبدنيَّة، لا تُسْعِف بمثل هذا..

تقبل أن يوجد في قرن ما حول مسائل فرعية ما يستوعب المسألة ويستقصيها، ولتكن مثلًا الصلاة في النعل؛ لكن أن يعاد إنتاج هذا البحث

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٢٠/ ٥٤).

ذاته وطَرْقه وتحريره وعرضه، والجدل والخلاف حوله، ويكون مثارًا للفرقة ومقصدًا للتصنيف، ومعيارًا للاتباع، ويطغى حتى على روح الصلاة ولُبِّها وهو الخشوع، فتتحوَّل العبادة إلى أداة للمنافَرة والتغاير..؛ فهذا يعود على الأصل المقصود بالإضعاف، والله المستعان!

٢- الموازنة بين المفاسد إذا لم يمكن دَفْعُها جميعًا، فيُدفَع أعلاها بارتكاب أخفِّها، وارتكاب أخفّ الضررين حينئذٍ لا يكون منهيًّا عنه، بل مباحًا أو واجبًا، وقد علم الله أن الفساد يقع في أحوال الناس كثيرًا، حتى في العصور الفاضلة، وأوقات الرسالة، وأن المرء قد يكون أمام خيارات كلها سيِّئة في موقفٍ ما، فالرشْدُ حينئذٍ أن يختار أخفَّها؛ دَفْعًا لأعلاها، وهذه أدنى المفسدتين، أو أقلُّ الشرّين.

ويقع هذا في أمور العبادات والطهارات، والمعاملات، والعلاقات مع الصديق ومع العدو، فإن الحياة الإنسانية تتفاوت في القوة والضعف، والصحَّة والمرض، والغِنى والفقر، والجوع والشِّبع، وقد يصل المرء أو المجتمع إلى حالٍ مِن الضرورة.

وإذا كانت الضرورة الحسيَّة ظاهرة كأَكْلِ لحم الميتة ـ وهو خير مِن الموت جوعًا ـ فإن ثَمَّت ضرورات معنويَّة ينبغي مراعاتها وبحثها؛ لترشيد المسيرة الإسلاميَّة.

وقد ذكر ابن القيم[1] مثالًا لذلك، وهو التقليد وأَخْذُ قولِ الفقيه أو العالم بدون حجَّة، واعتبره جائزًا عند الضرورة كأكل لحم الميتة.

وربما غلب هذا الأمر الطارئ حتى صار شيئًا مستقرًّا عند عامَّة الناس، لا يقدرون على غيره، ولا يطيقون سواه.

(١) انظر: أعلام الموقعين (٢/ ٢٦٠).

وكم من المسائل التي أصبحت في حكم الضرورة في حياة الناس اليوم بسبب متغيِّرات العصر، فنحتاج أن يتفطَّن لها الفقهاء، ويُوْلُوها حقَّها من البحث.

وكأن هذه القاعدة تتحدَّث عما يسمِّيه المحلِّلون: «أقلَّ الخسائر»!

٣ - الموازنة بين المصالح والمفاسد، بمعنى: ألا يمكن تحصيلُ مصلحة إلا بمفسدة تقارنها، أو لا يمكن دَفْعُ مفسدة إلا بتفويت مصلحة، وحينئذٍ يظنُّ البعض أن دَفْعَ المفاسد مُقَدَّمٌ على جلب المصالح، وهذا ليس بسديد، وإنما القاعدة هي رعاية الأعظم منهما، فإذا كانت المصلحة أعظم وجب تحصيلها، ولو بمفسدة أخفَّ، وإذا كانت المفسدة أعظم وَجَبَ دفعُها، ولو بفوات مصلحة أقلَّ.

وإنما يكون دَفْعُ المفسدة مُقَدَّمًا على جلب المصلحة إذا كانتا متساويتين في نظر الفقيه أو المُكَلَّف.

وإلَّا فإنَّ مِن المعلوم أن المصالح لا تخلو من مفاسد مغمورة غالبًا، ولكن لا يُلْتَفَتُ إليها؛ لأن الميزان يقتضي رجحان المصلحة.

وفي هذه القاعدة تحويل الأزمات إلى فُرص، بالسعي الجادِّ لتعظيم المصالح وحسن استثمارها، وعزل المفاسد ومحاصرتها، ومِن ذلك استحقاقاتُ العولمة في جوانبها الاقتصاديَّة والسياسيَّة والثقافيَّة والاجتماعيَّة، فإن الجهد البشريَّ الصادق قادر بإذن الله وعونه على تعظيم المصالح ورعايتها ودَعْمِها والاجتماع عليها، وحصار المفاسد وملاحقتها؛ خاصَّة إذا استطاع القادرون وأصحاب النفوذ وقادة الفكر والرأي توحيدَ مواقفِهم، وتنسيقَ جهودهِم، وتفعيلَ التعاونِ بينهم في المجالات المختلفة.

ومثل ذلك: الحروب والأزمات، فإنَّ رعاية الموازنة بين المصلحة والمفسدة تبدو شيئًا ضروريًّا.

ولا شيء يعدِل السلامةَ من الحرب، فالعقلاءُ يُثَمِّنون فترة السلام، وما تثمره من استقرار للنفوس، ونماء للاقتصاد، واستعداد للنهوض، وتطوير للأداء، وتوجُّهٍ نحو خطط البناء والتنمية في المجتمعات، ولذا فالواجب عليهم أن يتحالفوا ضد الحرب، وأن يوصلوا صوتَهم إلى القوى المؤثِّرة في الفرق المتصارعة، ويحاولوا ألا يستفرد أهل الحماسة الرعناء بالقرار الذي سيصل أثره إلى الجميع.

وإذا غلبوا ووقعت الواقعة.. جاء دور رعاية الموازنة في التكيُّف والتعامل مع الحدث الطارئ، وفْقَ قواعد المصلحة والمفسدة.

ومن الموازنة بين المصالح والمفاسد: توسُّطُ النظر، وتعميقُ الإيجابيةِ، بدلًا من الاعتياد على النظرة السلبيَّة للأشياء والأحداث والمتغيِّرات.

وكأنَّ بعضَ الخلق اعتادوا على ما هو موجود وقائم، وصار عندهم بمثابة الأصل المُسَلَّم، وصار كلُّ طارئ عليه مذمومًا، واعتاد الناس إذا قارنوا الأمس باليوم أن يمتدحوا الأمس، ويذمُّوا اليوم، ويتخوَّفوا من الغد!

إن القراءة السليمة للأحداث والأوضاع تخفِّفُ مِن احتدام الضغط النفسيِّ عند الإنسان، وتُبْعِد عنه الروح الغضبيَّة، وتجعلُه أكثرَ قدرةً على استيعاب الواقع وفَهمه، والتعامل الصادق معه.

ثَمَّت أشياء يمكن أن تنظر إليها بتشاؤم، وكأنها نهاية التاريخ، وتكتفي بالحوقلة والاسترجاع، ولو أنك سمحْت للأمل والاعتدال والتفاؤل أن تَهُبَّ

على صدرك، وأن تتخلَّل عقلَك؛ لوجدت فيها جوانب عديدة من الخير.

حتى المصائب التي لا يد للمرء في دَفْعِها، يمكن أن يُنْظَر إليها بنظرة التفاؤل، ويستحضر حديث المصطفى ﷺ: «**عَجَبًا لأَمْرِ المُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**»(١).

حين تنظر إلى امتزاج المسلمين بغيرهم، تجد أثرًا سلبيًّا -ولا بدّ- مما أخذوه عنهم من انحراف في السلوك أو الْخُلُق، أو ما شابه؛ ولكن يجب ألا تتوقَف النظرة عند هذا الحدِّ، فانظر إلى ما أفاده المسلمون للآخرين من إيمان أو دعوة أو تأثير، أو ما استفادوه مِن عِلْمٍ وضَبْطٍ وإتقان وتجويد، مما هو من مصالح الحياة الدنيا.

وحين تنظر إلى أزمة أو كارثة أو حرب، وتكتفي بأثرِها السلبيِّ، تكون قرأتَ وجهًا واحدًا، هو فعلًا مُؤْذٍ ومُرٌّ ومثير للأحزان.

فلِمَ لا تداوي هذا الحزنَ بجُرعة من التفاؤل، فتستطلع بعض إيجابيَّات الأزمة وآثارها البعيدة، والتي هي جزء من مفهوم الحكمة الإلهيَّة.

فليكن إيمانك بحكمة الله وعَدْلِه ورحمته، أعظمَ من إيمانك بنظرتك وتحليلك وموقفك، فتبارك الله الخالق الحكيم الرحيم.

٤- الواجب الأصليِّ والواجب الظرفيِّ: وهذا يخضع للموازنة، فثَمَّت واجبات شرعيَّة يحول دونها ما هو أوجبُ منها، أو يحول دونها مَفْسدة أعظم منها، فتصبح بهذا غيرَ واجبة.

(١) أخرجه مسلم (٢٩٩٩) من حديث صهيب رضي الله عنه.

ومِن ذلك: تركُ النبيِّ ﷺ بناءَ الكعبة على قواعد إبراهيم؛ خشية أن تُنْكِرَ قلوبُ قريشٍ آنذاك[١]، ولا يزال الأمر إلى اليوم على ما هو عليه، مما يدلُّ على أن بعض الواجبات قد لا يتحقَّق أبدًا.

وكذا: تَرْكُ قَتْلِ عبدِ الله بنِ أُبَيٍّ وبعضِ المنافقين، خاصَّة الذين ظَهَرَ نفاقُهم، وثَبَتَتْ إدانتُهم، واعتذر ﷺ عن قَتْلِهم؛ خشيةَ أن يتحدَّث الناس أن محمدًا ﷺ يقتل أصحابه[٢].

وهذا معناه التيقُّظ للحملات الإعلاميَّة، وأنه ليس من الضعف أو الهزيمة تجنُّب ما يكون ذريعة لحملات تطال الإسلامَ وأهلَه أو بعضَهم، بل هذا عين الحكمة والصواب.

٥- فقه الاستطاعة، وهو جزء من الموازنة، فإن الاستطاعةَ قد تكون بمعنى القدرة البدنيَّة، وهذا ظاهر: «**صَلِّ قائمًا، فإن لم تستطع فقاعدًا، فإن لم تستطع فعلى جنب**»[٣].

ولكن استطاعة المجتمعات أمرٌ وراء ذلك، فهي لا تُقاس بالمعنى الماديِّ، بل أثرها المعنويّ أعظم.

وقد يستطيع فرد أن يعمل شيئًا، ولكن يترتَّب عليه ضرر أعظم، فهو هنا ليس بمستطيع بالمفهوم الشرعيِّ، كما في قوله ﷺ: «**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ**»[٤].

(١) أخرجه البخاري (١٥٨٤)، ومسلم (١٣٣٣) من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٢) أخرجه البخاري (٤٩٠٥)، ومسلم (٢٥٨٤) من حديث جابر رضي الله عنه.
(٣) أخرجه البخاري (١١١٧)، من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.
(٤) أخرجه مسلم (٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

والتغيير جملة يحتاج إلى حكمة ورَوِيَّة ومعرفة بالسنن، وإذا حُمل الناس على ما يَشُقُّ عليهم أو يُعْنِتَهم، أو ما لا يقتنعون به، أفضى ذلك إلى الفساد العريض، وهذا ما اعتذر به عمر بن عبد العزيز[١] حين طالبَه ابنه بالإسراع في الإصلاح في حركته السياسيَّة..

وبناء على هذين الأمرين: فإنَّ الحديث عن شعار «الإسلام هو الحل»، يحتاج إلى تفصيل.

فهي حقيقة لا شكَ فيها؛ لكن يُعلم أن تطبيقَ تفصيلات الشريعة لا يكون إلا بتأهُّل الناس لذلك، وتربيتِهم عليه، واستعدادِهم النفسيِّ والاجتماعيِّ والاقتصاديِّ لتَبِعَاته.

ويجب مراعاة أنَّ الناس على أصل الإسلام، ومِن الإسلام خيرٌ كثيرٌ موجود وقائم بينهم، فلا يُفْهَم من هذا الشعار أنَّ الإسلام مُغَيَّبٌ عن واقع الحياة.

وقد يُفضي تكرار اللفظ إلى الشعور بأننا نملك وصفة جاهزة لإصلاح كلِّ الأشياء، بينما منهج الإسلام ذاتُه هو إصلاح متوازن متدرِّج، يُفضي بعضُه إلى بعض، ولا ينفصل عن استحقاقات الواقع، كما في قوله ﷺ لمعاذ رضي الله عنه: «**إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِذَا عَرَفُوا اللَّهَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا فَعَلُوا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً تُؤْخَذُ مِن أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِذَا أَطَاعُوا بِهَا فَخُذْ مِنْهُمْ، وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ**»، متفق عليه[٢].

(١) انظر: طبقات ابن سعد (٥/ ٣٨٠)، وتاريخ دمشق (٣٦/ ١٢١).

(٢) صحيح البخاري (١٤٥٨)، وصحيح مسلم (١٩) واللفظ له من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

مع أهميَّة إدراك ألا يُفضي هذا الاستخدام إلى الشعور باحتكار أو خصخصة لمفهوم التديُّن، فالإسلام حقٌّ مُشترَك لكلِّ مُنْتحليه، وإنْ كان الله تعالى فضَّل بعضهم على بعض.

مع التفريق بين ما هو شريعة مَحْضَة لا خلاف عليها، ولا يَسَعُ أحدًا من المسلمين التشكيك فيها، وبين ما هو مَحَلُّ اجتهاد وخلاف بين العلماء، ومع التفريق بين الواجب الظرفيِّ والواجب الأصليِّ، كما بيَّنَّا.

ومع التفريق بين المطلب الإيمانيِّ، والواقع البشريِّ، فإن الناس جُبِلوا على الخطأ، وفي التطبيق النبويِّ ثم الراشديِّ حصل لبعض الناس تقصير أو اختلاف أو تردُّد، مما يُوجِب النظرة الواقعيَّة المتأنية، والتي تصنع القناعة لدى المصلحين أنَّ المجتمعات لا يمكن عسفها على ما يُعْتَقَد أنَّه الأفضل، وإنَّما الإصلاح الحقُّ هو معرفة حال المجتمع أوَّلًا، ومعرفة ما يمكن أن يتقبَّله من الإصلاح ثانيًا، ووَضْع خُطَّة الإصلاح على هذا الأساس.

مع رعاية اختلاف المصلحين أنفسهم في مناهجهم وطرائقهم ومداركهم.

ومن الموازنةِ: الاقتصادُ في الجدل بينهم، فلا تُلغَى تحت ذريعة إظهار الوحدة المنهجيَّة، ولا يطور ليتحوَّل إلى تراشُق واتهام وتعويق لمسيرة العمل الجادِّ.

إنَّ باب معرفة الأصلح والأرجح والأفضل، مِن حيثُ الوجوه جميعها أو أكثرها.. مما تختلف فيه الأنظار بحسب اعتبارات عِدَّة، منها:

أ ـ علم الشريعة: فإنَّ علم الكتاب والسنة بصيرة ونور يَهْتدِي بها الفقيه في ظلمات النوازل والملتبسات.

ب ـ **معرفة الواقع**: فإنَّ الحكم على الشيء فرع عن تصوُّره، وإدراك تداخل المسائل وترابطها ومآلاتها ونتائجها، مما يحتاج إليه المجتهدُ.

جـ ـ **التجربة والخبرة**: فإنَّ العلوم على الورق شيء، وفي محكِّ الحياة العمليَّة شيء آخر.

د ـ **سعة الإدارك والتفكير**: فإنَّ الناس متفاوتون في عقولهم الفطريَّة الغريزيَّة، ومتفاوتون في طريقة البحث والتفكير والنظر، ومتفاوتون في حجم العلوم والمعارف المتوفِّرة لديهم.

هـ ـ كمال التجرُّد أو الوقوع تحت ضغط أو تأثير خاصٍّ أو عامٍّ.

قال سبحانه: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

٦- باب الذرائع، أعني الموازنة بين إغلاق الذريعة تجنُّبًا للمَفْسدة، وبين فَتْحِها تحصيلًا للمصلحة: وبعض الغيورين يُتقِنون سدَّ الذريعة أكثر مما يُتْقِنون فَتَحَها، أي أنَّهم يُعْمِلون مبدأ الخوف أكثر مما يُعْمِلون مبدأ الثقة، وهذا دليل ضعف، فإنَّ الخوف علامة ضعف إذا غَلَب وتجاوز حدَّه.

ولا يصلح أن يقع الفقيه أسيرًا للمجتمع، فهو يتردَّد أو يُحْجِم حتى يرى الناس قد أقدموا، فإذا رأى الأمر استقرَّ وتعارف عليه الناس تقبَّله وسكت عنه.

إن الفقيه يجب أن يكون في الصفوف الأولى فَهْمًا وإدراكًا وشجاعة، مع رعاية جانب ما يحتمله الناس ولا يحتملونه، كما قال عليٌّ رضي الله عنه: «حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ»[1].

(١) أخرجه البخاري (١٢٧).

إن مِن الموازنات المهمة الاعتدالَ في النظر بين إزالة ما هو موجود من الأخطاء العقديَّة أو الفكرية أو السلوكيَّة التي أفرزت حالة التخلُّف، أو أفرزتها حالة التخلُّف الإسلاميِّ، ولا سبيل للنهوض إلا بدحضها وإبعادها وتحرير الشخصيَّة الإسلاميَّة والعقل المسلم منها.. هذا من جانب..

وبين ضرورة الحفاظ على السكينة عند الناس وطول النَّفَس من جانب آخر؛ لئلا يُغَرِّد المصلح أو الداعية في السرب وحده، ويبتعد عن الناس، الذين هم مَحَلُّ التأثير.

وهذا فِقْهٌ دقيقٌ يحتاج إلى شُمُوليَّةِ النظرةِ، فليس المقصود بالناس هم خصوص الفئة المحيطة بك، ولكن عموم المستهدَفِين بالإصلاح.

والحراك العمليُّ يمنح الداعيةَ خبرةً أفضل في كيفية التعاطي الرشيد مع هذه المسألة؛ لئلا يقع في مقابل هذا في فخِّ الأسر للجماهير، ويصدق عليه المثل: أنا قائدُكم فدُلُّوني على الطريق!

٧ - فقه المقادير، وهو من أعظم صور الموازنة، وهو يكون فيما وردت فيه نصوص شرعيَّة بالأمر به، أو النهي عنه، أو فيما تقتضي المصلحة فِعْلَه أو تَرْكَه؛ ولكن يوجد ضمن هذا التشريع أو المصلحة درجات: فهناك الركن، والواجب، والشرط، والمستحَب، وهناك ما يخصُّ الفردَ، وما يخصُّ الجماعةَ.

وفي المنهيات: هناك الشرك، ودونه الكبائر والـمُوبِقات، ودونها الذنوب، ودون ذلك الصغائر، ثم اللَّمَم، ثم المكروهات.

وفي التنزيل: ﴿**قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا**﴾.

وبعض الصالحين يميلون مع شيء تهواه نفوسهم، وهذا بحدِّ ذاته لا تثريب فيه؛ ولكنَّ التثريب أن يتحوَّل هذا الميل إلى نوع مِن التشريع، والمطالبة للناس

بمثل هذا، وتغليب بعض الفروع أو المطالب المتأخِّرة في رُتْبَتِها عما هو أمثل وأفضل منها..

ومِن التربية وضع الأشياء وِفْقَ مقاديرها، ولعلَّ رَبْطَ المتعلمين بالقرآن الكريم وفَهْمِه وتَدَبُّرِه مما يضبط لديهم المعيار، فيُعَظِّمون ما عَظَّم اللهُ، ويعتنون بما تكرَّر ورودُه في التنزيل، ويضعون الأشياء التي تجري مجرى اهتمام الناس بها لسبب غير موضوعيٍّ في موضعها، فلا يقع الإهمال ولا الطغيان، وهذا جزء مِن مفهوم قولِه سبحانه وتعالى: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾.

٨ - موازنة نفسيَّة، من الجيِّد لك أنْ تحاول الاسترخاء، والتأمُّل قليلًا في هذه الحياة، وأنْ تبتهج بأحداثها ومعادلاتها؛ حتى لو استدعى ذلك أن تعود قليلًا للوراء خطوة أو خطوتين..

يقول الله جل وعلا: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾.

ليس خطأ أن تُجَرِّب الابتعادَ عن روتينك اليوميِّ المكرور، مِن أجل تفعيل اهتمامات جديدة وتنشيطها؛ لتعود عليك بالهدوء النفسيِّ، والاندماج العاطفيِّ مع ما حولك، ومَن حولك، حتى وإن كانت حديقةً صغيرة تضِجُّ بالحياة والتجدُّد، أو قطرات ندى تتساقط على ورقة، أو نغمات عصفور يُغَرِّد في الصباح، وهو يستقبل يومًا جديدًا مُشْرِق الألوان، أو كلمات بائع متفائل يستقبل الحياة برضا وثقة وتوكُّل على رازق الحيَّات في جحورها والطيور في وكورها.

وليكن بمقدورك أن تفهم إشارات جسدك واحتجاجاته، وصرخات

شراييك، وهي تنادي بالحذر من الإرهاق والعناء، يقول المولى سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾، ويقول جلَّ وعلا: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾.

فلا تُنْهِكْ ذاتك، ولا تحمِّلْها ما لا تطيق؛ فإن لجسدِك عليك حقًّا، ولنفسِك عليك حقًّا.

إنّ قالَبَ البشريَّة أكثرُ استيعابًا وأريحيَّة لأجسادِنا وعقولِنا مِن تلك الطموحات الملائكيَّة، والأحلام الخياليَّة؛ فالقاعدة أكثر ثباتًا وأينع ثمرةً من الاستثناءات.

ويحسن أن تترُكَ في عقلِك ساحةً خاليةً؛ تحسُّبًا لما لا يُتوقَّع؛ فقد يفيدك هذا في وقت ما..

ولتكن مستعدًّا لقبول العقبات التي تواجهك؛ إذ لا بدَّ منها لكلِّ سائر في الطريق، أي: لكلِّ حيٍّ.

إن النجاح الممتع هو ذاك الذي يجعل بمقدورك أن ترى فيما تحصل عليه أفضل ما في الحياة، فتمنح نفسَك حمايةً داخليَّة مما قد يمنعه عنك المستقبل الغامض.

وإنَّ ذلك لكفيلٌ بأنْ يُضْفِي عليك هالةً جميلة تضيء لأناس قد لا تشعر بهم أبدًا، وهم يسيرون خلفك، أو في رِكابِك، أو يقتبسون من نورك.

دعْ عنك جَذْبَ النفس ودَفْعَها مِن الاندماج مع مَن هم دون مستواك؛ فلكلٍّ منَّا سماتٌ خاصَّة يتفرَّد بها، وهي التي تميِّزه عن سائر الناس، وبالتالي قد تقتبس أنت مِمَّن هم دونك وَهَجًا يمنح ملامحَك نَسَمَاتٍ روحانيَّة، أو يوقِد لك النارَ التي تُشْعِل مصابيحَك، وكم هو حيٌّ ومؤثِّر أن تظَلَّ متعلِّمًا في جميع أطوارِك دون ترفع ولا كبرياء!

لست بحاجة إلى أن تقضِيَ حياتَك في خطوات سريعة متلاحقة، أو في استقصاء مُجْهِد لتشعُّبات الحياة وصورها ومعانيها.

إن قليلًا من الفطرة التلقائية يمنَحُك كمًّا يفوق الوصف من المعاني والدروس، وهكذا هي الحياة تغدو سهلة ليِّنة سمحة، حين نتعاطاها بروح العفويَّة.

ولو تفكَّرتَ.. لوجدتَ أنَّ إطالة التأمُّل والنظر والْحَيْرة أكثر من اللازم، قد تَحِيد بك عن المعنى الصحيح إلى المعنى الخاطئ.

آمِنْ بأنَّ الحياةَ لغز ممتع، وزِدْ إيمانَك صلابةً بأنَّ أيَّ حدثٍ سيِّئ سيبزُغ منه حدثٌ إيجابيٌّ متى ما كنتَ صبورًا ومستعدًّا لمواصلة الهدوء والمرابطة.

ليس عليك أن تكون ساذجًا لتمرَّ من خلالك السلبيَّات وتجتازك، بل الحقُّ أنَّ أكبرَ السلبيَّاتِ هي اعتقادُك بأنَّك يمكن أن تمرَّ عبر دروب الحياة دون أن تتعرَّض لهزَّات، أو تواجه مرتفعاتٍ حينًا، ومنخفضاتٍ حينًا آخر..

دواؤُك فِيكَ ومَا تَشْعُرُ ... وداؤكَ مِنْكَ ومَا تُبْصِرُ

وتحسَبُ أنَّكَ جرْمٌ صَغيرٌ ... وفِيْكَ انْطَوى العَالَمُ الأكْبَرُ

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿**مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ**﴾.

ويقول رسول الله ﷺ: «**عَجَبًا لأَمْرِ المؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**»[1].

(١) أخرجه مسلم (٢٩٩٩) من حديث صهيب رضي الله عنه.

ويقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾.

٩- التوازن في الوقت، الوصول لنقطة التوازن لا يتم غالبًا إلَّا بتدرُّج وتكرار، مع إرادة التصحيح والوصول للأفضل والأحسن، وهذا يقع ضِمْن إطار الشريعة، بالإسلام، ثم الإيمان، ثم الإحسان، مع مدرك أن الإحسانَ نفسَه رُتَبٌ ومقاماتٌ؛ فأهلُه يتفاضلون، وفي الصحيح: «**إِنَّ فِي الجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**»[1].

من التوازن في الوقت: رعاية التوسُّط بين الْجِدِّ الدائم والعمل الدؤوب، وبين الفراغ وقلَّة الشغل؛ فالإنسان يكتسب أهميَّته بالإنجاز، وإذا مرَّ عليه ساعة أنجز فيها اتصالًا مهمًّا، وكَتَبَ مقالةً، وعقَد صفقةً، وحلَّ مشكلةً، وزار ذا حقٍّ.. شعر بالفرح والغِبْطة.

بينما ساعة تمضي دون عمل أو إنجاز، يتلوها أخرى.. فإنك تشعر بالـمَهَانة وضعف الأهميَّة، وضياع الوقت والفرصة، إلَّا أن تكون هذه الساعة مبرمَجة ضمن جدول مقصود مُعتمَد.

إذا تكرَّرتِ الأيامُ وهي متشابهة، لا حياةَ فيها ولا تجديد، مَلَّها الإنسانُ، وضَجِرَ بها ومنها، وقديمًا كان الشيوخ يعلنون ذلك:

قالوا أَنِينُكَ طولَ الليلِ يُقْلِقُنا ... فما الذي تشتكي قلتُ الثمانينا

ويقول زُهير بن أبي سلمى:

سَئِمتُ تكاليفَ الحَياةِ وَمَن يَعِشْ ... ثَمانيـنَ حَـولًا لا أَبـا لَـكَ يَسـأَمِ

(١) أخرجه البخاري (٢٧٩٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ذلك الأسبوع الذي مرَّ هادئًا رخوًا لا إنجاز فيه، ولا عَمَلَ مُجْدِيًا.. يصيب النفسَ بالعلل، ويُحدِث للقلب انتكاسة؛ لكن في الأسبوع الذي يليه، تُفاجَأ بكَمٍّ كبير من الأعمال التي هجمت عليك، ولا تدري من أين جاءت؟!

أفراد عديدون يطلبونك للاتصال، وارتباطات مُلْزِمة حلَّت عليك دفعةً واحدة، ومواعيد عائلية، وبرنامج شخصيٌّ، وسفر طارئ، وأحد الأطفال يحتاج المستشفى، رُكام من الانشغالات.. منها العاجل، ومنها الضروريُّ، ومنها المُهِمُّ، ومنها الأقلُّ أهميَّة..

يتحدَّث علماء العصر عن رباعيَّة، هي كالتالي:

١- عاجل ومُهِمٌّ.

٢- عاجل غير مُهِمٌّ.

٣- مُهِمٌّ غير عاجل.

٤- غير مُهِمٌّ وغير عاجل.

وقد وجدْتُ في كلام ابن القيِّم رحمه الله[١] نصًّا على هذه الأربع، بَيْد أنَّ الحياةَ وسياقَها ليست عملًا رياضيًّا.. بل هي خليط من: الْهِمَّة العالية التي تسترخي حينًا، والعادة المؤثِّرة التي يتميَّز بها فردٌ اعتاد على الْجِدِّ، وآخر لا يحبُّ الانضباط ولا يحتمله إلَّا لمامًا، ومن الْمِزاج النفسيِّ الذي يُؤَثِّر في الاختيار.. فالإنسان المجامل يفضِّل أن يعملَ الأشياء التي يلِحُّ عليها مَن حوله ولو كانت أقلَّ ضرورة، وآخر يفضِّل الأشياء العلميَّة المعرفيَّة التي لها بقاء وخلود طويل، وثالث يميل إلى الأعمال التي فيها نفع للناس، كالشفاعات

(١) انظر: الجواب الكافي (ص: ١٠٨).

والسعي في الخير وتقديم النصح والمشورة، ورابع يكرِّس وقتَه وجهدَه لكلِّ ما يخصُّ العائلة، ثم الأسرة.

يجب أن يكون للإنسان هدفٌ يسعَى إليه، فمن دون هدف تضيع الحياة، وتفقد وهَجَهَا، ولا يدري المرء: أمُتحرِّكٌ هو أم واقفٌ؟! مفيدٌ أم غير مفيد؟!

فالهدف هو المقصد الذي تتحرَّك إليه، وتبحث عن أفضل وأسرعِ السبل لتحقيقه.

وعليه أن يقيس حياته بحجم الإنجاز والأثر الذي يتركه على ما حوله، ومَن حوله، فإنما:

يُراد الفتى كيـما يضـرُّ وينفع!

فتًى تـمَّ فيـه مـا يَسُـرُّ صديقَـه علـى أنَّ فيـه مـا يسـوءُ الأعاديـا

لا يكفي شعورك بأنَّك مشغول فقط! فقد تكون مشغولًا بالفراغ والجعجعة والْهَذَر الذي تردِّده وتكرِّره، والمعارك الهوائية التي تفرُغ من واحدة منها لتنهمك بأخرى، وفي انتظار الأزمات الغريبة أو البعيدة حتى تُبْلي فيها بلاءً حسنًا، وحينئذٍ فأنت جزء من الأزمة؛ لأنك تضخُّ فيها أكثر مما يجب، وكأنك تنتقم لنفسك من نفسك، وتعوض عن العجز والفراغ، ونزر الفاعليَّة، وقلَّة الإنتاجيَّة التي تطوِّق حياتك، وتستنزف عُمُرَك.

هذه هي «البطالة الـمُقَنَّعة»، حين تشعر أنك مشغولٌ، لا وقت لديك لتحُكَّ رأسَك، بينما لم تجد وقتًا لتفكِّرَ في شغلك: أحقيقة هو أم وَهْمٌ؟ جِدٌّ أم هَزْل؟ هل يستحقُّ هذا الوقتَ وهذا الجهدَ؟

يقول الله جلَّ وعلا: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾. ويقول سبحانه: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَلَهُمْ﴾، ويقول تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾.

يبقى أن المهم هو: البرنامج العام الذي يحكم وقت الـمُكَلَّف وحياته ويُسيِّرها، وما يجب أن يكون عليه من التوازن بين الشغل الدائب والاسترخاء، وما بين الإنجاز والاستراحة، أما مفردات الحياة اليوميَّة فغير قابلة للانضباط في غالب الأحوال، وقد تتزاحم الأشغال حينًا حتى تُحْدِث التوتُّر، وتقِلُّ حينًا حتى يضيق المرء بالوقت..

وإن كان من الناس مَن استطاع أن ينظِّم وقتَه بدقَّة تامَّة، وأن يحدِّد لكلِّ ساعة عملَها، ولكلِّ عَمَلٍ بَدْءه ونهايته، وأن يلتزم بذلك، فهذا يمكن تسميته بـ «الساعة»، بخلاف «البوصلة»، التي هدفها الوصول إلى المقصِد.. وإن لم ينضبط الوقت.

ويلحق بهذا: التوازنُ بين الإتقان والكثرة، أو الكمِّ والكيف، وفي مُحْكَم التنزيل: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، فقدَّم الجودة والإتقان والإحسان، واعتبرها المعيار، وهذا ما انتهى إليه العلمُ الحديثُ.

بَيْدَ أنَّ هذا لا يَعني إلغاءَ الكمِّ، فإذا أمكن تحقيق الجودة مع كمٍّ أكبر من الإنتاج والإنجاز، كان خيرًا وأفضلَ، وإلَّا فالجودةُ مقدَّمَة.

١٠ – فقه الحقوق، وباب الحقوق جملة مِن ضروريات الشريعة وضروريات الحياة، ويصحُّ أن يُقال: إنَّ الشريعة كلَّها جاءت لضبط الحقوق ورعايتها..

وقد بدأت الوصيَّةُ بها في أول سورة (اقْرَأْ)، التي أرست حقَّ العبادة والإيمان، قال الله جلَّ وعلا: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾.

وانتهت بها في خطبة الوداع، في وصيَّة النبيِّ ﷺ بالنساء، والأموال، والدماء، وغير ذلك.

ومن العيب الظنُّ بأنَّ باب الحقوق مُنْتَج غربيٌّ، وخصوصيَّة أوروبيَّة، بل هي بضاعتُنا رُدَّت إلينا، ونحن أحقُّ بها وأهلُها.

وفي باب الموازنات يَقَع التنازعُ بين الحقوق والواجبات؛ فمِن عادة الإنسان أن يطالِب بحقِّه، وينسى واجبَه، ويعتني بالخطأ الواقع عليه، ولا يعتني بالخطأ الواقع منه، و«**يُبْصِرُ أحدُكم القذاةَ في عينِ أخيه، وينسى الْجِذْعَ في عينِه**»[(١)].

ومن ذلك:

- حقوق الزوجين وواجباتهما.
- وحقوق الآباء والأبناء وواجباتهم.
- وحقوق الجيران.
- وحقوق الـمُوَظَّف والمسؤول.
- وحقوق الحاكم والمحكوم.

وقد قضت السنَّة الإلهيَّة أنَّها مترابطة؛ فمَن أراد الحصول على حقِّه فليؤدِّ للناس حقوقَ غيره؛ ومَن أخلَّ بحقوق الآخرين؛ مِن زوجٍ، أو ولدٍ، أو جارٍ، أو مُوَظَّفٍ، أو مواطن.. فعليه أن ينتظرَ مقابلَ ذلك تفريطًا مِن قِبَلِهم في حقِّه.

وثَمَّةَ توازنٌ آخر لطيف هنا:

وهو أنَّ الشريعة جاءت مطالِبة بأداء حقِّ الآخر وإن قصَّر، ومِن ذلك قولُه ﷺ: «**وَأَعْطُوهُمْ حَقَّهُمْ؛ فَإِنَّ اللهَ سَائِلُهُمْ عَمَّا اسْتَرْعَاهُمْ**»[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد بإسناد صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه (٥٩٢)، وابن صاعد في زوائده على زهد ابن المبارك (٢١٢)، وابن حبان (٥٧٦١)، وأبو نعيم (٤/ ٩٩)، والقضاعي (٦١٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٥٥)، ومسلم (١٨٤٢) واللفظ له من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقوله ﷺ: «**أَدِّ الأَمَانَةَ إِلَى مَن ائْتَمَنَكَ، وَلاَ تَخُنْ مَن خَانَكَ**»[١].

ولكن هذا يُفْهَم على ضوء سنَّة الله في الحياة.. أن حدوث الخلل مِن جهةٍ لا يُسوِّغ تعاطي الناس مع الخلل وكأنَّه الأصل، أو أنَّه في دائرة المباح، ولو حدث هذا لاختلَّ نظام الحياة كلِّها؛ لأنَّه لا يكادُ يَسْلَم أحدٌ من الملامة؛ فغالِب الأبناء يَعِيبون آباءهم بالتقصير تجاهَهم، وكذا الأزواج، والزوجات، والموظَّف يعيب رئيسه، والرئيس ينحِّي باللائمة على مديره..

ويختلط هنا الحقُّ بالباطل، ولو فُتِح للناس بابُ التفريط بالحقوق بدعوى أنَّهم لم يحصلوا على حقوقهم، لانفرط نظام المجتمع.

ويمكن في حالات الإطباق العامِّ على حدوث خلل ما، أن يوافق الناس على المطالَبة بالحقوق وِفْقَ الأنظمة المرعيَّة التي تسمح بحريَّة التعبير والتحالف، ضمن مؤسَّساتٍ وروابطَ وصِيَغٍ اجتماعيَّة رعاها الغرب، وأفلح في تحقيق التوازن الحقوقيِّ مِن خلالها.

ومِن الموازنة في الحقوق: الاعتدالُ في حقِّ الدعوة وحقِّ الأُخُوَّة.

فإنَّ أكثر الناس يطفِّفون في الميزان، ويبالغون في النقد والعيب والعَتَب على غيرهم، في مسائلَ اجتهاديَّة أو خلافيَّة أو فرعيَّة، أو في أمور ثابتة ولكنَّها في دائرة المستحبِّ والمسنون، فيقطعون بسببها الأرحام، ويهجرون الأحبَّة، ويتبرَّؤون مِن حقوق الأُخُوَّة والولاء.. وهم إنْ كانوا ينتصرون لسنَّة، فقد أطاحوا بواجب.. وإنْ كانوا يغضبون لشريعة، فقد أتوا بما هو أشنع مما انتقدوه واستنكروه.. فوِحْدة الصفِّ مَطْلَبٌ وإنِ اختلف الرأيُ، ومسائلُ الإجماع أولى بالرعاية والاهتمام، وقد أجمع الأئمَّةُ جملةً على حقِّ الإخاء الإسلاميِّ،

(١) أخرجه أبو داود (٣٥٣٥)، والترمذي (١٢٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وأنه يُمْنَح للمسلم بقَدْرِ إيمانه واستمساكه، على أنَّ المسألة المتنازَع عليها قد يكون الصواب فيها مع المخالف، وإنَّما التعصُّب والهوى والإلف والجهل، هي التي تحمِل على المصارمة والمصادمة في مثل هذا..

ومِن مُفْرَدات هذا اللون: الحفاظُ على حقِّ الإسلام، وتجنُّب التكفير، أو ما هو دونَه، كالتفسيق والتبديع بغير حُجَّة، أو مِن باب المعاملة بالمثل، كما يقول بعضهم: لا أكفِّر إلا مَن كفَّرني!!

وقد وقع الخوارجُ في تكفير الصحابة، ومع ذلك لم يُكفِّرهم العلماء، وسُئِلَ عنهم عَلِيٌّ رضي الله عنه: «أَمُشْرِكُونَ هُمْ؟ قَالَ: مِن الشِّرْكِ فَرُّوا. قِيلَ: أَمُنَافِقُونَ هُمْ؟ قَالَ: إِنَّ الـمُنَافِقِينَ لاَ يَذْكُرُونَ اللَّـهَ إِلاَّ قَلِيلًا، وهؤلاء يذكرون الله بكرةً وعشيًّا، قِيلَ: فَمَا هُمْ؟ قَالَ: إِخْوَانُنَا بَغَوْا عَلَيْنَا»[(١)].

فحفِظ لهم علي رضي الله عنه حقوقَهم كأفراد من المسلمين في الغنيمة والفيء والصِّلات، وسائر الحقوق المدنيَّة، ما لم يُخيفوا السبيل، أو يسفكوا الدم الحرام.

يقول ابن تيمية[(٢)]: وليس لأحد أن يكفِّر أحدًا من المسلمين، وإن أخطأ وغلط، حتى تُقام عليه الحجَّةُ، وتُبَيَّنَ له الـمَحَجَّة، ومَن ثَبَتَ إسلامُه بيقين لم يَزُلْ ذلك عنه بالشكِّ، بل لا يزول إلا بعد إقامة الحجة وإزالة الشبهة.

ومن مفرداته أيضًا: التوازن بين حقِّ المجتمع، والحفاظ على هدوئه، وسكينته واطمئنانه.. وبين حقِّ البحث والتجديد والإبداع، الذي لا ينمو ولا يُثْمِر إلاّ في مُنَاخٍ حُرٍّ يسمَح بالاختلاف.

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١٥/ ٢٥٥، ٣٣١) (٣٨٩١٨، ٣٩٠٩٧)، وابن نصر في تعظيم قدر الصلاة (٥٩١-٥٩٣)، والبيهقي (٨/ ١٧٣).

(٢) مجموع الفتاوى (١٢/ ٤٦٦).

وقد يصادِر المجتمعُ حقوقَ أفرادِه، ويفرِض عليهم أن يكونوا إمَّعاتٍ تُردِّدُ ما يريد، ودون أن يكون لهم الحقُّ في البحث والتحليل والنظر، ويعدُّ أي مراجعة أو تحقيق نوعًا مِن الوسواس الْخَنَّاس، أو ذريعة للانشقاق، أو شبهات تشوِّش الأذهانَ، حتى يصِل الأمرُ ببعض المجتمعات أن تعتبر قراءة القرآن والسنَّة هي لمجرد البركة، ولا يحقُّ للأفراد الفَهم أو الاستنباط!

وكأنَّ كلَّ مسألة قد عُرِف جوابُها، وحُرِز صوابُها، وتمَّ بحثُها، فما على الخالف إلَّا أن يَتَّبِع أثرَ السالف، ويتلقَّن جوابَه، ويردِّده بإخلاص وتسليم.

وبهذا يفقد البحث العلميُّ تجرُّدَه وحُرِّيَّته، ويصبح جهدًا حصيلته تكريس الأوضاع القاتمة، ويبدأ الباحث بحثَه والنتائج متقرِّرة في عقله، مرسومة في ذهنه، مفروغ منها عنده.

وكلُّ ما يخالف هذه القناعات فهي أدلَّة مدفوعة، بل شبهات موضوعة، وظنون وتخرُّصات، وخيالات وتوهُّمات.

ومِن ذلك: الموازنةُ بين المدافعة السلميَّة والمدافعة بالقتال:

فإنَّ حمل الناس على العزائم ينجم عنه مشقَّةٌ فوق المستطاع؛ خاصَّة إذا طالت وامتدَّ أمدُها، وقد يحتمل الناسُ الضرَّ أيامًا أو أسابيع؛ لكنْ إذا كانت حربًا شعواء تمتدُّ لسنين طِوال، فهذا مما لا طاقة لهم به؛ خاصَّة إذا كان في الأمر مندوحةٌ، وتوفَّرت خيارات عديدة من المدافعة السلميَّة أو الممانعة الذكيَّة.

وقد جاء في الصحيحين أن النبيَّ ﷺ حاصَرَ الطائفَ فلم تُفتَحْ له، فقال لأصحابه: «**إنَّا قافِلونَ إن شاء الله**». فثقل عليهم، وقالوا: نذهب ولا نفتحه؟!

فتركَهم يومًا فأصابَتْهم جراحٌ، فقال ﷺ: «**إنا قافلون غدًا إن شاء الله**». فأعجبَهم ذلك، فتبسَّم رسول الله ﷺ[١].

إن القيادات الشابَّة قد تتعسَّف الطريقَ أحيانًا، ولا تستحضر معاناةَ الكبار والصغار، وقد قال عليه السلام في الحديث المتفق عليه: «**يَا مُعَاذُ، أَفَتَّانٌ أَنْتَ؟**»[٢]، وهذا في شأنِ إطالةِ صلاةِ فريضةٍ.

وقال عليه السلام: «**إِذَا أَمَّ أَحَدُكُمُ النَّاسَ فَلْيُخَفِّفْ؛ فَإِنَّ فِيهِمُ الصَّغِيرَ وَالكَبِيرَ وَالضَّعِيفَ وَالمَرِيضَ، فَإِذَا صَلَّى وَحْدَهُ فَلْيُصَلِّ كَيْفَ شَاءَ**»[٣].

وهذا درس عظيم في الموازنة بين عمل الفرد والجماعة، وحقِّ النفس وحقِّ المجتمع، فقد يحمِل المرء نفسَه على عزائمَ يطيقها أو يستلذُّها، ولكن هذا لا يسوِّغ حملَ الناس عليها، والناس درجات في صبرِهم واحتمالهم، فمُقتضى الحكمة ألاّ يُحْمَلوا على المشاقِّ والصعاب.

ومِن هذا: الموازنة بين التميُّز والاندماج في المجتمعات الغربيَّة:

فإنه يقَع كثير من التردُّد لدى المجموعات الإسلاميَّة هناك؛ إذ يصير بعضُهم إلى الذوبان التامِّ، وفقدان الهويَّة والخصوصيَّة الإسلاميَّة، ويصير آخرون إلى إفراط في التميُّز يحملُهم على المشقَّات والتكاليف الباهظة، ويحول دون التأثُّر أو التأثير الإيجابيِّ، وربما فَعَلَ بعضُهم هذا بضرْبٍ من التفقُّه أو التسنُّن، حتى إني رأيتُ بعضَ الشبابِ المقيمين في مجتمعاتٍ مفتوحة ترحِّب بهم، ولا تأنَف منهم، وتحميهم، وتقدِّم لهم سائرَ الحقوق.. وهم لا يفتؤون يردِّدون

(١) صحيح البخاري (٤٣٢٥)، وصحيح مسلم (١٧٧٨) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.
(٢) صحيح البخاري (٧٠٥)، وصحيح مسلم (٤٦٥) من حديث جابر رضي الله عنه.
(٣) أخرجه البخاري (٧٠٣)، ومسلم (٤٦٧) واللفظ له من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

نقولًا وأقوالًا وروايات، ولا يفقهون أسانيدَها ولا متونها ولا تطبيقاتِها!

قال لي أحدُهم عن حديث: «**أَنَا بَرِيءٌ مِن كُلِّ مُسْلِمٍ يُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِ المُشْرِكِينَ**».

فقلت له: رواه النسائيُّ، وهو حديث مُرْسَل، أخرجه الشافعيُّ في «مسنده»، وابن أبي شيبة في «مصنفه»، مُرْسَلًا من طُرُقٍ عن قيس بن أبي حازم. والنسائيُّ في «السنن» مرسَلًا عن أبي معاويةَ، عن قيس بن أبي حازم[١].

وأخرجه أبو داود، والبيهقي في «السنن الكبرى»، والطبراني في «الكبير» موصولًا، من طرق عن أبي معاويةَ، عن قيس بن أبي حازم، عن جرير بن عبد الله.

وأخرجه الترمذي من طريق أبي معاوية مثله، موصولًا ومرسلًا[٢]، وقال ابن دقيق العيد: الذي أسنده عندهم ثقةٌ.

وقال ابن الملقن عَقِبَه: يعني فيكون مقدَّمًا على رواية الإرسال[٣].

وأخرجه الطبرانيُّ أيضًا في الكبير موصولًا عن قيس بن أبي حازم، عن خالد بن الوليد، قال الهيثميُّ: رجاله ثقات[٤].

ورجَّح البُخاريُّ وأبو داود والترمذيُّ وأبو حاتم والدارقطنيُّ إرسالَه. قال البخاريُّ: الصحيح عن قيس بن أبي حازم مرسل[٥]. وقال أبو داود والترمذيُّ:

(١) مسند الشافعي (١/ ٣٢٣) (٩٠٥)، ومصنف ابن أبي شيبة (٧/ ٣٤٨)، والنسائي (٤٧٨٠)، والترمذي (١٦٠٥).

(٢) أبو داود (٢٦٤٥)، والترمذي (١٦٠٤)، والطبراني (٢٢٦٤)، والبيهقي (١/ ١٣١).

(٣) الإلمام بأحاديث الأحكام (٢/ ٤٥٤)، والبدر المنير (٩/ ١٦٤).

(٤) مجمع الزوائد (٥/ ٣٠٥).

(٥) انظر: العلل للترمذي (٢٩٠).

قد رواه جماعة ولم يذكروا فيه جريرًا، وهو أصحُّ. وكذا قال أبو حاتم الرازيُّ والدارقطنيُّ: الصحيح أنه مُرْسَلٌ[١].

فطفق يصحِّحه، وينقل كلامَ بعض الأئمة، فقلت له: فما مقامُك هنا؟ وأنت إنما تستكثر من الحجج على نفسك، وما أتيت داعيًا، ولا مُصْلِحًا، ولا فارًّا بدينِك، فعدْ إلى مَأْمَنِك، ودَعْ عنك الأقاويل!

إن القيادات الإسلامية مسؤولة عن الرُّقِيِّ بأتباعها، أو بمَن شاء منهم، إلى مستوى الوعي والتعارف، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾، ومسؤولة عن التعايش الناضج مع المجتمعات، والانفتاح الرشيد على خصائصها الحسنة، كالنظام، والذوق العامِّ، والقيم الجماليَّة، والفَهم لطبائعها ومَداخلها، والحذر والتوقِّي مِن سلبياتها وعيوبها، وأنْ تقدِّم نموذجًا عمليًّا صادقًا لما تدعو إليه؛ بدلًا من الانهماك في المهاترات والجدل، والقيل والقال الذي نهى عنه النبيُّ ﷺ، كما في الحديث المتفق عليه[٢].

ومن ذلك: معرفة حقِّ الثابت، وحقِّ المتحول، أو حقِّ الضروريِّ القطعيِّ، وحقِّ الاجتهاديِّ الظنِّي، أو حقِّ الأصول وحقِّ الفروع.

والذي يجمع هذه الجملَة، قولُه سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝٢٤ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

فقرَّر الأصل، وسمَّاه «الثابت»، وهو أصل الدين الجامع الذي به قِوام الْمِلَّة

(١) انظر: علل ابن أبي حاتم (١/ ٣٥٤)، وعلل الدارقطني (١٣/ ٤٦٤).

(٢) صحيح البخاري (٦٤٧٣)، وصحيح مسلم (٥٩٣) من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

واجتماع الأُمَّة: من الأركان الخمسة، والأركان الستة، والإحسان، ومكارم الأخلاق، وأصول الـمُحَرَّمات المُجْمَع عليها.

وبين الفرع الذي في السماء، وهو مُتَّصل بالأصل يقينًا، كاتصال فروع الشجرة بأصلها، ولكن الريح تُفَيئُه مرَّة، وتُقيمه أخرى، وهو عُرْضَة للتغيير، ولو ذبُل بعضه لنَبَتَ ما هو مثلُه أو خيرٌ منه..

وهذا من إعجاز الأمثال في القرآن الكريم؛ فإنَّ الحديث الـمُفَصَّل عن هذا المعنى لا يكاد ينتهي، وسبحان مَن أنزل الكتاب هُدًى وبيانًا، وحجَّة على الناس أجمعين.

والموازنة هنا تقتضي ألَّا يقوم الفرع مَقام الأصل، فيصبح سببًا للخلاف، أو مَعْقِدًا للولاء والبراء، أو مثارًا للجدل والعراك، وألَّا يقومَ الأصلُ مكانَ الفرع، فيصير غَرَضًا للتغير والتبديل والتلاعب، وألَّا ينفصلَ الفرع عن الأصل، ولا يُعَرَّى الأصل من الفرع.

ومن ذلك: الموازنةُ في تعدُّديَّةِ الانتماء: بين حقِّ الأسرة، وحقِّ الجماعة، وحقِّ المجتمع، وحقِّ الوطن، وحقِّ القُطْر، وحقِّ القبيلة، وحق المذهب، فلا يُلغَى شيءٌ منها، ولا يُوغَل في تحقيقه بما يجور على سواه، ولا يعتبر الانتساب لشيء منها مما هو مُباح، نقضًا لانتساب آخر هو مُباحٌ أو مطلوبٌ أيضًا.

وأخيرًا: الموازنةُ بين الواقع والتعامل الإيجابيِّ مع مُتَغَيِّراته ومُتَطَلَّباته وحوادثه، وبين التاريخ الملهم.

فمِن غير الصواب أن يعيشَ قومٌ في التاريخ، وكأنَّه لا يربطُهم بواقعهم شيءٌ، أو أن يفهموا بعضَ حوادث التاريخ ووقائعه أكثرَ مما يفهمون سياقات الحال القائم بينهم، أو أن يتغنَّوا بالتاريخ، وكأنَّ هذا التغنِّي هو الإنجاز الذي

يَقْدِرونه ويستطيعونه، أو أن يُدخِلوا التاريخ في مقارنات مع واقع الشعوب المختلِفة، فإذا جاءتنا تلك الشعوبُ بإنجازاتها المشهودة، وعِلْمِها الآني، وحضارتِها القائمة.. جئناهم بشواهد التاريخ، واعتقدْنا أنَّ الفلج من نصيبنا:

لَسنا وَإِنْ أَحسابُنا كَرُمَتْ ... يومًا عَلى الأَحسابِ نَتَّكِلُ

نَبني كَما كانَتْ أَوائِلُنا ... تَبني وَنَفعَلُ مِثلَ ما فَعَلوا

بل ومِن التوازنِ: التوازنُ بين التاريخ والواقع مِن جهة، وبين المستقبل المنشود مِن جهة أخرى، فإنَّ استشرافَ المستقبل علْمٌ وضرورةٌ وديانة، والسعيُ والتخطيط مَطْلَبٌ، والتفاؤل الـمُشْرِق هو الحادي، وليس يصحُّ أنْ تأخذَنا الهمومُ اليوميَّة والمشكلات التفصيليَّة عن الأمل الصادق ببناء نهضة تُجَدِّد مَجْدَ الأُمَّة، وتُقِيلُها مِن عَثرتها، وترسم لها دورَها الضخم على رأس القائمة، لا استفرادًا ولا إقصاءً، ولكن حضورًا ومشاركة وجدارة.

إنَّ هذه النظرة الثلاثيَّة المتوازنة (التاريخ - الحاضر - المستقبل) مِن شأنها أن تربطَنا بأُسسنا الحضاريَّة والقيميَّة والأخلاقيَّة التي تُمَيِّزنا عن سوانا، وأنْ تجعلَنا أمام تجربة تاريخيَّة سامقة، تدلُّ على القدرة والإمكان، وأن ما حدث مرَّة يمكن أن يحدث مرَّات، وترفع عنا حالة الإحباط واليأس والقنوط التي يصنعها الواقعُ الأليمُ، وتفتح آفاقَ الإبداعِ والتجديد والتطلُّع للمعرفة والتصنيع والمشاريع التي تتمحور حولها همومُ المخلصين وآمالهم، وتمنحُنا الثقة بالإله العظيم الذي إذا أراد شيئًا يَسَّر أسبابَه، لا إله إلَّا هو، ولا ربَّ سواه..

فقه الأَزمات

لماذا الحديث عن فقه الأزمات؟

منذ الطفولة نحفظ ونتغنَّى بأبيات شعريَّة، لشعراء معاصرين استطاعوا أن يدوِّنوا مأساةَ الأُمَّة ومعاناتِها، كقصيدة عمر أبي ريشة الجميلة، التي ينعي فيها واقع الأمَّة، ويتوجَّد على ماضيها التليد، والتي يقول فيها:

أُمَّتي هل لك بين الأُمَم ... مِنْبَرٌ للسيفِ أو للقلمِ

أتلقَّاك وطرفي مُطْرِقٌ ... خَجَلًا مِن أَمْسِك المُنْصَرِمِ

ويكادُ الدَّمْعُ يهمِي[1] عابثًا ... ببقايا كبرياءِ الألمِ

أين دنياكِ التي أَوْحَت إلى ... وتري كلَّ يتيم النغم

وكذلك الشاعر الكبير محمود حسن إسماعيل، وله قصائد عديدة، منها قصيدة بعنوان: (التائهون):

مَن هؤلاء التائهون ... الخابطون على التُّخوم؟!

(١) أي: يتساقط.

أعشى خُطى أبصارِهم رَهَجُ الزوابعِ والغُيوم
والليلُ يعصِفُ فوقَهم مِن يأسِه قلق النُّجُوم
ويَسُومُهم مِن عَسْفِه ولَظَاه أبشعَ ما يَسُوم
مَن هؤلاء التائهون أفهؤلاء المسلمون؟!
أبدًا تُحَطِّمُني وتكْـ ذِبُني الحقائقُ والظنون

وللشاعر المصريِّ محمود غنيم من قصيدته المشهورة:

إني تذكَّرْتُ والذِّكْرى مُؤَرِّقَةٌ مَجْدًا تَليدًا بأيدينا أَضَعْنَاهُ
أَنَّى اتَّجَهْت إلى الإسلامِ في بَلَدٍ تجدْه كالطَّيْرِ مقصوصًا جناحاهُ
باللهِ سَلْ خلف بحرِ الرُّومِ عن عَرَبٍ بالأمسِ كانوا هنا واليومَ قد تاهوا
وإنْ تراءى لك الحمراءُ عن كَثَبٍ فسائل الصرحَ أينَ العزُّ والجاهُ؟!
وانْزِلْ دمشقَ وسائل صَخْرَ مسجدِها عَمَّنْ بَنَاه لعلَّ الصَّخْرَ ينعَاهُ
هذي معالِمُ خُرْسٍ كلُّ واحدةٍ مِنْهُنَّ قامَتْ خَطِيبًا فاغِرًا فَاهُ
كم صَرَّفَتْنا يدٌ كُنَّا نُصَرِّفُها وبات يملِكُنا شعبٌ مَلَكْنَاه؟!
كم بالعراقِ وكم بالهندِ ذو شَجَنٍ شَكا فرددت الأهرامُ شكواه؟!

فالأزمةُ قويَّةٌ راسخةٌ، ومنذ طفولتنا ونحن نتلقَّن ونتلقَّى شِعرًا ونَثْرًا، وحديثًا عامًّا وخاصًّا.. يتحدَّث عن معاناةٍ تعيشها الأمَّة..

وأوَّلُ أزمةٍ في الحياة البشريَّةِ ربما كانت هبوط آدم إلى الأرض، فهذه

كانت مِحْنَةً ابتُلِينا بها، ثم مقتل ابن آدم الأول، كما قصه الله تعالى في القرآن: ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ﴾.

فالحياة بطبيعتها مسكونة بالأزمات، وليست الأزمة شيئًا طارئًا؛ لكنها قد ترتفع أو تنخفض وتيرتُها، أو تزيد أو تنقص.

إنه لا بد من مواجهة الأزمات، ولا بدَّ من المكاشفة والمصارحة بشأنها، أمَّا التهرُّبُ منها، والاكتفاء باالإطراء الكاذب؛ فذاك من أهمِّ أسباب تخلُّفنا، فإننا طالما حاوَلْنا أن نسكِّن أنفسَنا بألوان من الثناء على نجاحاتنا أفرادًا وجماعات ومؤسسات ودولًا، وهذا ربما أَغْفَلَنا عن الوصول إلى الأزمة التي نعيشها.

إنَّ كلَّ الأُمَمِ تعيش أزمات، فأمريكا -مثلًا- تعيش أزمات كبيرة جِدًّا.. أزمات سياسيَّة، واقتصاديَّة، وعسكريَّة، إلى غير ذلك..

والدولة العبريَّة المغروسة في جسد الأمَّة الإسلاميَّة تعيش أزمات أيضًا، لكن الفرق بين أزماتنا وأزماتهم، أن أزماتنا -معاشر المسلمين- ناتجة عن فائض الضعف لدينا، لكن أزماتهم ناتجة عن فائض القوَّة عندهم.

فإسرائيل مع غربتها عن المحيط حولها وحداثة وجودها، وفي مخالفتها لكلِّ ما حولها أخلاقيًّا، وقيميًّا، وتاريخيًّا، وسياسيًّا، وغير ذلك، إلا أنها تملك سُدْسَ الناتج القوميِّ العربيِّ، ودَخْل الفرد فيها ما بين (١٦إلى ١٨) ألف دولار سنويًّا، بينما المواطن العربي معدل دخله (٢٥٠٠) دولار فقط.

كما تتفوَّق على العرب مجتمعين أكثر من عشر مرَّات في عدد العلماء المتخصِّصين.

ـ وتتفوَّق ثلاثين مرَّة في حجم الإنفاق على البحوث والدراسات والتطوير.

ـ وتتفوَّق بسبعين مرة فيما يتعلَّق بالنشر العلميِّ.

ـ وتتفوَّق ألف مرة فيما يتعلَّق بالاختراع.

ـ وتتفوَّق بنسبة (٨٠٪) فيما يتعلَّق بالمشاركة السياسية لشعوبها ومواطنيها.

فأَزَمَاتُنا ناتجة عن ضعفنا العسكريِّ السياسيِّ الاجتماعيِّ العلميِّ المعلوماتيِّ.. بينما هم على النقيض.

إن الهدف من هذا الحديث هو: العمل على تصحيح التعامل مع الأزمات، وإعادة النظر في الأساليب والطرق التي نسلكها في معالجة أزماتنا، سواءً كانت شخصية أو أُمميَّة، والمقام يقتضي الوضوح والمصارحة، فالمقام مقام تعديل وتصحيح، وليس مقام إطراء ومديح.

وإن الحديث عن الأزمات خطوة صحيحة في طريق العلاج.

إن هناك ما يعرف بالمصلحة الشرعيَّة، وهذه المصلحة الشرعيَّة تُعْرَف بالعقل، فيجب ألاَّ يكونَ عندنا موقف عدوانيٌّ من العقل، أو نظنُّ أن العقل والشرع متعانِدان، بل العقلُ نصيرُ الشرع ووزيرُه، وما أَمَرَ اللهُ تعالى بشيء إلاَّ ودلَّ العقل على فضيلته، وما نهى اللهُ تعالى عن شيء إلا ودلَّ العقل على ضرره وفساده، وقبل ورود الشرع؛ فإن الإنسان بالعقل يعرِف المصلحة، وهكذا بعد ورود الشرع إلا فيما ورد النصُّ به.

* عندما يكون عند الإنسان خيارات متعدِّدة في الزواج، فكيف يعرف أيُّها أفضل؟

* وعندما يكون عنده خيارات متعدِّدة في الدراسة، فكيف يعرف أيُّها أحسن؟

* وعندما يكون عنده صفقات تجاريَّة متعدِّدة، فكيف يعلم أيُّ هذه الصفقات أفضل له؟

إنما يعلم ذلك من خلال إعمال العقل، والتفكير، والخبرة، والقياس، فينبغي أن يُدْرَك أن العقل هادٍ ودليل، ومرشد، وأن العاطفة وحدها بدون العقل تَضيع، فلا بدَّ لها مِن عقل يعقِلها، ويلجمها، ويقيِّدُها.

إن من المصلحة أنْ نتربَّى على الجانب الإيجابيِّ، وليس على الجانب السلبيِّ، وأنْ نتربَّى على البناء، وليس على الهدم، وأنْ نتربَّى على الصِّلة، وليس على القطيعة، وأنْ نتربَّى على الفعل قبل أن نتربَّى على رِدَّة الفعل.

مدى الأزمة وحدودها:

الأزمة تُطْلَقُ على الشِّدَّة، وتُطْلَق على المضيق، فيقال: المِئْزَم أي: المكان الضيِّق، وتُطْلَق على السَّنَةِ المؤزمة، وهي السنة التي ليس فيها خصب ولا مطر[١].

فالأزمة هي: خروجُ الشيءِ عن مساره الطبيعيِّ في أيِّ مجالٍ، فقد تكون أزمة صحيَّة، أو أزمة ماليَّة، أو أزمة في الأسرة بين الزوجين، أو الأب وأبنائه، أو أزمة في المجتمع، كالأزمة التي يعانيها مجتمعُنا اليومَ في ظِلِّ تَدَاعيات العنف بكافَّةِ صوره وأشكاله، سواء تمثَّلَ في العنفِ الـمُسلح الذي اندفع إليه بعضُ الشباب بحماس وجهل، أو العنفِ الإعلاميِّ الذي تحدَّث فيه البعض بلغة عنيفة، أو أزمة غلاء الأسعار وصعوبة المعيشة.

وهذه الأزمات التي تمرُّ بنا يجب ألا نتجاهلَها، بحُجَّة أننا مشغولون بأزمات أخرى في الأمة؛ لأنَّ الأُمَّة مجموعة أفراد، وكما يُقال عند العرب: فاقدُ الشيءِ

(١) انظر: مختار الصحاح (ص:١٥)، والنهاية (١/ ٩٩)، والقاموس (١/ ١٣٩٠).

لا يُعْطيه! فإذا كان هناك مَن يعيشون أزمات في حياتهم، فمعنى ذلك أنهم لن يكونوا قادرين على التعاطي السليم مع الأزمة العامَّة، والحياةُ تَظَلُّ جاريةً بكلِّ تفاصيلها وقوَّتها، مهما كان هناك من الأزمات العامَّة.

وهناك الأزمات الطارئة المتفجِّرة، كأزمة فلسطين أو أزمة العراق، أو الصومال أو غيرها.. هذه نُقَطُ صراعٍ ومواجهةٍ، ومع الأسف الشديد أن ثمانيًا وعشرين من ثلاثين صراعًا هي صراعات في العالم الإسلاميِّ، وهذه الصراعات هي عوائقُ في طريق البناء والتنمية والإصلاح والاستقرار، وبعض هذه الأزمات محليَّة ذاتيَّة، استغلَّها عدوٌّ خارجيٌّ، وحاول أن يُلْقِي عليها الأضواء، ويُوَظِّفُها لأغراضه الخاصَّة.

هذه الأزمات هي في معظم البلاد الإسلاميَّة، ولذا ينبغي أن نُدْرِك أنها تشويهٌ وبُثور في وجه العالم الإسلاميِّ، وليس من المصلحة أبدًا أن تتحوَّل مجتمعاتُ المسلمين إلى ميادينَ للصراع والحرب، والقتال الطائفيِّ، أو بين الجيران، أو بين الفُرَقاء المتخاصمين..

بَيْد أن هناك عددًا من البلاد الإسلاميَّة، كفلسطين والعراق، تعرَّضت لاغتصاب وغَزْوٍ، وفي هذه الحالة، فإنَّ جميع القوانين والأنظمة -فضلًا عن الديانات السماويَّة- تُقِرُّ بحقِّ هؤلاء في مدافعة العدوِّ المحتلِّ، ومقاومته بالوسائل الشرعيَّة.

وهناك الأزمة العميقة الـمُقيمة في جسد الأُمَّة، وهناك إجماعٌ على وجود هذه الأزمة، حتى الحكام بدأوا يتحدَّثون عن هذه الأزمة، وفي بعض المقابلات في القنوات الفضائيَّة، أكد عدد من المسؤولين على وجود الأزمات؛ مِن فساد إداريٍّ مُزْمِنٍ، وفسادٍ ماليٍّ، واستبداد سياسيٍّ يمنع حقَّ الفرد المسلم في إبداء

الرأي والمشورة والمشاركة في القرار، واستبداد اجتماعيٍّ مِن خلال سيطرة مُحْكَمَةٍ لقانون الأُسْرَة على الجميع، سواءً كان ذلك بالحقِّ أو بالباطل.

ومن ذلك الاستبداد العلميُّ، سواءً كان استبدادًا علميًّا شرعيًّا، من خلال الرأي الفقهيِّ الذي يُفْرَض على الآخرين بدون دليل، وبدون أن يُعْطَى الآخرون حَقَّهم في المناقشة.

فهناك نقائصُ في العقل المسلم، يجب أن تُعَالَج، كانعدام القدرة على الرؤية الشاملة، والتركيز على جزء من المشهد دون احتوائه.

ومن ذلك: العجز عن ردِّ الظواهر إلى أسبابها، فهناك مَن لا يرى الألوان الرمادية أو الألوان الوسطى، وإنما يرى الأبيض والأسود، ويرى البراءة أو الإعدام، ويرى أن فلانًا ملاك أو شيطان، وأنه في قَعْر الجحيم، أو في الفردوس الأعلى، أمَّا الحلولُ الوسطيَّةُ، وهي التي تجمع ما هنا وما هنا، ففي كثير من الأحيان لا تُدْرَك؛ إضافة إلى أنَّ كثيرًا مِن عقولنا تعاني مِن التشويش، بفعل التَّعَصُّب للجماعة، أو للرأي، أو للمذهب، أو ما أشبه ذلك..

وإن مما يزيد من صعوبة الإصلاح والتدارك في مجتمعاتنا الإسلاميَّة: أن كثيرًا من أخطائنا وعيوبِنا تتترَّس بالدين، والدينُ هو الوسيلة للإصلاح، فقد نعى سبحانه وتعالى على المشركين قولهم: ﴿**إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ**﴾، ﴿**وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ**﴾؛ لكنَّ كثيرًا من الناس يخْلِطون بين الثبات على الحقِّ، والجمود على الرأي، ويحاولون أن يجعلوا لرأيهم قداسةً دينيَّة؛ حتى لا يُراجعوا فيه، ولا يُناقشوا، مع أنَّ سيدَنا محمدًا ﷺ الذي كان يدعو بعد التشهد ويقول: «**يا مُقَلِّبَ القلوبِ ثَبِّتْ قلبي على دينِك**»[1]. وكان

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٨٧) من حديث شهاب بن المجنون الجرمي رضي الله عنه.

يدعو أيضًا في صلاة الليل يقول: «**اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَن تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**»(١).

فكُلُّنا ـ إذًا ـ مُجْمِعون على وجود أزمةٍ، حتى عند الأفراد؛ لكن ليس ثَمَّت اتفاق على تحديد هذه المشكلة، ولا يلزم أن نَتَّفق على تحديدها؛ لكن يجب أن نَتَّفق على منهج علميٍّ في المعالجة، فكثيرًا ما نتدافع بالتهم، وكلٌّ فردٍ يُلْقِيها على الآخر.. وفي كثير من الأحيان نعاني مِن انتقائيَّة، فنطلب تحقيقَ الأشياء إذا كانت في صالحنا، ونرفضها إذا كانت في غير صالحنا.. وعندنا قطعية في غير موضعها، فنُعْطي بعضَ الأشياء حَصانةً أن تكون محلَّ نظرٍ أو نقاشٍ، مع أنها مما اختلفَ فيها الناس خَلَفًا عن سَلَفٍ، وهذا الاختلافُ معناه أنها ليست قضيَّةً عَصِيَّةً على المناقشة.. إضافةً إلى الانهزاميَّة والانفصال عن الأُمَّة، والعدوان على دينها من قبل كثير من أبنائها..

أخلاقيات الأزمة:

إن الأزمات تُخْرِجُ سوءات النفس البشريَّة، ولهذا كان من دعاء النبيِّ ﷺ: «**ونعوذ بالله من شرور أنفُسِنا، وسيئاتِ أعمالنا**»(٢).

فهي تُرَبِّي الإنسان على التعصُّب، والهوى، والاندفاع، والتوسُّع في التأويل والكذب والعدوان والبغي، بل أحيانًا القتل بأوهى الْحُجَجِ، والباحثون في الأزمة وأخلاقِها وفقهها، عُنوا بذلك كثيرًا، **فمن أخلاقيات الأزمة:**

(١) أخرجه مسلم (٧٧٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه أبو داود (٢١١٨)، والترمذي (١١٠٥) واللفظ له، وابن ماجه (١٨٩٢)، والنسائي (١٤٠٤) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

الأول: الصبر:

كما قال عمر رضي الله عنه: «وجدنا خيرَ عَيْشِنا بالصبر»[١].

والصبرُ ضروريٌّ للحياة كلِّها: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾.

وضروريٌّ للأشياء الميؤوس منها؛ حتى نتكيف معها، ونصبر عليها، فمن استيقظ ووجد نفسَه مشلولًا يحتاج إلى جرعات من الصبر؛ حتى يتكيف مع هذا الوضع الجديد الذي لم يتعوَّد عليه، حتى يأذنَ اللهُ له بالعافية، أو يَظَلَّ كما هو؛ لكنه يعيش حياتَه برِضا، فنحتاج إلى الصبر على الأشياء التي نيأس منها.

والصبر أيضًا للأشياء المقدور عليها، والتي تحتاج إلى محاولة، فتحتاج إلى أن تصبرَ في طلب العلم، وفي الزواج، وفي العمل، وفي طلب الرزق، وفي الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، وكما قيل:

أَخْلِقْ بذي الصَّبْرِ أن يحظى بحاجتِهِ ومُدْمِنِ القَرْعِ للأبوابِ أن يَلِجا

الثاني: الحلم والهدوء:

وقد أثنى النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم على أَشَجِّ عَبْدِ الْقَيْسِ بقوله: «**إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الْحِلْمُ وَالأَنَاةُ**»[٢].

وأثنى عمرو بن العاص رضي الله عنه على الروم، وبيّن أنَّ مِن أسباب خلودِهم وبقائهم وسيطرتهم: أنَّهم أحلمُ الناس عند فتنة[٣]. والْحِلْمُ يعني: أن الإنسان

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٦٣٠)، ووكيع في الزهد (١٩٢)، ويحيى بن صالح – كما في نسخة أبي مسهر (٧٣)– والحسين المروزي في زوائد زهد ابن المبارك (٩٩٧)، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد (ص: ١١٧)، وأبو نعيم في أخبار أصبهان (٢/ ١٦٥).

(٢) أخرجه مسلم (١٧، ١٨) من حديث ابن عباس وأبي سعيد رضي الله عنهم.

(٣) أخرجه مسلم (٢٨٩٨).

يملِك قواه العقليَّة عند الهيجان والغليان والاضطراب، بحيث يستطيع أنْ يحاكمَ الأشياءَ بطريقةٍ صحيحةٍ.

ومن الحلم: التَّوقُّف في إبداء الرأي حين لا يكون من تخصص المتحدث ولا مما يحسنه، فبعض الإخوة يرون أنَّه لا بدَّ أن يكون لهم رأيٌ في كلِّ مسألة! وهذا مُتَعَذرٌ لأكابر العلماء والفقهاء، فضلًا عن غيرهم..

فينبغي للإنسان أن يسكت عمَّا لا يعلم، وأنْ يتربَّى على أنَّه لا يلزم أنْ يكون له في كلِّ مسألةٍ رأيٌ واختيار؛ حتى لو كان عالمًا أو فقيهًا فإنه يتوقَّف، بل إن النبيَّ ﷺ لـمَّا سُئِلَ: ما أفضلُ البقاع؟ قال: «**لا أدري حتى أسألَ جبريل**»[(١)]. ولما سأل جبريلَ قال: لا أَدري حتى أَسألَ ربَّ العِزَّةِ! وما مِن أحدٍ مِن العلماء والصحابة إلا تَوَقَّف في مسألةٍ أو مسائل.

الثالث: التسامح والإعراض:

فإن الناس تربَّوا على الانتقام والعصبيَّة، وأن يثأرَ الواحدُ الثأر العربيَّ القديم، ويرى أن التسامحَ والعفو دليل على الضعف، بينما التعليم النبوي يقول: «**لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِى يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ**»[(٢)].

الرابع: الحبُّ وتعاطيه وإشاعته:

فإن الحب هو المادَّة التي تربط بين لَبِنَات البناء، فلا بد أن نفجِّر ينابيع الحبِّ في قلوبنا لأولادنا، ولأزواجنا، ولإخواننا، ولأصدقائنا، بل لجميع المسلمين حتى وإن كنا نختلف معهم..

وقد أعجبني حال أحد الإخوة يقول: إنني حين وقفْتُ بعرفةَ دعوتُ اللهَ

(١) أخرجه أحمد (١٦٧٤٤)، وأبو يعلى (٧٤٠٣)، والحاكم (١/ ٨٩-٩٠) وفي (٢/ ٧) من حديث جبير بن مطعم.

(٢) أخرجه البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

تعالى لنفسي ولقرابتي، ثم قلت: يا ربِّي، كلُّ مَن جاز في شرعك أن يُدْعَى له بالرحمة والمغفرة، اللهمَّ فإني أدعوك له بالرحمة والمغفرة سُنِّيًّا أو بِدْعيًّا، عاصيًا أو مُطيعًا، قريبًا أو بعيدًا، موافقًا أو مخالفًا.. وهذا معنى جميل يحسن أنْ يتعلَّمه الناس، وأن يُشاع بينهم.

الخامس: حُسْنُ الظنِّ:

وحُسْنُ الظنِّ ليس غفلةً، ولا غباءً، بل هو مِن الرجولة، وكما قيل:

لَيسَ الغَبِيُّ بِسَيِّدٍ في قَومِهِ ... لَكِنَّ سَيِّدَ قَومِهِ المُتَغابي

وحُسْنُ الظنِّ من واجبات المسلم لأخيه، كما يقول عمر رضي الله عنه: «لا تظن بكلمة خرجت من أخيك سوءًا، وأنت تجد لها من الخير مَحْمَلًا»[1].

فأَحْسِنِ الظنَّ بأقوال الناس وأفعالهم ومواقفهم، وضع نفسك موضعهم، ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾.

السادس: أداء الحقوق وعدم انتظار الردِّ:

فحاولْ أن تؤدِّيَ حقوق الآخرين عليك، سواءً كانت حقوقًا قوليَّة، أو ماليَّة، أو فعليَّة، وسواء كانت للأهل، أو للجيران، أو للولد، أو للزملاء، أو للأستاذ.. وابدأ أنت فبادر، ولا تنتظر مِن الطرف الآخر أن يكون هو البادئ، وحاول أن تقومَ بواجبك ومسؤوليتك.

السابع: فِعْلُ الجميل للآخرين:

والإحسان إليهم، من غير أن تنتظر منهم أن يردُّوا لك هذا الجميل.

لكن إذا عملْتَ هذا المعروف لله سبحانه وتعالى، فإن الأمر لن يزيدَك إلا قوة..

(١) انظر: شعب الإيمان (١٠/ ٥٦٠).

الثامن: التفاؤل:

فإن الإنسان بحاجة إلى أنْ يكون في قلبه رضا وإيمان وتفاؤل، وأنْ يقرأ أو يسمع بعضَ الموادَّ التي تبعث على الأمل:

أُعَلِّلُ النَّفسَ بالآمالِ أَرْقُبُها ما أضيقَ العيشَ لولا فسحةُ الأمَلِ

التاسع: عدم الانخراط في مقارنات غير مُجْدِيَة:

أرى أنَّ كثيرًا مما يُضَلِّل الناسَ هي المقارنة في غير مَحَلِّها، كالمقارنة بين بلد وبلد، أو بين زمان وزمان، أو بين شخص وشخص.. وهذا من أكبر الأخطاء؛ لأنَّ كلَّ واقع له ظروفه، وله اعتباراته التي لا تسمح بالمقارنة إلا بشكل جزئيٍّ، ومن قِبل الخبراء والفقهاء.

أسباب الأزمة:

إننا جميعًا مسؤولون، وليس مِن حقِّ أحد مِنا أن ينسحب، ويعتبِر نفسَه بمَنْجَاة مِن ذلك، ولذلك ينبغي أن نعرف الأسباب..

ولعل السبب الرئيس هو ضعف الشخصيَّة الإسلاميَّة: ﴿**أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ**﴾.

وما لم يستشعِر ذلك كلُّ فرد منا، فسنظَلُّ نُلْقِي باللائمةِ على الأطراف الأخرى، ولن ننجح، ولو وقف أحدنا مع نفسه، وأخذ ورقة وقلمًا، وبدأ يدون إخفاقاته، ويعترف بإساءاته وأخطائه التي اقترفها في حق أمته، لتبين له أنه جزء من المشكلة، وستكون هذه الوقفة بداية إيجابية، وأن يعتبر نفسه مسؤولًا ولو بشكل جزئي عن الخلل الموجود في الأُمَّة.

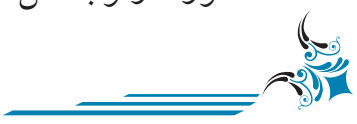

إننا كثيرًا ما نتحدَّث عن أذى القوى الخارجيَّة؛ أمريكا، وإسرائيل، والغرب.. ولا شك أن الغرب له دور فيما تعانيه الأُمَّة، ولكن يجب أن نُدْرِك أن هذا الدور في البداية كان مِن عند أنفسنا، كما قال ربُّنا سبحانه..

ولو كنا أُمَّة واحدة كما أَمَرَنا ربُّنا عزَّ وجلَّ، وكان لدينا من الإمكانات الذاتيَّة ما هو واجب ومطلوب.. ما استطاع العدوُّ أن يبلُغ منا مبلغَه، ويفعل فينا فعله، فإنَّما أُتِينا مِن قِبَل أنفسنا، وبذلك تَسَلَّط علينا الأعداءُ، فيجب ألا نُبالغ في تحميل الطَّرَف الخارجيِّ المسؤوليَّةَ، وكأنا نبرئ أنفسنا من كل تقصير.

وليس مِن العقل والحكمة أن نظلَّ نشتُم أعداءنا، بينما ندرك يقينًا، أن لو كنا نحن على مستوى المسؤوليَّة، ما كانت مؤامرات الأعداء ومكايدهم تبلغ فينا ما بلغت.

طريقة تعاملنا مع الأزمة:

أولًا: الحريَّة قيمة مُقَدَّسة شرعًا، خاصَّة للعالِم والـمُثَقَّف والمؤثِّر، وأعني بالحريَّة ألا يكون صدىً لما يطلبه منه المستمعون، لا حاكم ولا ثائر، وإنما يراعِي مصلحة الأُمَّة المستقبليَّة، ويراعي الحفاظ على الأرواح، والممتلكات، والأمن والبنية التحتيَّة، والضرورات الشرعيَّة المطلوبة.

ولقد كان (البعثيون) يومًا من الأيام يعتبرون أنه ما دام حزب البعث في السلطة فلا يضرُّ مهما بلغت الخسائر، ومن الخطأ الكبير أنْ يكرِّر بعضُ الإسلاميِّين هذه التجربة، ويضحُّون أموالًا وأرواحًا في معارك خاسرة، قد يخوضونها بالوكالة عن غيرهم.

إن الحريَّة هي الصدق مع الله تعالى، ثم الصدق مع النفس، ولو لم توافِق الآخرين، ولا بأس بالتلطُّف في العبارة؛ لكن بدون مجاملة، فهناك من إذا

أرادوا أن يتحدَّثوا عن هذا الأمر أو ذاك من أحداث الحادي عشر من سبتمبر.. إلى ما يقع اليوم.. إلى غيرها.. يتلفت الواحد منهم ذات اليمين وذات الشمال، ولا يستطيع أن ينتقد بعض ما يَجْري؛ لأنَّه لا يستطيع أن يتخلَّص مِن عاطفته.

إنَّ الأحداث التي حصلت في سبتمبر، ثم ما تلاها من ضربات في العالم الغربيِّ، ثم في غيره، حتى وصلت إلى البلدان الإسلاميَّة، ترتب عليها أنَّ أكثر مَن يدفع هذه الفواتير هم المسلمون، سواءً مِن نزيف الدماء، أو من سقوط دول وتَعَرُّضها للانهيار، كالعراق وأفغانستان، أو مِن قَتْلِ الآلاف المُؤلَّفةِ مِن الناس، أو مِن سُوءِ ظَنِّ الناس بدينهم، حتى مِمَّن يعيشون في الأوساط الإسلاميَّة، فضلًا عن كثير من العالم الغربيِّ الذين صار الإسلام عندهم مُرْتبِطًا بالدمويَّة والقسوة والعنف، وفَاتَهم أنه دين الرحمة والحبِّ والسلام.

إن الحياد من الحريَّة، وهو ضروريٌّ للرأي الحكيم، ومُحَال أن يكون الإنسان محايدًا تمامًا، ولكن عليه أن يحاول، فيجب أن نُوَسِّع مجال الاختلاف، وألاَّ نغسل أيدِيَنا مِن الآخرين بمجرَّد أنَّنا نختلف معهم.

إنَّ كثيرًا مِن الصدامات تفاقم المشاكلَ وتزيدُها، فالصِّدام مِثْلُ الكيِّ، هو آخر الدواء، ولذلك كان النبيُّ ﷺ يقول: «**أَيُّهَا النَّاسُ، لاَ تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا..**»[1].

والأُمَّة ليست مُؤَهَّلة لخوض حروب مع الأعداء اليوم، ولكن إذا فُرِضَت عليها حروبٌ في حالات خاصَّة، فلا بدَّ مِن التعامل معها.

فينبغي أن نُدْرِك أنَّه مهما وُجِدَ عندنا من الدوافع، ومن الشروط، فإنَّ هناك موانعَ قد تَحُولُ دون ما يتطلَّبه الإنسان ويتمنَّاه، وليس هذا إلغاءً لقانون التَّدَافُعِ،

(١) أخرجه البخاري (٢٩٦٦)، ومسلم (١٧٤٢) من حديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه.

فإنَّ التَّدَافُعَ سنةُ الله سبحانه وتعالى؛ لكنه ليس هو الأصل، وإنما الأصلُ أنَّ الإنسان يعملُ، ويبني، ويُصْلِح، ويُؤَسِّس، ويكون إيجابيًّا، ثم يدفع ما يَعْرِض له.

إن الاستغراق في الأزمات، وإخراجها من سياقها الطبيعيِّ، ونسيان الحياة ـ مع أن الحياة مكتظَّة بالإيجابيات ـ غيرُ سديدٍ، بل الأزمات فُرَصٌ إذا أحسنا توظيفها واستثمارها..

إن كل أزمة هي مشكلة وتَحدٍّ، وهي فرصة في الوقت ذاته، فالحياة مليئة بالأشياء الإيجابيَّة، قد تجد في المجتمع أخطاءً، وانحرافات أخلاقيَّة، لكن هذا لا يلغي الصالح الكثير، و«**مَن قال: هَلَكَ النَّاسُ فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ**»، كما يقول النبي ﷺ[1].

فلا تتجاهل الواقع، ولا تختصره في جوانب مُعَيَّنة أو أحداث محدودة، فهناك فَرْقٌ بين مَن يذكر بعض الأخطاء في سياقها، وبين مَن تسيطر عليه الأخطاء أو الإخفاقات الموجودة في المجتمع، فيُلِحُّ عليها إلحاحًا كثيرًا، وتُشَكِّل عنده موقِفًا فكريًّا ونفسيًّا وعاطفيًّا، وتصبغ شخصيَّته حتى لا يتكلَّم إلا بها، وينجم عن ذلك أنَّ الكثيرين يكبِّرون الأزمات، ويعتبرون أنها (هرمجدون) القادمة، وأنها مؤذِّن المهدية، وكأنَّ الأزمة شرٌّ لا خير فيه، مع أنَّ الله سبحانه وتعالى لا يخلق شرًّا مَحْضًا، وهذه الأزمات لا بدَّ أنْ يكون فيها قَدْرٌ من الخير.

وينبغي أن ندركَ أنَّ عنصر الزمن يعطي المشكلة حجمها الحقيقيَّ، فكثير مِن الأزمات التي عشناها ورأيناها على مدى عمرنا المحدود، وكنا نظن أنَّ هناك انقلابًا هائلًا سيَحْدُث في الكون، تبين أنها تهدأُ بمضي الوقت، ويصبح النظر إليها أكثر اعتدالًا وواقعيَّة، وأنَّ التحليلاتِ الإعلاميَّة والعسكريَّة وغيرها، أعطت بُعْدًا أكبر لهذه الأزمة.

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

إن من أكبر الخطأ أن نتحوَّل إلى أُناس مأزومين نفسيًّا، فتؤثِّر الأزمة في تفكيرنا، ونفسياتنا، وفي دراستنا، وعملنا، وعلاقتنا مع الآخرين..

لقيتُ يومًا مِن الأيام أحدَ التجار، فأخذ يُحَدِّثُني ويسألُني: هل ترى أن أعتزل، وأذهب إلى مكان بعيد في غنمات أَتَّبِعُها، أو نخلات أزرعُها؟ فإنني أخاف أن يكون قد اقترب الأمر!

قلت: نعم، الأمر قد اقترب منذ بُعِثَ النبيُّ ﷺ؛ لكن حَذَارِ حَذَارِ أن تتحوَّل الأزمة مِن خارجنا إلى داخلِنا، فلا بد من تَجَنُّبِ الشائعات والأراجيف والظنون والتوهُّمات، وضبط الحماس، وامتصاص الصدمة، وعدم الاندفاع العشوائيِّ، والناس ثلاثة: إنسان مُتَهَوِّر، وآخر لامبالٍ، وبينهما الوسط، والمطلب هو الانضباط.

الحلول:

أولًا: الاعتصام بالله تبارك وتعالى، والدعاء، وقد عاش نبي الله يونس ﷺ أزمة فرديَّة وأُمَمِيَّة حينما كان في بطن الحوت، فقال عنه ربُّه: ﴿**فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ**﴾، وهذا يعني أن التسبيح والذكر والاستغفار والاعتصام بالله عزَّ وجلَّ، أوثق أسباب النجاة وأهمها.

ثانيًا: الرجوع إلى الكتاب والسنة فيما أُجْمِع عليه، وفيما اختُلِفَ فيه، فما أَجْمَع المسلمون عليه فهو حقٌّ لا يَحِلُّ لأحد الخروجُ عليه، وما اخْتَلَفَ الناس فيه مِن أهل العلم والإسلام، فمعنى ذلك أنَّ الإنسان يختار ما هو أقربُ إلى الحقِّ وأوفقُ للدليل، وأكثرُ تحقيقًا للمصلحة.

والرجوع إلى الكتاب والسنَّة، لا يقتصر على مسائل الأحكام فقط، بل والأخلاق وآداب التعامل.

فالاختلاف معصية، ينبغي أنْ نجتهد في دفعها عن أنفسنا، وأنْ نُطِيع الله تعالى بأن نعتصِم بحبله جميعًا، وأنْ نترك الخلاف قَدْرَ الـمُسْتَطاعِ، حتى لو اختلفنا في الرأي، فيجب ألاَّ يتحوَّل هذا الاختلاف إلى تَفَرُّق.

كما أن التخلُّفَ التِّقَنيَّ الذي تعيشه الأُمَّة معصية، ينبغي أن نعالجه بالتوبة إلى الله، والتوبة هنا تكون بتحصيل العلوم الصحيحة التي تحتاجها الأُمَّة في حياتها.

والفوضى الإداريَّة التي نعيشها في مُؤَسَّساتنا، وشركاتنا، ودُوَلِنا، ووَزَاراتِنا، معصية لله عز وجل، ينبغي أن نعالجها بالتوبة الصادقة، والتوبة الصادقة هنا تكون بضبط قضايانا الإداريَّة على أفضل وأحدث النظريَّات العلميَّة الـمُنْتِجة.

والاستبداد معصية، سواء كان استبدادًا سياسيًّا أو علميًّا أو أسريًّا أو اجتماعيًّا، وعلينا أن نعالجه بالتربية على الحوار، والشورى، والمشاركة.

والفساد الماليَّ معصية يجب أن تُعَالَج بالتوبة، والتوبة من الفساد الماليِّ تكون بالعدل في توزيع المال بين الناس، وتَكَافُؤِ الفرص، وإعطاء كلِّ ذي حقٍّ حَقَّه.

ووحدة الأُمَّة هي من أهم الحلول التي ينبغي السعي فيها، فالقَدْرُ المشتَرَك عند الأُمَّة ينبغي العناية به، وهو الدين الجامع، ومحكمات الدين التي اتفق عليها المسلمون.

والخلافات القائمة بين الشعوب، أو الحكومات الإسلاميَّة هي واقع لا

سبيل إلى تجاهله، وهي أمور مُحْزِنة جدًّا، والإنسان لا يملك إزاءها إلا أن يدعوَ الله سبحانه وتعالى أن يَجْمَع شملَ هذه الأُمَّة على الحقِّ.

فالتفاؤل هو مراعاة الوجه الإيجابيِّ، وأنَّ الله تعالى لا يخلق شرًّا مَحْضًا.

ومن ذلك: ضبط منهج الاختلاف فيما بيننا، وألا تتحوَّلَ الآراءُ المختلفة إلى اصطفافات، واستقطابات، وتَحَزُّبات، وتَعَصُّبات.. وكثيرًا ما نُبْتَلى بها، فإذا تحدَّثنا عن موضوع الحاكميَّة، أو عن موضوع الولاء والبراء، أو العذر بالجهل، أو عن المواقف المختلفة في قضيَّة من القضايا، فإنَّ الأمر لا يَقِفُ عند حدِّ الاختلاف، وإنما يتحوَّل إلى تَفَرُّق واصطفاف، وينبري كلُّ فرد منا أو جماعة للمجموعة الأخرى؛ لمحاولة فَضْحِهم، ودَحْرِهم، والوقوف في وجههم بدلًا من الوقوف في وجه الأزمة، أو الوقوف في وجه العدو.

إدارة الأزمة:

إن إدارة الأزمة تشمل ثلاثة أهداف:

أولًا: أن يكون لدينا رؤية واضحة ومنهج مُنْضَبِط في التعامل مع الأزمات، فلا نتجاهل الأزمات، لكن -أيضًا - لا نجعلها هي الأساس، ولا نتحوَّل في تَعَامُلِنا مع المجتمع والناسِ مِن حولنا إلى مأزومين.

ثانيًا: الإصرار على النجاح في شخصيَّتك، وفي حياتك الخاصَّة والعامَّة، وقد زارني أحدُ الشباب يومًا وهو محزون جدًّا، وتحدَّث إليَّ وقال: إني أتمنَّى الموت صباحًا أو مساءً. فابتسمْتُ وقلْتُ له: والله لو كان العمر يُسْتَلَفُ، لقلْتُ لك: سَلِّفْني ما بقي مِن عمرك!

فاستغرب وقال: لماذا؟!

قلْتُ: لأنَّ النبيَّ ﷺ لما سئل: مَن خيرُ النَّاسِ؟ قال: «**مَن طَالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ**»[١]! فأنت إذا مُدَّ لك في العمر سوف تصلي، وتصوم رمضان، وتَبَرُّ والديك، وتتصدَّق، وتستغفر، وتُحْسِن، وتُعلِّم، وتتعلَّم، بل وتستمتع في دنياك بأكلك، وشربك، ونومك، وأهلك، وولدك، والله تعالى خَلَقَنا وابتلانا بذلك، وكم في الحياة مِن جمال ومتعة ولذَّة وبهجة، فضلًا عن فرص الأجر والثواب التي ينتظر المؤمن.

(١) أخرجه أحمد (١٧٦٨٠)، والترمذي (٢٣٢٩) من حديث عبد الله بن بسْر رضي الله عنه.
وأخرجه الطيالسي (٩٠٥)، وأحمد (٢٠٤١٥)، والترمذي (٢٣٣٠)، والحاكم (١/ ٣٣٩) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

فقه التعامل

ابدأ بنفسك:

الإنسان يبدأ مِن ذاته، ويحاول أن يكتشف العوالم، ويقرأ الآخرين، ويُعلِّق على الناس، وربما يلاحظ عليهم في تصرُّفاتهم ونفسيَّاتهم وأخلاقهم تمايزًا، فهذا قوي، وهذا ضعيف، وهذا قَلِق، وهذا متوتِّر؛ لكن آخر ما يخطر في باله النفس، مع أنَّ اكتشاف نفسه هو الأصل والأساس..

وليس اكتشاف النفس فقط، وإنما التصالح معها، فإنَّ كثيرًا مِن الذين عندهم مشكلات مع الآخرين عندهم مشكلات مع أنفسهم قبل ذلك، فمشكلته الأساسيَّة مع نفسه، وليست مع الناس، وإذا استطاع الإنسان أنْ يتصالح مع النفس، استطاع أنْ يتصالح مع الآخرين..

والحياة ليست قتالًا، بل فرص الحياة كثيرة، ومجالاتها واسعة، والأصل في الحياة أن تكونَ مبنيَّة على السلام، وربُّنا سبحانه وتعالى ذكر السلام كأساس في العلاقة، فهو أساس في العلاقة مع النفس ومع الغير، يقول ربُّنا سبحانه: ﴿دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾، فإذا

دخل بيته بدأ بالسلام، فالسلام مطلوب مع الأسرة، وعلى القريب، والبعيد، والجار، بل حتى الميت تسلم عليه، فيسلم من أذاك بذكره بسوء.

والسلام مع الخطأ بإزالته، وإذا لم يَزُلْ فبمحاولةِ إزالةِ آثارِه على النفس، يقول النبيِّ ﷺ: «**اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ**»[١].

فجعل تقوى الله سبحانه وتعالى هي الأساسُ، ثم أعقَبَ بقوله: «**وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا**»، وفي هذا إشارة إلى التصالح مع النفس والتعامل مع أخطائها، بأنْ يُتبع السيئةَ الحسنةَ فتُمْحَى، ولا يُصبِح الإنسانُ أسيرَ الخطايا وتأنيب الضمير.

ثم قال ﷺ: «**وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ**»، وفي هذا إشارة إلى العلاقة الطيِّبَة بين الناس.

إنَّك قد تجد إنسانًا لديه ملفَّات كاملة عن أصدقائه، وزملائه في العمل؛ لكن لو سُئِل عن نفسه ربما يخفق في أكثر الأسئلة، ولن يستطيع أن يُجيب؛ لأن هذه الأنوار الموجودة عنده مُسَلَّطة على الآخرين، فهي تقرأ وجوهَهم ونفوسَهم ودواخِلَهم ودوافِعَهم ومقاصِدَهم في العمل وتصرُّفاتهم، وتحتفظ بكلِّ شيء عنهم، وأما ما يتعلَّق بنفسه فلا يستطيع أن يكتشفَ عيوبَها وأخطاءها أو يواجهها..

التعامل مع الناس:

قد يسهُل على الإنسان أن يتعرَّف على الآخرين، ولكن يجب أن يعرِف كيف يدخل إلى نفوسِهم، ويكسَب وُدَّهم، فالنفوسُ بيوتٌ فاعرفْ كيف تطرُق أبوابها برِفْقٍ.

(١) أخرجه الترمذي (١٩٨٧) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

فهؤلاء الناس تتعامل معهم في مقطَع سريع، أو موقِف عابر قد لا يتجاوز دقائق؛ لكنَّ هذا الإنسان لا يمكن أن تختصِرَ عُمُرَه في الدقائق التي لقيته فيها، فربما أخذْتَ عنه انطباعًا غير إيجابيٍّ، بسبب ظروف أو ضغوط يعيشها، أو أزمة نفسية يعانيها، أو حالة ضاغطة عليه أربكته ووترته، فلو عَرَفت معاناته لَرَحِمْتَه بدلًا من أن تغضب عليه، وتحاول أن تحتويه بدلًا مِن أنْ تردَّ عليه السيئةَ بمثلِها.

إن العلاقة هي التي تربط بين الأفراد المتفرِّقين، ليتكوَّن منهم بناء الأسرة أو بناء المجتمع، وهذه العلاقة المهمَّة لا يمكن أن تتحقَّق إلا بعد أن تكتشف نفسَك وتكتشف الآخرين وتتعرَّف عليهم، ولذلك يقولون: (كل شخص لم تعرفه، ككتاب لم تقرأه).

وإذا عُرِف السبب زال العجب.. فربما يصدُر من شخص خطأ، فأنت لا تستطيع أن تُغيِّر الناس، لأنهم خَلْق الله، والله خَلَقَهم مختلفين جدًّا، كما قال سبحانه: ﴿وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ﴾، اختلاف اللسان، واللون، والبصمة، وحدقة العين، ونبرة الصوت، وبالتالي اختلاف بصمة العقل.

والعلماء يؤكِّدون أنَّ كلَّ إنسان في الوجود هو شيء آخر مختلف عن غيره، لا يمكن أن يكون صورة طِبْقَ الأصل عن سواه، بل كلُّ إنسانٍ له تكوين مختلف، ولا بدَّ أن تتعرَّف على هذا التكوين، وما يُميِّز هذا الإنسان، حتى تتعامل معه، فإذا لم يكن لديك معرفة به، فتعاملْ معه بمقتضى التهذيب العام، والخلق الجميل، والمعاني العامَّة التي تقدِّمُها للناس كلِّهم، مَن تعرِف ومَن لا تعرِف.

طلاقة الوجه:

يقول النبيُّ ﷺ: «**تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ**»(١)، وهذه هي الصدقة التي لا يعجز عنها إلا مَن ابتُلي بجفاف الروح؛ لأن تبسُّمك في وجه الأخ صدقة سهلة مُتاحة لكل أحد؛ ولذلك يقول جرير بن عبد الله رضي الله عنه: «مَا حَجَبَنِي النَّبِيُّ ﷺ مُنْذُ أَسْلَمْتُ، وَلاَ رَآنِي إِلاَّ تَبَسَّمَ فِي وَجْهِي»(٢).

فالتبسُّم يُعطي الانطباع الأَوَّليَّ للإنسان، وهذا الانطباع مهمٌّ جدًّا، فبقَدْر ما تعطي الآخرين من الاحترام والأهميَّة والتقدير تكسب منهم، فالابتسامة تُعطي ترحيبًا واحترامًا، وهي تعبير عن صِدْق النيَّة، وصفاء القلب لديك، وهي ضِمْن منظومة مِن الأعمال السهلة التي تُشكِّل الانطباعَ الأَوَّليَّ، مثلًا تحية الإسلام: «السلام عليكم»، والمصافحة باليد، والنظر في العين، والعبارات السحريَّة، كالسؤال عن الحال.

كَيفَ أَصبَحتَ كَيفَ أَمسَيتَ مِمَّا ... يُنبِتُ الوُدَّ في فُؤادِ الكَريمِ

وتذكُّر الاسم، ونداء الإنسان بأحب أسمائه إليه، والسؤال عن همومه وأحواله، وعن البيت الجديد، والترقية الوظيفية، وعن والده وولده، مما يُبْدي له أنَّك مهتمٌّ به، والنبيُّ ﷺ لما رأى عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه وَبِهِ أَثَرُ صُفْرَةٍ قَالَ: «**مَهْيَمْ**»!

قال: يا رسولَ اللهِ تَزَوَّجْتُ. قال: «**ما سُقْتَ إِلَيْهَا؟**»، قال: نَوَاةً مِن ذَهَبٍ،

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٨٩١)، والترمذي (١٩٥٦) وقال: حسن غريب، وابن حبان (٤٧٤، ٥٢٩) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٣٥)، ومسلم (٢٤٧٥).

فقال ﷺ: «**بارك الله لك، أَوْلِمْ ولو بشاة**»[١].

وسأل جابرَ بن عبد الله رضي الله عنه: «**يَا جَابِرُ، تَزَوَّجْتَ؟**»، قُلْتُ: نَعَمْ. قال: «**بِكْرٌ أَمْ ثَيِّبٌ؟**»، قُلْتُ: ثَيِّبٌ. قال: «**فَهَلَّا بِكْرًا تُلَاعِبُهَا**»، قال: يا رسولَ اللهِ، إنَّ والدي تَرَكَ ستَّ بناتٍ، ولم أحبَّ أن أُضيف إليهن واحدةً مِثْلَهن، أحببتُ أن تكونَ امرأة مجربة لها خبرةٌ في الحياة، تقوم على شؤونهنَّ.

فأُعجِبَ النبيُّ ﷺ بهذا التفكير، ودعا له[٢].

فالابتسامة جزء من الانطباع الأَوَّليِّ في السؤال، والاسم، والاطمئنان على الأحوال، والنظر في وجه الذي تُحَدِّثه، والتعبير عن الاهتمام به، فكلُّ هذه معانٍ مهمَّة.

ولغة الجسد جزء من التعبير، فالإنسان يُعبِّر بها عن الرضا أو الارتياح أو الإقبال؛ ولهذا كان النبي ﷺ يُقْبِل على جليسه، وينظر إليه، ولا ينصرف عنه، حتى يكون ذلك هو الذي ينصرف، وكان هذا مِن كمال تهذيبه وأخلاقه ﷺ[٣].

ومن ذلك عناية الإنسان بنظافته، ولباسه، وطِيْبِ رائحته، وكان النبيُّ ﷺ لا يُشَمُّ منه إلا الرائحة الطيِّبة، يقول جابر بن سمرة رضي الله عنه: «وضع النبي ﷺ يده على خدي، فَوَجَدْتُ لِيَدِهِ بَرْدًا أَوْ رِيحًا كَأَنَّمَا أَخْرَجَهَا مِن جُؤْنَةِ عَطَّارٍ»[٤].

(١) أخرجه البخاري (٢٠٤٩) واللفظ له، ومسلم (١٤٢٧) من حديث أنس رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري (٥٢٤٧)، ومسلم (٧١٥) واللفظ له من حديث جابر رضي الله عنه.
(٣) أخرجه الترمذي (٢٤٩٠)، وابن ماجه (٣٧١٦) من حديث أنس رضي الله عنه.
(٤) أخرجه مسلم (٢٣٢٩).
وجؤنة العطار: هي السقط أو السلة الذي فيه متاعه، وقيل: هي ما يعد فيه العطر.

وكان النبيُّ ﷺ وهو مُحْرِمٌ يعتني بذلك، تقول عائشةُ رضي الله عنها: «كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى وَبِيصِ الطِّيبِ فِي مَفْرِقِ النَّبِيِّ ﷺ، وَهُوَ مُحْرِمٌ»(١).

فكيف إذا كان حلالًا؟!

إن طِيب الرائحة معنًى مهمٌّ جدًّا، وهو رسالة عميقة للآخرين تدلُّ على نظافتِك وذوقِك، وعلى احترامِك لهم وعنايتِك بهم؛ ولهذا شرع النبيُّ ﷺ العناية بمظهر الجمالِ: «**إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ**»(٢).

الخلق الحسن:

يقول النبيُّ ﷺ: «تَكُفُّ شَرَّكَ عَنِ النَّاسِ، فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ مِنْكَ عَلَى نَفْسِكَ»(٣)، وهذا ليس خُلُقًا إيجابيًّا، فهناك درجات فوق ذلك، «إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاَقِ»(٤).

فالأخلاق قضيَّة جوهريَّة قيميَّة وحضاريَّة، والخلق الكريم هو الذي يُحبِّب الناس إلى الشخص، وإلى مبدئه والمعاني التي يحملها، ويدعو إليها.

والأخلاق هي حسن إدارة العلاقات مع الناس، وتجنب أسباب الخلاف؛ لأنَّ كثرةَ الخلاف والعتَاب تُزيل المحبَّةَ، وتُوجِد المَلَلَ والكراهية؛ ولهذا كان عبدُ اللهِ بن المبارك رحمه الله يقول:

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧١)، ومسلم (١١٩٠).
ووَبِيصُ الطيب؛ أي: لمعانه وبريقه.

(٢) أخرجه مسلم (٩١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٢٥١٨)، ومسلم (٨٤) واللفظ له من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أحمد (٨٥٩٥)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٧٣)، والحاكم (٢/ ٦٧٠)، والبيهقي في السنن (١٠/ ١٩٢)، وفي شعب الإيمان (٧٩٧٨).

إذا صاحبتَ في الأسفار قومًا فكن لهمُ كذي الرَّحِمِ الشفيقِ
ولا تأخذْ بعثْرةِ كلِّ قومٍ ولكنْ قُلْ هلمَّ إلى الطريقِ
فإن تأخذْ بهَفْوَتِهم تملَّ وتَبْقَى في الزمان بلا صديقِ

وإنَّ مِن حُسْن الْخُلُق أن لا تُكثِر العَتَب والمؤاخذة والملاحظة، بل والنصيحة، فكلَّما قابلَك صديقُك وإذا أنت قد ادَّخَرْتَ له نصحًا، وكأنَّك أنت الطاهر المُطَهَّر، وهو مجموعة مِن النقائص والعيوب، فلا بدَّ مِن العدل والتوازن.

ومِن معانيه الجميلة يقول:

وإذا صاحَبتَ فاصحَب ماجدًا ذا حياءٍ وعفافٍ وكَرَم
قوله للشيء: لا إن قلْتَ: لا وإذا قلْتَ: نعم قالَ: نعَم

وليس المقصود هنا الموافقة في الخطأ، وإنما الموافقة في كثير من أمور الحياة، كأنْ نجلس هنا أو هناك، أو نسافر، أو نقيم، أو نفعل هذا الشيء أو لا نفعله.. في كثير مِن تفاصيل الحياة التي ربما يؤثِّر الخلاف فيها على علاقة الأصدقاء فيما بينهم.

ولهذا جاء في قصة عمرو بن العاص وأبي عبيدة ﷺ: «أَمَرَنا رسولُ الله ﷺ أن نتطاوع، فواللهِ لئن عصيتَني لأطيعنَّك»[1].

فالعلاقة تقوم على أساس التطاوع والتسامح في الأمور التي ليس فيها إثم، ولا قطيعة رحم، ولا معاصٍ، ولا مضارّ، ولا تغيُّر في مواقف إيمانيَّةٍ أو حياتيَّة، وإنما هي تفصيلات في الحياة.

(١) المسند (١٦٩٨)، وجامع الأحاديث (٤٠/ ٤٩١).

والكلمة الطيبة صدقة وإحسان، يقول الله جل وعلا: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾، يعني: الأقارب والأهل، ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾، فإذا لم يكن مال ميسور فليكن قول ميسور جميل.

ويقول سبحانه: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾، والرسول ﷺ يقول: «**الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ**»[١].

فلنجعل شعارَنا الكلمةَ الطيِّبة، ولنجعلْ حديثَنا الكلمةَ الطيِّبة، ولنجعلْ صدقتَنا الكلمةَ الطيِّبة، وجزءًا من عبادتنا الكلمة الطيبة.

فلتقرأ نفسك قراءة دقيقة، ولتسبر أغوارها، وتلاحظ مواقفها وردَّات فعلها، ولتستعن بالله على ترويضها وتهذيبها.

فالنَّفسُ كالطفلِ إن تتركْهُ شبَّ على ... حُبِّ الرَّضاعِ وإن تَفْطِمْهُ يَنْفَطِم

وفي ترداد النظر في كتب السلوك والأخلاق، وسير العظماء، ومجالسة العلماء والنبلاء؛ أكبر محفِّز للارتفاع بالنفس، والرقيِّ بها إلى مراقي السعود، ومدارج الفلاح والنجاح.

(١) أخرجه البخاري (٢٩٨٩)، ومسلم (١٠٠٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فقه التدين

التديُّن: مأخوذ من الدِّين، وهو ممارسة الدين وتحويله إلى تطبيق عمليٍّ.

فالدين نزَل من السماء، ودين الإسلام هو الدين السماويُّ أيًّا كان، وهو دين موسى وعيسى والأنبياء عليهم الصلاة والسلام جميعًا؛ ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾.

وهو دين واحد، كما قال النبي ﷺ: «الأنبياءُ إِخوةٌ مِنْ عَلَّاتٍ[١]، وأُمَّهاتُهُم شتَّى، ودينُهم واحِدٌ»[٢].

لكن الشرائع تختلف، أما إذا زدنا التاء، وقلنا «التدين»، فهو تعبير عن الممارسة الإنسانيَّة، والتطبيق البشريِّ عن الالتزام بهذا الدين؛ وقد نقل ابن القيم عن الشيخ عبد القادر الجيلاني، أنه سُئل عن التصوف فقال:

هو أن تكون مع الحقِّ سبحانه وتعالى بلا خَلْق، وأن تكون مع الخلْق بلا نفس[٣].

(١) أولاد العلاَّت: هم الإخوة لأب من أمهات شتَّى، أما الإخوة من الأبوين فيقال لهم: أولاد أعيان.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٤٣)، ومسلم (٢٣٦٥) واللفظ له من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) انظر: مدارج السالكين (٢/ ٣٢٦).

وهذا التعريف على سهولته جميل، وهو يُعبِّر عن أن الدين جاء من أجل حفْظ الأنا؛ لئلا تزيد أو تطغى أو تتمادى في غيِّها على الآخرين، ومن أجل أن تبقى موجودة قائمة، وفتح المجالات في التعبير الرشيد عن هذه الأنانية.

ومعنى قوله: «أن تكون مع الحقِّ سبحانه وتعالى بلا خلق»: أن يقطع الإنسان عند مواجهته لربِّه في صلاته وخشوعه وخضوعه وعبادته النظرَ عن الناس، فلا يعمل رياءً ولا سمعة ولا تصنُّعًا، ولا يستحضِر الناس ولا يراعيهم، وإنما يكون مع ربِّه سبحانه وتعالى في خشوعه ودينونته.

وقوله: «وأن يكون مع الخلق بلا نفس»، أي في تعامله وسلوكه وعلاقاته بالآخرين، فيتجرَّد مِن حظِّ النفس والأنانية التي تجعله يطغى على الآخرين أو يستأثر عليهم، أو يحملهم ما لا يحتملون، ولا يقيمهم بناءً على موقفهم منه، نفعوه أو ضروه، ظلموه أم عدلوا معه، أساؤوا إليه أم أحسنوا، وهذا مستوى من العدل والإنصاف كبير، ولا يُدْرَك إلا بطول رياضة ومجاهدة للنفس وصبر شديد..

إن التديُّن فطرة، وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ**﴾، ثم قال: ﴿**فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا**﴾، ومن السنة ما يرويه النبيُّ ﷺ عن ربه عز وجل أنه يقول: «**وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ** -يعني: موحِّدين متدينين-، **وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنزِلْ بِهِ سُلْطَانًا**»[(١)].

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ»[(٢)].

(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٥) من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (١٣٨٥)، ومسلم (٢٦٥٨).

فالفطرة هي: الديانة، ولو أن الإنسان تُرِك وشأنه لاهتدى إلى الإيمان بوجود خالق مدبِّر؛ ولكنه لن يهتدي إلى كثير من تفاصيل الدين التي نزل بها الوحي، ونزلت بها الشرائع والكتب السماوية.

وكم وقف العقل البشريُّ أمام معضلات كثيرة عاجزًا محتارًا غير قادر على حلِّها، فيأتي الدين ليحلَّها.

والتديُّن فطرة من جهة أن أشواق النفس والقلب ورغباته لا يمكن أن تكتمل في هذه الدنيا؛ ولذلك يوجد فَرْقٌ بين مَن يؤمن بالآخرة، ومَن لا يؤمن بها، يقول تعالى: ﴿**إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ۝٤٦ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ**﴾.

فالذي يؤمن بالدنيا فقط، إنما يؤمن بثمانين أو تسعين سنة على الأكثر؛ لكن الذي يؤمن بالآخرة يؤمن إلى جوار هذا العمر المحدود بآماد وآباد لا نهاية لها، وإنما هو الخلود الأبدي الذي لا ينقطع ولا يفنى، إما في جنة عرضها السموات والأرض، أو في نار تلظَّى.

كم يجلب الإيمان والدين للنفس من الانفتاح والانشراح والسعة والشمول!

والتدين فطرة، من جهة أن الحياة مليئة بالمشكلات والمعوقات، والإخفاقات، والظلم والعدوان، ونقص في كثير من الأمور، فإذا جاء الدين أعطى القلب سلوانًا، والنفس راحة ورضى، ولذا يقول الشاعر:

الدِّينُ سَلْوَى النفْسِ في آلامِها وطَبيبُها مِنْ أَدْمُعٍ وَجِراحِ

فكم يجد الإنسان من ذلك في ظل الله سبحانه وتعالى حينما تدمع عينه، أو يخشع قلبه، أو يذل لسانه بذكر ربه سبحانه وتعالى، أو يتألَّه لهذا الرب

العظيم، أو يشكو إليه همَّه، أو ينتظر منه الفرج والعطاء، أو يشكره على النعماء وتجددها، يقول محمد إقبال:

إذا الإيمانُ ضاعَ فلا أمانَ ولا دنيا لمن لم يحيِ دينا
ومَن رَضِيَ الحياةَ بغيرِ دينٍ فقد جعلَ الفناءَ لها قرينا

فالذين جرَّبوا لذَّة التدين، يكون عندهم استحضار لهذه المعاني الدينية، هو مؤمن بها، وقد يغفل القلب، والنبي ﷺ قال: «**إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ**»(١).

ولكن يظل عند الإنسان ارتباط بالله سبحانه وتعالى، واعتراف، بالذنب، فهذه المعاني الفطرية جوهرية وضرورية، والشعوب التي فقدت الإيمان ضلَّت سواء السبيل، وإن كان عندها من التيسيرات المادية ما عندها؛ يقول بعض المؤرخين من خلال ملاحظة الفتوح والكشوف الجغرافية في بلاد العالم كلها: قد تجد مدينة بلا أسوار، وقد تجد مدينة بلا حصون، وقد تجد مدينة بلا مدارس، وقد تجد مدينة بلا قصور، لكنك لا تجد أبدًا مدينة بلا معابد!

قد يكون المرء متدينًا بالإسلام أو بالنصرانية أو باليهودية، فالتدين هو لزوم دين، ولكن الدين الحق هو دين الإسلام يقول جل وعلا: ﴿**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ**﴾.

والله تعالى شرع الدين الخاتم، ونسخ به الباطل مما نُسِبَ إلى الرسالات السابقة، أو كمَّل به النقص، كما قال سبحانه: ﴿**وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ**﴾، فجاء دين الإسلام خاتمًا للديانات، والنبي ﷺ خاتمًا للرسل، وأكمل الدين وأتم النعمة.

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٢) من حديث الأغر المزني رضي الله عنه.

وفي داخل المجتمع المسلم هناك مَن يمارس التدين بشكل قوي، فهو محافظ على الصلوات مع الجماعة، وعلى الصيام والرواتب والأعمال السلوكية الأخلاقية في التعامل مع الناس، فلا يغش ولا يخدع ولا يكذب، وفوق ذلك عنده الإحساس بشمولية التدين، فالدين للحياة، وللتجارة، وللصناعة، وللحضارة، وللبناء، ولكل شيء..

وهناك مَن هو دون ذلك، ممن قد يكون عنده جانب خاص فقط من التدين..

وهناك مَن يقع عندهم خلل في المفهوم، فالدين عندهم يُقصَر على الجانب السلوكي والأخلاقي، فيُوصَف بأنه متدين؛ لأنه ملتحٍ أو يدل مظهره على الالتزام بالسنة، وهذا من الدين، غير أن الدين أوسع من هذا، فقد يوجد آخر مثله، ولكنه يفوقه في صفاء القلب، وصدق النية، والقرب من الله سبحانه وتعالى.

إن من الناس مَن يُفرط في بعض السلوكيات، ويرتكب بعض الأخطاء والمعاصي، مع أن له رصيدًا من الأعمال الصالحة، كالبر، وصلة الرحم، والصلاة، والصدقة، وغيرها.. فيعدُّ نفسه غير ملتزم ولا متدين، حتى إذا ترك بعض الأخطاء، كالتدخين مثلًا، أو أقلع عن بعض المعاصي، وصف نفسه بالالتزام، بينما الالتزام والتدين أمر نسبي، ومَن ترك بعض المعاصي فهو في طريق الصواب وسبيل الترقِّي، والمشوار طويل، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾.

فالوصف بملتزم وغير ملتزم، ومتدين وغير متدين.. يُستخدَم في غير مَحَلِّه في الغالب، ولذا ينبغي أن يُضبَط هذا المصطلح.

إن الدين جاء من أجل تهذيب هذه الأنانية، وليس من أجل إلغائها؛ وفي الحديث «**إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاَثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، وَعِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، وَوَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**»(١).

ويقول الله جل وعلا: ﴿**وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ**﴾، وفي هذا حفظ للأنا العادلة التي تتحقق من خلال الإنجاز، ونفع الآخرين، ومن خلال العدل والإنصاف، والصدق، وغيرها من المعاني الصحيحة..

ولئن قلَّت الفرص المتاحة في الدنيا، وضاقت المواقع المهمة التي يتنافس عليها المتنافسون فيها، مما يبعث الحسد، ويوطن الحقد، ويستدعي البغضاء والكراهية، وقلة الإنصاف؛ فإن حال الآخرة حال مغايرة، فالمجالات كثيرة والمساحة المتاحة واسعة جدًّا، والفرص بعدد طلابها، بحيث يمكن لكل ساعٍ أن يسبق ويصل: ﴿**وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ**﴾، وليس هناك تعويق أو تعثير، ومَن يدرك قصب السبق لا يحجب غيره، ولا يحول بينه وبين الإدراك.

إن الدين جاء من أجل قمع الأنا الطاغية، والتي تمارس عدوانًا على الآخرين، أو ظلمًا لهم باسم الدين، أو توظيف الدين لمصالح شخصية، ومن أجل المحافظة على الأنا العادلة.

إن الدين يسمو ويتعالى على الأنا، سواءً كانت فردية أو أخذت صفة الجماعية، ولذا وجب الفصل بين الجانب الشخصي والجانب الديني، وأيًّا كان الشخص عالما أو حاكمًا، قائدًا أو زعيمًا؛ فإنه لا يكون هو الدين، وإنما في مقامه الذي جعله الله له.

(١) أخرجه مسلم (١٦٣١)، والترمذي (١٣٧٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وأحيانًا تأخذ الأنا صفة الجماعية، وذلك من خلال القبيلة، أو الطائفة، أو الحزب، أو الدولة، أو الشعب؛ بحيث يعدون الدين تمثيلًا لهم في أشخاصهم، فيبرز جانب الإقصاء للغير، ويتم توظيف بعض النصوص الدينية واحتكارها.

إن مَن ينتصر بالنصوص فيوظِّفها أو يؤوِّلها لدعم موقفه من شعب أو قبيلة أو بلد، إنما يحاول الحدَّ من اتساع دائرة الدين، وحجبه عن الآخرين، واحتكاره بغير وجه حق، وتشويه صورته السمحة ومنهجه العادل، وفي هذا ظلم للنفس وللناس وللدين، واتهام لرب العالمين.

ومن ذلك مَن يعيِّر أهل بلد لموقف تاريخي لا ذنب لهم فيه، أو مَن يختلف مع أحد من البادية، فيذكر قوله تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾، ولو شاء لقرأ قوله سبحانه في السياق نفسه: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾!

إن الدين ملكية للجميع لا يحق لأحد أن يُوظِّفه ضدَّ آخر، وإنَّ من تهذيب النفس الإقبال على العبادة، والدينونة لله سبحانه وتعالى، واستحضار عظمته في كل حال، وأنه مطَّلع عليك، لا تخفى عليه خافية، يقول جل وعلا: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، ويقول تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

إن التديُّن يكون بإذلال النفس أمام الله سبحانه وتعالى، ولهذا قال ابن تيمية رحمه الله في تعريف العبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة[١].

(١) انظر: العبودية (ص:٣)، ومجموع الفتاوى (١٠/ ١٤٩)، والفتاوى الكبرى (٥/ ١٥٤).

ومن ذلك: الذل والحب له سبحانه وتعالى، ولهذا قد يعمل الإنسان بالطاعة؛ لكن لا يظهر أثرها عليه، ولذلك نُقِل عن ابن عطاء ـ وهو من الحكماء ـ قوله: «ربما فُتِحَ لك بابُ الطاعة، ولم يُفْتَحْ لك بابُ القبولِ، وربما قُدِّرَ عليك المعصيةُ، فكانت سببًا للوصول»[١].

فبعض الناس يكون عنده عُجْب بسبب طاعاته، فيحتقر الناس، ويتعاظم في نفسه، فيحبط الله عمله، والنبي ﷺ قال: «**لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**».

والدين يطارد الكبر من النفوس، وقد عرَّفه النبيُّ ﷺ بقوله: «**الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ**»[٢].

فبطر الحق: أن يتكبَّر فيردَّ الحق؛ لأنه يرى نفسه كبيرًا فلا يُصحَّح له، ولا يُستدرَك عليه، فهو يحاكِم الآخرين ولا يحاكمونه، ويصحِّح لهم ويصنِّفهم، أما أن يراقِب نفسه فلا.

وَغَمْطُ النَّاسِ: أن يبخس الناس أشياءهم وحقوقهم، ويتجرَّأ عليهم، ويُسارع إليهم بالظلم والكذب، والعدوان والبغي، إلى غير ذلك.

فإذا أفرزت العبادة الظاهرة مثل هذا الكبر، فهي ليست في محلها؛ ولهذا قال: «فتح لك باب الطاعة، ولم يفتح لك باب القبول، وربما قدر عليك المعصية، فكانت سببًا في الوصول»؛ فبعض الناس يمكن أن يبتليه الله تعالى بذنب، حتى يتواضع وينكسر، ويعرف قَدْر نفسه، فيكون ذلك سببًا في أن

(١) الحكم العطائية، الحكمة الخامسة والتسعون.

(٢) أخرجه مسلم (٩١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

يقبله الله سبحانه وتعالى من باب الذل والانكسار، وليس من باب التعاظم والشعور بأنه قد صنع شيئًا عظيمًا.

إن من أبرز وأعظم ميزات التدين التي تظهر في قمع الأنا: أن تكون رقابة الإنسان على نفسه أكثر من رقابته على الآخرين.

وإذا كان مفتاح التدين هو كلمة التوحيد «لا إله إلا الله، محمد رسول الله ﷺ»، فإن التدين هو إفراد الله تبارك وتعالى بالعبادة، وفضح الآلهة المُدَّعاة..

والناس يعرفون الأوثان والأصنام، كاللّات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى، بإنها أصنام جاء الإسلام بتدميرها والقضاء عليها؛ لكن هناك إلهٌ كامنٌ في النفس يُعبَد، وهو الفرعونية في داخل النفس الإنسانية، وإذا لم تقمعها سيطرت عليك ولو باسم الدين؛ وفي بعض الآثار: «ما تحت أديمِ السَّماء من إلهٍ يُعبَدُ أشدُّ من هوًى يُتبَّعُ»[1].

ومصداق ذلك، قول الله سبحانه وتعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾، وهذا يتطلَّب من الإنسان أن يكون عنده مصباح كاشف، فيدخل في دهاليز النفس ويُراقبها، بحيث لا يَدَع لها فرصة أن تطغى أو تتمرَّد، أو تأبى الخضوع والانقياد للحق سبحانه.

إن مفهوم التدين في حقيقته مفهوم شمولي، فهو يُعالج منطقة القلب في الإصلاح، ويُعالج منطقة العقل، ويُعالج منطقة الجسد، وذلك بضبط الحلال والحرام في المأكل والمشرب، والمنكح والملبس، وغير ذلك.

(١) انظر: السنة لابن أبي عاصم (٣)، والمعجم الكبير للطبراني (٧٥٠٢)، وذم الهوى لابن الجوزي (ص: ١٩)، وفي الموضوعات له (٣/ ١٣٩) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه مرفوعًا.

وقد كان بعض السلف يعبِّرون بالسجدة الواحدة أن العمر يمضي كله سجدة واحدة، فالسجدة رمز للتدين، والإنسان إذا سجد، ولو كانت سجدته قصيرة، إلا أن معناها الاعتراف بالله الواحد الأحد سبحانه، والاعتراف للنفس بالذل والعبودية له جل وعلا، وهي لا تُقاس بطولها أو قصرها، وإنما العبرة بالمعنى، فالسجود رمز للعبودية لله سبحانه وتعالى، وهذا جاء واضحًا في الإسلام، ففي الحديث: «**إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ السَّجْدَةَ فَسَجَدَ، اعْتَزَلَ الشَّيْطَانُ يَبْكِي يَقُولُ: يَا وَيْلَهُ! أُمِرَ ابْنُ آدَمَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ، فَلَهُ الجَنَّةُ، وَأُمِرْتُ بِالسُّجُودِ فَأَبَيْتُ، فَلِي النَّارُ**»[(١)].

والله سبحانه وتعالى يقول للنبي ﷺ: ﴿**وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب**﴾، وفي الحديث الصحيح: «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ**»[(٢)].

فالسجود هو ذروة العبادة، وهذا المعنى التعبدي يمكن أن نُضفِيَهُ على الحياة كلها، فالتدين الحق ليس ازدواجية في المعايير، بحيث يكون الإنسان متدينًا في المسجد، ولكنه سبع ضارٍ في السوق، أو في المنزل.

إن التدين لا بد أن يظهر على جوارح الإنسان وسلوكه، وعلى لغته ولسانه ونظرته، والنبي ﷺ يقول في الحديث الصحيح: «لاَ يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَشْرَبُ الخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ»[(٣)].

إن الإنسان حينما يمارس خطأً، سواء كان هذا الخطأ أخلاقيًّا، مثل الزنا، أو

(١) أخرجه مسلم (٨١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٤٨٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٥٥٧٨)، ومسلم (٥٧) واللفظ له، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

السرقة، أو شرب الخمر، أو الكذب، أو العقوق، أو كان خطأً تجاريًّا بالغشِّ، أو وظيفيًّا بعدم القيام بالعمل، أو اجتماعيًّا بالتقصير في حق أو الزوجة أو الأولاد، أو خطأً سلوكيًّا بالإخلال بنظام المرور، أو الإخلال بنظام الذوق العام الذي يجب رعايته في المجتمع..؛ فإنه في تلك اللحظة لم يأخذ مشورة الإيمان فيما يجب أن يعمله، ولم يستحضر معناه، وهذا ما يُعبَّر عنه بـ «الازدواجية».

والإنسان ليس معصومًا، فهو بشر يقع منه الخطأ في مثل هذه الأمور؛ لكن هناك فَرْقٌ بين مَن يخطئ ويُصحِّح، ومَن يُخطئ ويعرف أنه يخطئ، وبين آخر يَرَى أن هذه الأشياء ليست داخلة في مفهوم الدِّين أصلًا، فهو قد اختزل مفهوم الدِّين في شعائر معينة، وهذا من أخطر ما يكون، فمعظم مجتمعات بلاد الإسلام وعبر عصور مضت، أُختُزِلَ الدين عندها في المفهوم التعبدي المحض كالصلاة والصيام، وبعضهم اختزل الدين في المظهر فقط.

فمن الخطأ الكبير اختزال الدين في جزئية معينة، ومحاكمة النفس والناس إليها، بحيث إذا فعلها الإنسان ظن أنه قد بلغ النهاية، وأصبح يُحاسب الآخرين على هذا الأساس.

كما أن بعض الناس غفل عن الجانب الإنساني، وهذا معنى خطير، فالله تعالى جعل الإنسان إنسانًا قبل أن يكون مؤمنًا أو مسلمًا، وفي القرآن الكريم جاء الخطاب بـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، قبل الخطاب بـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وفي مكة المكرمة كان هناك تركيز على المعاني الإنسانية الفطرية، وأن الدين جاء لتدعيمها، يقول الله جل وعلا: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾، فالذي يكذب بالدين مذموم، ويتصف بصفات ممقوته، وأول ما وصفه الله به بقوله:

﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾، وفي هذا إشارة إلى فقدان المعاني العاطفية؛ لأنه يدعُّ اليتيم، أي يدفعه، ويقول له قولًا شديدًا.

ثم قال في وصفه: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾، وهذا معناه أنه لا يقوم بمواساة الآخرين بالمال، أو بالطعام.

إنك لن تجد نقيضًا بين التدين والإنسانية إلا عند النصارى، يقول تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾، أو عند المشركين الذين كانوا يستغربون أن يكون الرسول أو النبي بشرًا يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق..

أما المؤمن الموحِّد، فلديه المعاني الإنسانية الفطرية الحقيقية، سواءً كانت معاني عاطفية أو أخلاقية أو مادية، حتى قال النبي ﷺ: «**فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ**»[(١)].

فكلمة «الإنسانية» صار لها ظلّ غريب، وصار الناس يظنون أنها مسكونة بمعانٍ خطيرة وسيئة، حتى كأنها نقيض للدين! وذلك لا يرجع للمفهوم الشرعي.

كما أنَّ من الناس من لا يعتقدون أن الدين جاء بتحصيل المعرفة، مع أننا أمة: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾، ولا يظنون أن الإسلام جاء بتحصيل المال، مع أننا أمة: «**نِعْمَ المَالُ الصَّالِحُ لِلْمَرْءِ الصَّالِحِ**»[(٢)].

بل لا يظنون أننا أمة جاءت بتحصيل التقنية والصناعة!

إن الله سبحانه وتعالى يذكر لنا بعض الأنبياء، وكيف كانوا يصنعون الصناعات

(١) أخرجه البخاري (٢٣٦٣)، ومسلم (٢٢٤٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (١٧٧٦٣)، وابن حبان (٣٢١٠) من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه.

المتقنة، فقال عن داود عليه السلام: ﴿أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾.

فالمعرفة من التدين، والنظافة من التدين، والجمال من التدين، والتقنية والتصنيع والتقدم الحضاري والمادي كذلك، والأمر المحزن أن كثيرين ليس لديهم استعداد أن يُوسِّعوا مفهوم التدين عندهم ليشمل هذه المعاني.

التدين هو علاقة قلبية، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾، وفي صحيح مسلم يقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إِنَّ اللَّـهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»[(١)].

إن من أهمية التدين وعظمة معناه: أن الجائزة على إقامته هي جنة عرضها السموات والأرض، وفيها: «مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»[(٢)]، مع الخلود الأبدي الذي لا نهاية له، أما مَن يعرف الحق ثم يصدُّ عنه، فالعقوبة هي نار تلظَّى.

فهذا المعنى على سهولة فهمه، وأنه مما اتفقت عليه الديانات السماوية كلها، يوجب على الإنسان أن يكون عنده قدر من التدين، من خلال علاقة قلبية بربه سبحانه وتعالى، تفيض على الجوارح، وتتمثل في السلوك.

إن التدين فيه بداية ووسط ونهاية.. فالإنسان يبدأ في التدين، ثم يتدرَّج ويرتقي، وفي الحديث: «اقْرَأْ وَارْتَقِ، وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا»[(٣)].

والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ﴾.

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: صحيح البخاري (٣٢٤٤)، وصحيح مسلم (٢٨٢٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أبو داود (١٤٦٤)، والترمذي (٢٩١٤)، وابن حبان (٧٦٦)، والحاكم (١/ ٥٥٢-٥٥٣) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

إن الإنسان لا يستطيع أن يحصل على التدين دفعة واحدة، وإنما عليه أن يسلك هذا الطريق ويصبر ويصابر، فإدراك الإنسان لأسرار التدين، وللمقاصد العظيمة، لا يتم إلا من خلال الصبر والمصابرة.

إنه مشوار طويل لا ينتهي أبدًا حتى يموت: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾.

ومن رحمة الله سبحانه وتعالى أن جعل أساسيات الدين سهلة، فأركان الإيمان وأركان الإسلام يفهمها العربي والعجمي، والمتعلم وغير المتعلم، والكبير والصغير؛ لأنها قدر مطلوب متَّفق عليه عند الناس؛ لكن العلم بهذه الأشياء وممارستها، لا يعطي الحق لأحد أن يصبح ناطقًا باسم الدين، ومتكلِّمًا في كل القضايا؛ ظانًّا أن هذا أمر سهل؛ إذ هناك فرق بين القدر المتاح للناس كلهم من الدين، وهو قدر ميسور، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ﴾، وبين التفاصيل العميقة التي تحتاج إلى رسوخ علمي: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا﴾، ويقول جل وعلا: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ﴾، وهناك من يخلط بين هذا وهذا!

إن الخطاب الديني لا يزال فيه جانب من الاختزال والانتقائية، فهناك حديث معمَّق وطويل حول جوانب معينة تتعلق بالعبادة، فكم كُتِبَ في أمر الطهارة والصلاة من المجلدات؛ لكن لماذا لا يكون عندنا أيضًا مجلدات في الأحاديث عن الجوانب الأخلاقية في الإسلام، وعن الجوانب المعرفية، وعن الجوانب الإنسانية، وعن جوانب الحقوق، بحيث يفهم الناس أن الدين جاء لإصلاح الحياة كلها؟!

فالدين لم يأتِ ليعلمنا كيف نتوضأ ونصلي فقط، بل جاء ليعلِّمنا أيضًا

كيف نُصفي قلوبنا، ونُقبِل على نفوسنا ونرتقي بها، ونُحصِّل العلم، ونُحصِّل المال، وكيف نصرفه، وكيف نبني الحياة والحضارة، وكيف نتعامل مع الموافق والمخالف.

إن الدين جاء من أجل أن يفتحنا على الحياة كلها، وليس من أجل أن يعلِّمنا كيف نموت فقط.

إن القرآن الكريم الذي يُقرأ في المآتم وعلى القبور، جاء ليعلِّمنا الحياة، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ**﴾، أي حياة القلوب والأبدان، وحياة الفرد والمجتمع.

حب الحياة:

أغلب ما ذُكِرَ الحب في القرآن في مقام المدح، والحب شعور إنساني نبيل، والممارسة الخاطئة لا ينبغي أن تجور على أصول المعاني، وحب الحياة بشكل أوسع، يقول النبي ﷺ: «**وَإِنَّهُ لاَ يَزِيدُ المُؤْمِنَ عُمْرُهُ إِلاَّ خَيْرًا**»(١).

لما سئل ﷺ: أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟ قال: «**مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ**»(٢).

فالله سبحانه وتعالى شاء أن يخلق إنسانًا، وأن يبتليه وأن يطلب منه أن يعبده تعالى، وأن يتحرك قلبه بحبه سبحانه، فمِن جمال الحياة أن يحب الناس الحياة، ويقرؤون فيها جانبها الإيجابي.. يحبون الحياة بما فيها من ذكر الله، ولما فيها من المتعة، فمَن ذا الذي لا يحب بقاء والديه على الحياة؟

ومَن هو الذي لا يحب أولاده؟

فيا لله كم في الحياة من مباهج وجمال.. جمال ذكر الله، وجمال مشاهدة

(١) أخرجه مسلم (٢٦٨٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الدارمي (٢٧٤٢)، والترمذي (٢٣٣٠) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

خلق الله، وجمال الصحبة الطيبة، وجمال السعادة التي تنبثق من قلب الإنسان، وجمال الإحسان للآخرين، وجمال العلم والمعرفة والتذوق، وأشياء كثيرة جدًّا.

لقد استفاد الناس من حضارة المسلمين، والحضارة الإنسانية مدينة للإسلام، لكن ماذا استفاد الناس منا في عصرنا الحاضر؟

قد يرى كثيرون أننا صدَّرنا لهم بعض المعاني السلبية، وبعض ممارسات القتل والعنف، إلى غير ذلك من المعاني التي بموجبها صار هناك اختطاف لمفهوم الدين الحق، بعيدًا عن المفهوم الرباني الذي كان يتلقَّنه الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وكانوا يلقِّنونه لمن بعدهم، وجميل أن نقف عند هذه الآية الكريمة، ومهما كرَّرناها فلا حرج، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾، فهذا نفي وإثبات، ليس إلا رحمة، وليس للمسلمين فقط، وإنما للعالمين.

فينبغي أن نكون نحن تطبيقًا عمليًّا لمفهوم هذه الرحمة.

فقه الاستطاعة

الاستطاعة وضوابطها:

يقول الله جل جلاله: ﴿.. رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

وفي كل ذلك كان ربُّنا سبحانه وتعالى يقول: «**قد فَعَلْتُ، قد فَعَلْتُ**»[1].

وهذا الدعاء هو خير ما يعبِّر عن المقصود.

إن الأمة ليست في مرحلة تمكين بحيث تدرس فقه التمكين -وقد دُرِس- ولكنها في مرحلة ضعف، ومع هذا الضعف هناك محاولات للنهوض جزئية أو كلية في جانب من جوانب الحياة، أو في موقع من أرضها، ويوجد من أفرادها مَن لديهم الهمة والإرادة لذلك، ويلزم مع وجود أهداف لدى هؤلاء الطامحين للنهوض، أن يكون عندهم فقه الاستطاعة الذي يعرفون من خلاله مقدار الممكن وغير الممكن، وحدود المقدور وغير المقدور..

(١) أخرجه مسلم (١٢٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وأخرجه مسلم (١٢٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بنحوه.

إن فقه الاستطاعة هو فقه الوُسع مع القدرة، وهو فقه المَلْك، ﴿قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا..﴾.

فالله سبحانه وتعالى لا يكلف الإنسان ما لا يملكه، ولا يكلفه إلا ما كان في دائرة قدرته وطوقه، والفقهاء والأصوليون مجمعون على أنه لا تكليف مع العجز[١].

إن مسألة التكليف بما لا يطاق بحث نظري في أصول الفقه، وربما لا يمكن إيجاد أمثلة عملية له، إلا أمثلة نظرية ليس لها علاقة أو مساس بواقع الناس، والواجبات الشرعية لا تتوجَّه إلا على القادر، ولهذا يقول النبي ﷺ عن الصلاة: «**صلِّ قائمًا، فإن لم تستطعْ فقاعدًا، فإن لم تستطعْ فعلى جنب**»[٢]. والزكاة لا تجب إلا على واجد المال، ويقول ربنا سبحانه وتعالى عن الصوم: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾، ويقول ربنا سبحانه عن الحج: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾.

فالأمر مرهون بشرط الاستطاعة في جميع الواجبات الشرعية.

التضييق على الناس:

حين نقدم للناس الدين كما أنزله الله سبحانه وتعالى، وكما هو في مُحْكَم الكتاب والسنة؛ فإن علينا ألا نغفل عن الجانب الآخر، وهو الواقعية التطبيقية، وما يعتريها من نقص؛ لأن الله سبحانه وتعالى أنزل هذا الدين للبشر، والبشر جُبِلوا على الضعف، بل ليس صدفة أن يكون هبوط آدم أبي البشر عليه السلام

(١) المحيط البرهاني (٢/ ٣٤)، الحاوي الكبير (٢/ ٨٨).

(٢) أخرجه البخاري (١١١٧) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

من الجنة نتيجة خطأ الأكل من الشجرة، فالحياة البشرية فيها جانب الأزمة، وهو جانب مستقر فيها، وفيها جانب الخطأ، وهو جزء من الكينونة البشرية، حتى قال النبي ﷺ: «**لو لم تذنبوا لذهبَ اللهُ بكم، وجاء بقومٍ يذنبون، فيستغفرون، فيغفرُ اللهُ لهم**»(١). و«الغفور» من أسمائه سبحانه وتعالى.

وهذا معناه أننا حينما ندعو الناس إلى النموذج الإيماني، ينبغي أن تكون دعوتنا مراعية الواقعية التي تقرِّب للناس إمكانية التطبيق.. فلا نجعلهم أمام صورة لا يستطيعون الوصول إليها.

ومَن قرأ سيرة النبي ﷺ يحسُّ بقرب حياته وإمكانية التطبيق لها، فالنبي ﷺ «كان يصوم حتى يقال: لا يفطر، ويفطر حتى يقال: لا يصوم»(٢)، وكان عليه السلام يداعب أهله، ويلاعب الأطفال ويضاحكهم، ويخرج إلى السوق، ويتعاطى مع الناس بعفويَّة كاملة.

بيد أنك حين تقرأ سِيَرَ بعض العظماء، تحسُّ أنك أمام جبل تحاول أن ترقاه، وقد تستطيع أو لا تستطيع؛ لأن طبيعتهم البشرية الصارمة تجعل بينهم وبين الناس حاجزًا.

الاستطاعة والتيسير وفقه الأقليات:

إن فقه الاستطاعة فقه عظيم الأهمية في هذا العصر، وفيما يليه من العصور؛ لأننا بحاجة إلى فقه العصر الذي نعيش فيه، ولذلك يجب أن يكون فقه الاستطاعة محلَّ عناية، وأن يعالجه المختصُّون.

(١) أخرجه مسلم (٢٧٤٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (١٩٦٩)، ومسلم (١١٥٦) من حديث عائشة رضي الله عنها، وأخرجه البخاري (١٩٧١)، ومسلم (١١٥٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

والذي أعنيه بفقه الاستطاعة: ما يتعلق بالقضايا العامة التي تمسُّ الناس جميعًا، أو ما يسمِّيه الفقهاء: بـ «الأحكام السلطانية»، والتي كتب الأئمة السابقون عنها، كأبي يعلى والماوردي وابن القيم وغيرهم، ومنها الأحكام المتعلِّقة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فنجد قول النبي ﷺ: «**مَن رأى منكم منكرًا فليغيِّرْهُ بيدِه، فإن لم يستطعْ فبلسانِه، فإن لم يستطعْ فبقلبِه**»[(١)]، فهي مراتب مرهونة بالاستطاعة كذلك..

وكذلك قضايا السياسة الشرعية، ومنها الجهاد، فهي مرهونة بالاستطاعة، وحين يُكَلَّف الفرد بشريعة، فإن ذلك مرهون بقدرة المجتمع والأمة والدولة.

وقول النبي ﷺ: «**مَن رَأَى منكم مُنكرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بيدِه، فإن لم يستطعْ...**»، ليس المقصود بالقدرة وجود القوة، وإنما مع ذلك معرفة الأثر المترتِّب على هذا الفعل، فشعيب عليه السلام يقول: ﴿**إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ**﴾.

فالأنبياء في مقام الإصلاح، والإصلاح العام مربوط أمره بالاستطاعة والقدرة، والنبي ﷺ يقول لعائشة رضي الله عنها: «لولا أن قومَك حديثٌ عهدُهم في الجاهليَّةِ، فأخاف أن تُنْكِرَ قلوبُهم، لنظرت أن أُدْخِلَ الجدرَ في البيتِ، وأن ألزقَ بابَه بالأرضِ»[(٢)]. فهو قادر ﷺ من حيث وجود المال والسلطة، ولكنه أرجأ تنفيذ هذا الحكم؛ لأنه يعتري الفعل مفسدة أرجح، فتركها النبي ﷺ مع تطلُّعه وتشوُّقه لذلك.

ومن أصول فقه الاستطاعة التي توضِّحه بشكل جلي: موقفه ﷺ من المنافقين الذين ثَبَتَ عليهم المؤامرة والغدر بالإسلام، والخيانة العظمى؛

(١) أخرجه مسلم (٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (١٥٨٤)، ومسلم (١٣٣٣) واللفظ له من حديث عائشة رضي الله عنها.

حتى قالوا: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾، وتآمروا مع اليهود عليه، فجاء عمر رضي الله عنه، فقال: يا رسولَ اللهِ، دَعْني أضربْ عنقَه، فلم يقل النبي صلى الله عليه وآله وسلم: لا؛ لأنه لا يستحق القتل، وإنما قال: «**لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتلُ أصحابَه**»[(١)].

فترك هذا الحكم تجنبًا لحملة إعلامية عليه صلى الله عليه وآله وسلم، والمقصود بالناس هنا: غير المسلمين ومن ينفرهم سماع ذلك عن الإسلام، وهذا يؤكد أن الاستطاعة ليست هي القدرة المادية فقط، وإنما هي أمر أبعد من ذلك، وهو أن يكون الظرف والمناخ مناسبًا للحكم.

أما فقه التيسير: فيُفْهَمُ من قول عائشة رضي الله عنها: «ما خُيِّرَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم بين أمرين إلا أخذ أيسرَهما ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثما كان أبعدَ الناسِ منه»[(٢)].

فإذا كان الإنسان عنده حكمان متقابلان، ولا يوجد ترجيح لأحدهما على الآخر، فالتيسير هنا مرجِّح؛ لأن الله سبحانه وتعالى قال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾، والنبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**إنَّ هذا الدِّينَ يسرٌ**»[(٣)]، فوَصَفَ الدين بأنه يسر، ولكن لم يَرِدْ في أيِّ نصٍّ وَصْفُ الدين بأنه مشقة، أو عسر، أو شدة على سبيل الإطلاق.

إن التيسير ليس في الفتوى فقط، وإنما التيسير في جوانب الحياة كلها، فتيسير الأب على أبنائه، وتيسير الحاكم على رعيَّته، والتيسير في الجانب

(١) أخرجه البخاري (٣٥١٨)، ومسلم (٢٥٨٤) من حديث جابر رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري (٣٥٦٠)، ومسلم (٢٣٢٧).
(٣) أخرجه البخاري (٣٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الإداري، وتخفيف ما يُسمَّى بالبيروقراطية[١] كله من الدين.

فالتيسير جزء من الشريعة، وعمر رضي الله عنه كان يقول: «إنني سألت النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن الكلالة، وإني إن أَعِشْ أقضِ فيها بقضية يقضي بها مَن يقرأ القرآن، ومَن لا يقرأ القرآن»[٢].

فالتيسير المعرفي، وتسهيل وصول العلم للناس، مطلب شرعي، والتيسير ليس خاصًّا بالفتوى، وإنما هو في عموم الحياة.

فقه الأقليات:

فقه الأقليات يقوم على ثلاثة أركان:

الأول: متصل بفقه الشريعة؛ لأن الله سبحانه وتعالى قد بيَّن كل شيء، ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾، والمسلمون أنفسهم كانوا أقلية في مكة، وكانوا أقلية في المدينة، وأقلية في الحبشة، فهناك نماذج يمكن أن يُستنار بها فيما يتعلق بهذا الجانب.

الثاني: ما يتعلق بفقه الاستطاعة؛ لأن المسلم الذي يعيش بين ظهراني المسلمين يستطيع أشياء كثيرة جدًّا لا توجد في كثير من المجتمعات الغربية

(١) البيروقراطية: مصطلح لاتيني ابتكره العالم الألماني (ماكس ويبر) (max weber)، وهي عبارة عن نظام إداري صلب، يقوم على ثلاث نقاط أساسية:
١- هرم قيادي تسلسلي.
٢- تقسيم العمالة تقسيمًا كاملًا.
٣- قواعد وخطوات للعمل لا يمكن تغييرها إلا بصلاحية من الإدارة.
وهو نظام صلب لا يتقبل الأفكار الحديثة بسهولة، وفه تقليص للصلاحيات، مما يسبب بطئًا في إصدار القرارات، كما أن هذا النظام لا يتجاوب مع التغيرات الحديثة.

(٢) أخرجه مسلم (٥٦٧، ١٦١٧).

التي تعيش فيها أقليات إسلامية، ففقه الاستطاعة وثيق الصلة بفقه الأقليات.

الثالث: جانب التيسير، فالذي يعيش في بيئة غير إسلامية أحوج إلى التيسير من الذي يعيش مع المسلمين، ولأنه لا يجد مُعينًا على الخير، كما جاء في الأثر: «**إِنَّهُم لا يجدونَ على الخير أَعْوَانًا، وأنتم تَجِدُونَ على الخير أَعْوَانًا**»(١).

العزيمة وفقه الاستطاعة:

إن من أعظم ما وُصِفَ به النبيُّ ﷺ أنه جاء ليضع الآصار والأغلال التي كانت على الأمم قبلنا، وهذا له تفاصيل كثيرة جدًّا في العبادات والمعاملات، وكان النبي ﷺ ينهى أصحابه عن التشديد، فما رأى في المسجد حبلًا ممدودًا بين ساريتين قال: «**ما هذا؟**»، قالوا: حبل لزينب فإذا فترت تعلَّقت به، فقال النبي ﷺ: «**لا، حلُّوه؛ ليصلِّ أحدُكم نشاطَه، فإذا فَتَرَ فليقعُدْ**»(٢).

ونَهَى النبيُّ ﷺ عن الوصال، فلما صاموا معه، واصل بهم مغلظًا عليهم، وقال: «**لو تمادَّ لي الشَّهرُ لواصلتُ وصالًا يدع المتعمِّقُون تعمُّقَهم**»(٣)، يريد بهذا أن يربِّي أصحابه على العفوية وعدم التكلف.

ولما جاء الناس يشتكون إطالة معاذ بالصلاة، دعاه النبي ﷺ وقال: «**أفتَّانٌ أنت يا معاذُ؟ إذا صَلَّيتَ بالنَّاسِ فاقرأْ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾، ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾، ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ﴾، وإذا صلَّى أحدُكم لنفسِه؛ فليطوِّل ما شاء**»(٤).

وفي حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا صلَّى أحدُكم للنَّاس فليخفِّفْ، فإن منهم الضَّعيفَ والسَّقيمَ والكبيرَ، وإذا صلَّى أحدُكم لنفسِه؛**

(١) المفهم (١/ ٥٠٣).
(٢) أخرجه البخاري (١١٥٠)، ومسلم (٧٨٤) من حديث أنس رضي الله عنه.
(٣) أخرجه البخاري (٧٢٤١)، ومسلم (١١٠٤) واللفظ له، من حديث أنس رضي الله عنه.
(٤) أخرجه البخاري (٧٠٥) واللفظ له، ومسلم (٤٦٥) من حديث جابر رضي الله عنه.

فليطوِّلْ ما شاء»[١]، فمن كان عنده عزيمة فليخصَّ بها نفسه، ولا يحمل عليها أحدًا، حتى زوجه وأولاده لا يحملهم على عزائمه، فضلًا عن عامَّة الناس.

وعلاقة هذا بفقه الاستطاعة: أن بعض الدعاة عندهم عزيمة وطموح وأهداف راقية؛ ولكنها لا تستطيع تطبيق هذه العزائم في واقع الحياة، فتحمل الناس على أمر فيه عسر ومشقة.

وإن من الإخفاقات السياسية والحضارية في تاريخ الأمة، ما هو مرتبط بهذا المعنى، وبالغفلة عن قراءة الواقع قراءة صحيحة، ومن القصص التي تُروى عن ابن تيمية رحمه الله، أنه لما غزا التترُ البلادَ الإسلامية، مرَّ هو وبعض طلابه ببعض جند التتر وهم يشربون الخمر، فهمُّوا أن ينهوهم عن شرب الخمر، فقال: دعوهم وما هم فيه؛ لأن الخمر تصد المسلم عن ذكر الله وعن الصلاة، أما هؤلاء فتلهيهم عن سفك الدماء وانتهاك المحرمات[٢].. فهذا أهون من أن يقعوا فيما هو شر من ذلك.

فالنهي بحد ذاته مقدور، ولكن ما يترتب عليه أمر معتَبَر، والأهداف والطموحات، سواءً كانت فردية أو أهدافًا لجماعة أو لدولة، ينبغي أن تستحضر في ضمن إمكانياتها الواقعية والواقع الدولي، والقَدْر الذي يسمح به.

ضابط الاستطاعة:

الأمة أصبحت مشتَّتة، فالحكومات في جهة، والشعوب في جهة أخرى، والعلماء أحيانًا في جهة ثالثة، ولا بد أن يكون هناك وعاء جامع، والأمل بالله، ثم بالفقهاء والعلماء الربانيين المخلصين الذين لا ينساقون لمصالح السياسة

(١) أخرجه البخاري (٧٠٣) واللفظ له، ومسلم (٤٦٧).

(٢) انظر: أعلام الموقعين (٣/ ٥).

لطمع أو لدنيا، ولا يُساقون أيضا لأهواء العامَّة وتطلُّعات الشارع التي قد تكون غير واعية في كثير من الأحيان، فعلى أيديهم يمكن أن يلتئم الصدع، ويتوحَّد الصف، ويُدْفَع اليأس والإحباط، وتستنير الأبصار والبصائر.

إن قضية تحديد الأهداف ووضوحها قضية مهمة.. فهل المطلوب حين نقاوم في بلد ما أن نلحق الأذى بالمحتل فقط؟ هذا احتمال، وله باب وطريق.

أم المطلوب أن يتم طرد المحتل؟ وهذا له باب وطريق.

أم المطلوب أن يكون هناك كيان يقوم في هذا البلد ويُحْدِث النقلة، ويحقق العدالة، ويطبق الشريعة؟ وهذا أيضا له باب وطريق.

وهذا يَدُلُّ على خطورة هذا الفقه، ويكفينا أن نقول للناس: ابحثوا في هذا الموضوع، وليس أكثر.

إن فقه الاستطاعة ليس تكأة أو مهربًا، ولكن بدلًا من أن تكون تجاربنا متعسِّفة، أو أن نضرب رؤوسنا في الجدران أحيانًا، أو أن نتصرف بردود أفعال وإدمان لحالات الطوارئ، فإن علينا أن ننتقل من ذلك إلى دائرة الفعل - وليس ردّ الفعل- وأن يكون لدينا خارطة واضحة نعرف من خلالها إلى أين نتجه، وما الأهداف المرسومة، وما المقدور عليه منها، والله سبحانه وتعالى لم يكلِّفنا إلا بما هو بمقدور، كما قال سبحانه: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾، وإذا كان قوله سبحانه: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ خطاب للفرد، فإن قوله سبحانه: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ خطاب للأمة، والمطلوب منا هنا التقوى.

والتقوى في السياسة تكون بالعدل بين الناس وإيصال الحقوق، وتوفير الخدمات، وترفيه المواطن بقدر المستطاع، والعدالة والمساواة، والحرية،

كل هذه من أصول السياسة.

وفي الاقتصاد هناك تقوى، وفي الدعوة تقوى، وفي العلاقة الأسرية، والعلاقات الدولية هناك تقوى؛ لكن التقوى المطلوبة منا مربوطة بالاستطاعة؛ لأن هناك درجة من التقوى مثالية قد لا نكون قادرين على الوصول إليها.

فقه الاستطاعة والتدرج:

لما قال ربنا سبحانه: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾، كان بعض المفسرين والعلماء يقول: إن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يخلق السموات والأرض بقوله: كن فيكون، ولكن هذا الخَلْق المتأني يعلمنا التريُّث[١]، وهذا نوع من التفسير الإشاري.

وكذلك التدرج في الأحكام، كالتدرج في تحريم الخمر، وهذا يعلِّمَنا أن الأحكام مرهونة بالقدرة، وأن الأحكام لها أسرار، ولها شروط، وإذا لم يوجد الشرط، فإن الحكم لا يتوجَّب.

وحين نتحدث عن الجهاد، فإن هناك الآيات القرآنية التي تأمر بالجهاد، وهناك آيات الصبر والعفو في المقام الآخر: ﴿كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، وما يتعلق بذلك، وأعدل أقوال العلماء: أنها ليست منسوخة[٢]، وينبغي ألا يصار إلى القول بالنسخ؛ لأن النسخ إبطال بعض الأحكام الشرعية ودلالات بعض الآيات القرآنية أو النصوص النبوية، ولكن يقال: إن كل أمر منها مرتبط بحالة معينة وبظرف من الظروف، ينبغي أن يُضْبَط ويُحْكَم فيه.

وكثير من الأحكام مربوطة بوجود السلطة الإسلامية الجامعة التي توحِّد

(١) انظر: تفسير فتح القدير (٢/ ٣٠٧).

(٢) انظر: أحكام القرآن، للجصاص (١/ ٣٢٠).

المسلمين، وتقوم بهذا العمل، والنبي ﷺ يقول: «**الخلافةُ في أُمَّتِي ثلاثون سنةً، ثم مُلْكٌ بعد ذلك**»[١]، وهذا الحديث يشير إلى أن الخلافة فترة معينة، ثم زالت.

ولما انتهت الخلافة الراشدة، عاش أناس كثيرون فترة طويلة وهم يحلمون أن تعود إليهم، وبعد ذلك سقطت دولة بني أمية، وجاءت دولة العباسيين، ثم دولة المماليك، فالعثمانيون، إلى آخر ذلك.. فإن نتصور أن اسمًا أو لافتة معينة سرمدي وأبدي ليس صحيحًا، حتى الخلافة نظام يتغير بتغير أحوال البشر.

بين الاستطاعة والتشديد:

التشديد ليس بفضيلة، حتى مع النفس؛ لأن النفوس إذا كلَّت عميت، والنبي ﷺ يقول في حديث حنظلة رضي الله عنه: «**يا حنظلةُ، ساعةً وساعةً، ولو كانت تكون قلوبُكم كما تكون عند الذِّكرِ؛ لصافحَتْكُمُ الملائكةُ**»[٢].

ولا أظن أن في هذا الحديث تحفيزًا إلى هذا الفعل؛ ولكن فيه إشارة إلى الانتقال من المرحلة الإنسانية إلى المرحلة الملائكية، وهذا لم يُخْلَق الإنسان له، فالإنسان خُلِقَ بشرًا، يخطئ ويصيب، وتعتمل في نفسه الشهوة؛ حتى إن عمر رضي الله عنه كان يقول: «إن الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها ﴿**أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ**﴾[٣]. فالإنسان ينجح مرة

(١) أخرجه أحمد (٢١٩١٩)، والترمذي (٢٢٢٦) واللفظ له، والنسائي في الكبرى (٨١٥٥)، وابن حبان (٦٦٥٧) من حديث ثوبان رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٥٠) من حديث حنظلة الأسيدي رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد في الزهد كما في تفسير ابن كثير (٧/ ٣٦٨)، والدر المنثور (١٣/ ٥٣٨).

ويخطئ أخرى، فسيتغفر ويجتهد، ويتعلم من الخطأ..

والتشديد على الناس فتنة لا شك فيها، بل حتى على النفس، فقد يجور الإنسان في حق نفسه، ثم يجور في حق الناس، فالذين يُكَفِّرون الناسَ أو يعتدون على دمائهم، ربما تكون البداية أنهم شدَّدوا على أنفسهم ابتداءً، فالخوارج أخذوا أنفسهم بعزائم شديدة في القيام والصيام، وكانت جباههم قد تثفنت[1]، ثم آلَ بهم الأمرُ إلى سفْك الدم الحرام، وانتهاك الحدود، وما وقع في التاريخ الإسلامي مما هو معروف.

قواعد وملامح فقه الاستطاعة:

قاعدة: «إذا ضاق الأمر اتسع»، لها علاقة بالاستطاعة وبالتيسير، فهي مما يجمع بين هذين اللونين من الفقه، فهذا يؤكد أن الأحكام الشرعية ليست قوالب جامدة، والاستدلال بالنصوص إنما يكون مع إدراك أن هذا النصَّ لا بدَّ مِن تحقيق مناطه، ورَبْطِه بالواقع، فإذا كان هناك ضيق ومشقَّة يُوَسَّع في الأحكام، كالتوسعة في السفر، والتوسعة على المريض، وعلى الصغار، وفيما يتعلق بالمرأة في اعتبارات معينة، والتوسعة في حال الحرب، وفي حال الفقر، حتى أباح الله سبحانه وتعالى ما هو حرام مثل أكل الميتة في حال الضرورة: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾.

و«إذا اتسع الأمر ضاق»، أي: إذا عاد الأمر إلى سعته، وأصبح الناس في خيارات عديدة، فإن الأمر يعود إلى ما كان عليه، فيرجع ما كان محرَّمًا حرامًا.

ومثل القاعدة الأولى قاعدة: «المشقة تجلب التيسير»، وذلك حين توجد

(١) أي: غلظت من كثرة السجود.

مشقة على الـمُكَلَّفين تستدعي التيسيرَ والتوسعة عليهم.. على الفرد أو على الجماعة، ومن العلماء مَن نصُّوا على أن حاجة الناس العامَّة تنزل منزلة الضرورة، أي: تزداد أهميتها؛ لأن المشقة هنا ليست مرتبطةً بفرد حتى يقال: عليه أن يتحمَّل ويصبر ويحتسب، وإنما هي مرتبطة بالأمة كلها..

العلاقة بين الرخصة والاستطاعة:

الرخصة أنواع: فهناك رُخَصٌ عامَّة، وهذه الرخص مفتوحة لنا مقابل ما هو عزائم، والنبي ﷺ يقول: «**إن اللهَ تعالى يحبُّ أن تُؤتى رُخَصُه كما يحبُّ أن تُؤتى عزائمهُ**»[1]، فهذا نوع.

وهناك الرخصة التي هي مرهونة بحال، مثل قصر الصلاة في السفر، أو جمع الصلاتين، أو المسح على الخف ثلاثة أيام بلياليها للمسافر، أو التيمم أيضًا لمن لم يجد الماء، وهذه أيضًا تُسمَّى رُخَصًا باعتبار أنها في مواجهة عزائم قبلها لمن توفَّرت له الأسباب.

والله سبحانه وتعالى قال في شأن قصر الصلاة: ﴿**فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا**﴾، فنفى سبحانه وتعالى الجناح عن الناس أن يقصروا الصلاة إذا كانوا في سفر.

ولما سُئل عمر رضي الله عنه عن الخوف هنا قال: إني سألت النبي ﷺ عن ذلك

(١) أخرجه أحمد (٥٨٦٦)، وابن خزيمة (٢٠٢٧)، وابن حبان (٣٥٦٨) واللفظ له، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

فقال: «**صدقةٌ تصدَّقَ اللهُ بها عليكم، فاقبلوا صدقَتَه**»[١].

وهناك نوع ثالث: وهي رخص العلماء التي خالف الفقيهُ فيها الجمهورَ، فالبعض يبحث عن رخص الفقهاء، فيأتي لكل فقيه فيأخذ ما ترخَّص فيه، ويأتي للآخر، وهكذا..

وقال سليمان التيمي لخالد بن الحارث: لو أخذت برخصة كل عالم لاجتمع فيك الشرُّ كلُّه[٢]. أي: فليس الأمر بالتشهِّي، وأن يأخذ الإنسان بشهوته ما يعجبه مِن هذا أو ذاك؛ لأن الشريعة مبناها على التكليف، وعلى احترام النصِّ.

فقه الاستطاعة ميزان:

يجب على الدعاة والفقهاء والمفتين، أن يديروا للناس أمرًا رشدًا في هذا الخصوص، يحفظ للناس دينهَم وانتماءَهم، لا يجعل حياة الناس تتحول إلى كَبَدٍ ونكَدٍ، ويصبح كثير مِن الناس متردِّدين حتى في أقلِّ الأشياء، وقد سألني أحد الشباب: هل يجوز أن أبتسم لكافر إذا لقيتُه؟ فقلت له: إن كانت الابتسامة تحتاج إلى فتوى، فالأمر عندنا عظيم.

إن الصحابة ﷺ انطلقوا على سجيَّتهم في أشياء كثيرة، فالرجل جاء للنبي ﷺ، فلما قعد قال له النبي ﷺ: «**جئتَ تسألُ عن البِرِّ والإثم؟**»، فقال: نعم يا رسولَ الله، قال له: «**استفتِ قلبَك، البِرُّ ما اطمأنت إليه النَّفسُ، واطمأنَّ إليه**

(١) أخرجه مسلم (٦٨٦) من حديث عمر ﷺ.

(٢) انظر: الجعديات (١٣١٩)، وحلية الأولياء (٣/ ٣٢)، وجامع بيان العلم وفضله (٩٠١)، والمستدرك على مجموع الفتاوى (٢/ ٢٥٨)، ولوامع الأنوار (٢/ ٤٦٦)، وفتح العلي المالك (١/ ١٨٩)، والدرر السنية (٢٢/ ١٥٤).

القلبُ، والإثمُ ما حاكَ في النَّفسِ، وتردَّد في الصَّدرِ، وإن أَفْتَاكَ النَّاسُ وأفتوكَ»[١].

فهذا دليل على أن الأمر ليس مقصورًا على العلماء الذين يَسْتَفتون قلوبهم، بل حتى العامَّة قد يستفتون قلوبَهم في مسائل معيَّنة؛ لأنهم أعرف بنيَّاتهم ومقاصدهم، وماذا أرادوا بهذا الفعل، والله سبحانه وتعالى تعبَّدنا بالمسؤولية الفردية، يقول جل وعلا: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا﴾، فأنتَ تعرف ماذا أردتَ بهذه النظرة، وما أردت بهذه الكلمة.

ملامح فقه الاستطاعة:

إن فقه الاستطاعة كما يتعلق بالفرد، يتعلق وبشكل أكبر بالأحكام السلطانية، وبأوضاع الأمة والدولة، فالاستطاعة تعني: القدرة على فِعْل شيء من الناحية المادية، ومن ناحية الآلة، ومن المهم معرفة الأثر المترتِّب على هذا الأمر، وأنه أثر إيجابي، والنصوص الشرعية تُرْشِد إلى إدخال موضوع اعتبار المصلحة والمفسدة بالنظر المعتدِل ضمن الاستطاعة، كما تُرْشِد إليها أحاديث عِدَّة، مثل حديث بناء الكعبة[٢]، وحديث تَرْك قتْل المنافقين[٣]، وتطبيقات العلماء في الأحكام السلطانية، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومجرد وجود الرغبة لا يعني الاستطاعة.

(١) أخرجه أحمد (١٧٩٩٩)، والدارمي (٢٥٣٣) واللفظ له، والبخاري في التاريخ الكبير (١/ ١٤٤)، والبيهقي في الدلائل (٦/ ٢٩٢). وأخرجه مسلم (٢٥٥٣) بنحوه من حديث النَّوَّاس بن سمعان رضي الله عنه.

(٢) صحيح البخاري (١٢٦)، وصحيح مسلم (١٣٣٣).

(٣) صحيح البخاري (٤٩٠٥)، وصحيح مسلم (٢٥٨٤).

فقه الاستطاعة ودور الآباء:

لا يستطيع ربُّ الأسرة اليوم أن يتصرف مع أسرته كما كان يفعل قبل مئة سنة؛ لأن هناك متغيِّرات في الواقع، وإذا لم نفقه هذه المتغيِّرات ونتقنها بشكل جيد، فسوف نقع في مزالق عظيمة، فقد أصبحت وسائل الإعلام موجودة في كل بيت، وأصبح الأبناء مرتبطين بالمدرسة وبالأصدقاء، ومرتبطين من خلال وسائل التواصل بمجتمعات بعيدة، وصار لهم مجتمعهم الافتراضي، فالاستطاعة التي كانت موجودة قبل عقود ليست هي الموجودة الآن، فإدارة خمسة أطفال في ظلِّ الظروف المعاصرة، ليست مثل ذي قبل؛ لذا لابد أن تلامس المثالية الواقع وتتماس معه، وتصححه، ولا تكسره أو تقفز عليه.

فقه التيسير

ذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه لفظ التيسير في مواضع عديدة، في مقام المدح والثناء، وفي مقام وصف الشريعة باليسر، كما في قوله سبحانه: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾، فخاطب النبي ﷺ بأنه سوف ييسِّره لليسرى، أي: الكلمة اليُسرى، وهي كلمة التوحيد، والشريعة اليسرى هي شريعة الإسلام، ونفى ضدَّها، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾، وهذا يدلُّ على أن التيسير روح تجري في الشريعة كلها، فهي في قواعدها وأصولها، وفي كلِّيَّاتها وتفصيلاتها ومفرداتها؛ ولهذا يقول النبي ﷺ: «بُعِثْتُ بِالحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ»[1].

وهذا يُفهَم على إطلاقه، فالسماحة هي سهولة فَهم العقيدة والدين، فالإنسان يستطيع أن يفهم الأصول والقواعد الكلية العامَّة للدين في وقت وجيز.

ومن شعار هذا الدين سهولة التكليف، ومراعاة إمكانيات الإنسان وقدراته وحدوده، فانحياز الشريعة لجانب اليسر ورفع الحرج عن الناس أصل وغاية،

(١) أخرجه أحمد (٢٢٢٩١)، والطبراني (٧٨٦٨)، والخطيب في الفقيه والمتفقه (١٢١٤) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه.

حتى كان بعض السلف -كما نقل عن الشعبي وعطاء، ومورق العجلي- يقول: «إذا اختلج في نفسِك أمران، لا تدري أيهما أقرب إلى الله تعالى، فخذِ الأيسرَ منهما، فإنه أقربُ إلى الله»[١].

فهذا مقام القاعدة، وكان سفيان الثوري يقول: «إنما العلم عندنا الرخصة من ثقة، أما التشديد فيُحسِنه كلُّ أحد»[٢]. أي: أن يُفتَى بالأحوط، فهذا يُحسنه كل أحد، لكن أن يُفتَى بالأيسر على الناس، خصوصًا في الأزمنة التي يكثر فيها الالتباس، ويتفرَّق فيها الناس، وتكثُر عليهم النوازل والقضايا؛ فهذا هو الفقه.

والمسكوت عنه في الشريعة عفو، كما قال النبي ﷺ: «وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ غَيْرِ نِسْيَانٍ، فَلاَ تَكْلَفُوهَا؛ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكُمْ فَاقْبَلُوهَا»[٣].

وهذا باب واسع جدًّا، وهناك أشياء كثيرة جدًّا مسكوت عنها، فتبقى في دائرة العفو والإباحة والسماح.

النوع الأول: التيسير الأصلي:

إن التيسير من القضايا التي يجب أن تُفْقَه جيِّدًا في الشريعة، فالتيسير أصل فيها: فالأصل في المعاملات الإباحة، وهذا من أعظم معاني التيسير، فأيُّ معاملة جديدة سواء كانت اقتصادية، أو إدارية، أو سياسية، فالأصل أنه مأذون فيها، ولا نحتاج إلى نصٍّ شرعي.

والأصل في الأعيان الطهارة، فالأشياء التي لم يُقْطَع بنجاستها، الأصل بقاؤها على الطهارة.

(١) انظر: مصنف ابن ابي شيبة (٢٧٠٠٨، ١١٦٤٤)، والفقيه والمتفقه (١٢١٥).

(٢) أخرجه أبو نعيم (٦/ ٣٦٧)، وابن عبدالبر في جامع بيان العلم وفضله (٧٦٦).

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط (٨٩٣٨)، والدارقطني (٤/ ٢٩٧) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

وفي مقابل ذلك أُعْتُبِرَ من التيسير الأصلي في الشريعة: أن الأصل في العبادات الحظر والمنع، فلا يمكن لأحد أن يُضيف عبادة جديدة؛ لأن هذا مقتضاه أن الناس يُضيفون بأهوائهم وظروفهم واستحقاقاتهم عباداتٍ جديدة، حتى تتحوَّل الحياة كلها إلى مجموعة من العبادات أو الطقوس أو الأعمال الخاصة.

النوع الثاني: التيسير الطارئ أو الاستثنائي:

فالشريعة جاءت بتخفيف الأحكام المنصوصة إذا كان الإنسان في حال ضرورة، ولهذا كان من القواعد التي تدور عليها كلُّ أحكام الشريعة قاعدة «المشقة تَجلُبُ التيسيرَ»، وقد عبَّر عن هذه القاعدة الشافعيُّ بقوله: «إذا ضاقَ الأمرُ اتَّسَعَ».

ومن التيسير الطارئ: أن يَسَّر الله سبحانه وتعالى للمضطر أَكْلَ الميتة والخنزير وغير ذلك، وليست الضرورة في المأكول والمشروب كما يظنُّ بعض الناس، بل تأتي في القضايا العلمية والفتاوى الفقهية.

قال ابن القيم: الفتوى بالرأي إذا لم يجد النص، من هذا الباب، فهو أمر طارئ استثنائي، رَخَّص الله فيه بسبب الضرورة[١].

النوع الثالث: التيسير الاستدراكي:

فمن حصل منه خطأ، فإنه يستدركه بالتوبة، وفتح الله تعالى باب التوبة للناس كلهم، ومن الذنوب كلها، بل أن يُبدِّل الله تعالى سيئات المذنب إذا تاب وأناب حسنات، فهذا من عظيم التدارك وجميل التيسير، فلم تبقَ الآصار والأغلال التي كانت على الأمم قبلنا.

(١) انظر: أعلام الموقعين (٤/ ١٥٧).

ومن تيسير التدارك: الكفَّارات، سواءً كانت كفَّارات عامَّة، مثل تحفيز الناس إلى العمل الصالح؛ لأن الحسنات يُذْهِبْنَ السيئات، أو كانت كفَّارات محددة، مثل كفارة اليمين أو الظهار أو الجماع في نهار رمضان، أو غيرها من الكفارات المعروفة، فالخطأ الذي مضى تستطيع أن تتداركه في المستقبل.

مراعاة المتغيِّرات:

يجب أن يُفهم أن معيار الشريعة ليس مجتمَعًا معَيَّنًا، فأكبر خطأ نفعله هو أن نجعل مجتمعًا ما هو معيار الشريعة؛ كالمجتمع العربي، أو الأفغاني، أو التركي.

إن معيار الشريعة يتعالى عن أن يجعل المألوف في مجتمع معين هو المعيار- ولو كان المجتمع العربي في زمن النبوة- ذلك أن المألوف في هذا المجتمع يخالف المألوف في ذلك المجتمع، وللمجتمعات ظروفها الخاصة، وربما مالت إلى نمط من التفقه والفتوى يغلب عليها تشديد أو تيسير، وانتساب إلى مذهب فقهي معين كالحنفية، والمالكية، والشافعية، الحنابلة.

كما أن الشريعة جاءت برعاية ظروف العصر، ولو نَظَرْتَ إلى سيرة النبي ﷺ في العهد المكي، وسيرة النبي ﷺ في العهد المدني، وجدت تغير الأحكام بحسب تغير الأحوال، وفي المدينة كان الرسول ﷺ أول الأمر يحبُّ موافقة اليهود فيما لم ينزل عليه فيه شيء، ثم بعد ذلك أحبَّ مخالفتهم، وأَمَرَ أصحابه وأُمَّته بمخالفة أهل الكتاب فيما هو من خصائصهم التي يتميَّزون بها.

سدُّ الذرائع:

إن في الشريعة أحكامًا منصوصة، وهذا الحكم المنصوص لا يتغيَّر إلا إذا كان معلَّلًا بعِلَّة تختلف من حال إلى حال، كما أن هناك استنباطاتٍ وفتاوى

ليست مبنية على نصٍّ خاص، وإنما مبنيَّة على قاعدة عامَّة، بل إن من الفقهاء كالإمام الشافعي وغيره من الأصوليين، تكلموا عمَّا يُسمَّى بعموم البلوى، ويعنون بها: ما يُبتلى الناس بعمومه، ويشق عليهم التحرز منه، فيُراعَى فيها التيسير، ولذلك قد ينقلون شيئًا من أحكام النَّجاسة إلى الطهارة؛ لعموم البلوى به، كما نُقِلَ عن الشافعي وغيره في عدد من المسائل، كبعض الهوامِّ أو غير ذلك، وكذلك نَقْلُ الحكم من الكراهة إلى الإباحة، أو من التحريم إلى الجواز؛ لأنه ليس فيه نصٌّ بخصوصه، أو أن هناك نصًا آخر يُسعف في نقله، وهنا يأتي دور المجتهد والفقيه في تقريب هذه المسائل وربطها بالواقع.

إن سدَّ الذرائع مختلَف فيه عند الأصوليين، وأكثر الفقهاء يعملون به بدرجة أو بأخرى؛ لكنهم يتفاوتون في حجم إعمال هذه القاعدة، فبعضهم يتوسَّع فيها، وبعضهم يُضيِّق؛ لكن التوسط هو المطلوب، ويبقى أن سدَّ الذرائع هي قاعدة واحدة من ضمن قواعد يقابلها قاعدة فتح الذرائع، أو قاعدة: ما لا يتمُّ الواجب إلا به فهو واجب.

فينبغي ألا ننهمك فقط في سدِّ الأبواب، وإنما ينبغي أن ننهمك أيضًا في فتح أبواب الخير للناس، وإيجاد البدائل المناسبة.

هناك الملايين في أنحاء العالم أصبحوا يتواصلون ويشاهدون صلاة الحرم، وخطبة الجمعة، والدروس العلمية، والبرامج المفيدة، وأصبح هناك تقارب فكري وعقلي وثقافي بين الناس إلى حدٍّ ما؛ فهذه فائدة عظيمة جدًّا، يُغتفَر إلى جوارها وجود ضرر جانبي.

الأجر على قدر المشقَّة:

قال النبي ﷺ لعائشة رضي الله عنها: «**إِنَّ لَكِ مِنَ الأَجْرِ عَلَى قَدْرِ نَصَبِكِ**»[١]، وذلك في خصوص مسألة معينة في العمرة، والمقصود المشقة المصاحبة للعمل، وليست المشقة المقصودة اختيارًا.

فالصوم في اليوم الطويل الحار أشد نصبًا منه في اليوم القصير البارد، ولكن هذه مشقة عارضة مصاحبة للعمل، وليست مقصودة ولا مختارة، فقد قال ﷺ للرجل الذي نَذَرَ أَنْ يَمْشِيَ: «**إِنَّ اللهَ عَنْ تَعْذِيبِ هَذَا نَفْسَهُ لَغَنِيٌّ**»، وَأَمَرَهُ أَنْ يَرْكَبَ[٢].

ولا يوجد أدلة شرعية على أن الأجر على قدر المشقة مطلقًا، بل الأجر على قدر الإخلاص والنية الطيبة، وعلى قدر الاتِّباع والموافقة لما كان عليه النبي ﷺ، وعلى قدر اجتهاد الإنسان واستفراغه وسعه.

إنه يُفترَض فينا ضرورة التعامل مع الخلاف ضمن موضوع التيسير؛ لأن البعض يَضِيقون بهذا المعنى، ويحاولون أن يقلبوا أدلَّة التيسير إلى ضدها، فيسمونها تمييعًا أو تساهلًا أو نحو ذلك، بينما هذا مبدأ شرعي أصلي، ينبغي أن نتوارد عليه جميعًا.

جانب التَّيسير:

قد يبدأ التيسير فقهيًّا، ثم ينتقل إلى التيسير الاجتماعي؛ لأن الدين ليس معزولًا عن حياة الناس، وإن من أعظم المقاصد أن نتوقَّف عن خصخصة الدين، أو احتكار الرحمة، وكلما استطعنا أن نيسر التدين ونسهِّله على الناس،

(١) أخرجه البخاري (١٧٨٧)، ومسلم (١٢١١)، والحاكم (١/ ٤٧١) واللفظ له.

(٢) أخرجه البخاري (١٨٦٥).

ونقرِّبه إليهم؛ كان ذلك أفضل لهم، لئلا يكون في ذلك نفيًا لهم، وإبعادًا لهم عن الدين، وأفضل للديانة نفسها بكثرة مَن يأوي إليها.

ومِنَ المقرَّر: أنه كلما شدَّدْتَ في الشروط، قَلَّ الدَّاخلون فيه، وقد يدخلون ثم يتبرمون، ويَضِيقون ذرعًا؛ لأنهم فقدوا جانب التيسير، الذي هو جزء من التكوين البشري..

فالذي نزَّل الشريعة هو الذي خلق الإنسان، والإنسان يحبُّ اليسر، قالت عائشة: «مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلاَّ أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا، مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ»(١).

وهذا الحديث يبرز لنا أنه من الخطأ أن يُفهم أن التيسير معناه التحلُّل من رِبقة الشريعة، فالتيسير هو الشريعة، وهو الوقوف عند حدود الله أيضًا، ومن الخطأ أن نظنَّ أن الإنسان كلما كان أكثر تحريمًا كان هذا أدلَّ على أنه أكثر تديُّنًا، فرَبْط التدين بالتحريم غلط كبير؛ لأن الذي يحرِّم الحلال ليس أقلَّ سوءًا ممن يحلِّل الحرام، وكلاهما على شفا هلكة، وعلى طرفي نقيض.

إن الدين هو ما شرعه الله تبارك وتعالى، وما شرع الله من الحلال أعظم وأكبر وأكثر من الحرام، فينبغي أن لا يُفْهَم أن الدين مرتبط بالمنع والتحريم، بل الدين مرتبط بالحلِّ والإباحة والسماحة والعفو؛ ولذلك نجد أركان الإسلام خمسة، وأركان الإيمان ستة، ثم هناك واجبات دون ذلك، بينما المأذون فيه والمسكوت عنه دائرة واسعة لا تتناهى، وسيوجد لدى الأجيال القادمة أشياء لا نعرفها الآن، هي داخلة في دائرة الإذن.

(١) أخرجه البخاري (٣٥٦٠)، ومسلم (٢٣٢٧).

إن الحياة لا تحتمل الاحتياط المُفْرِط، وأصحاب النبي ﷺ ألـمَّت بهم أمور منها: مسألة كتابة السنة النبوية، وكان من الممكن على ضوء المنع والتحريم أن لا يأذنوا بذلك، وأن يقولوا: إن عندنا من النبي ﷺ نصًّا صريحًا في النهي عن كتابة السنة، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**لا تَكْتُبُوا عَنِّي شَيْئًا إِلاَّ الْقُرْآنَ، مَنْ كَتَبَ شَيْئًا سِوَى الْقُرْآنِ؛ فَلْيَمْحُهُ**»(١).

فهذا نص واضح، ومع ذلك أجمع الصحابة رضي الله عنهم على كتابة السنة النبوية؛ لأنهم رأوا مصلحة راجحة في هذا الأمر، وعلموا أن نهي النبي ﷺ مُعَلَّل بخشية اختلاط القرآن بالسنة، وهذا المثال قد لا يستطيع أن يستوعبه كثير من الذين يميلون للتشدد اليوم؛ لأنه مثال تاريخي لا يعايشونه، ولذلك يمرُّ بهم مرور الكرام، ولو عرضت مثالًا آخر نظير هذا المثال تمامًا، وهم يعايشونه، ولا نصَّ فيه؛ لم يستطيعوا أن يستوعبوه، فالمشكلة أننا نتعصَّب للمألوف مما قرأناه وما سبق إلى عقولنا، كما لو كان ديانةً نحامي عنها بقوة وإفراط.

حقيقة التيسير:

قد تنبع المشكلة من ترسيم المجتمع كمعيار، فترسيخ ما هو مألوف في المجتمع، سواءً كان مذهبًا أو اجتهادًا أو فتوى لبعض الأئمة والعلماء كمعيار.. مشكلةٌ موروثةٌ.

وليس المقصود بالحديث عن التيسير: الانقلاب على المجتمعات، أو نَقْلها من وضع إلى آخر، فليكن المجتمع محتفظًا بطبيعيته وخصوصيَّته، سواء كانت نوعًا من المحافظة أو التسامح، لكن ينبغي أن يُضاف إلى هؤلاء أَو إلى

(١) أخرجه أحمد (١١٠٨٥) واللفظ له، ومسلم (٣٠٠٤).

هؤلاء جرعاتٌ تجعلهم أقرب إلى جادة الوسط والاعتدال.

إن كثيرًا من الناس يُسَلِّمُون لك بالمقدمة، لكنهم يعطلونها بالاستدراكات والتقييدات؛ فيقولون: التيسير جيِّد، «ولكن». أعطِ نَفَسًا كبيرًا جدًّا للتيسير، واترك «لكن» تأتي بعد منتصف الطريق، أما أن تكون في البداية، فمعناه أنه تسيلم بالمقدمة فقط، ونفي للنتائج.

إن ابن تيمية رحمه الله حاضر في مجتمعاتنا العربية، وأعتبره رمزًا من رموز التيسير المعتدل في فتواه وفي نصوصه وأقواله، وقد خالف الأئمة الأربعة في قضايا ضخمة، مثل الطلاق بالثلاث وطلاق الحائض، وفي قضايا اقتصادية وسياسية واجتماعية، وتحمَّل تبعة ذلك، فقد سُجِنَ وأُوذي ورُدَّ عليه، وكان رحمه الله واسعًا، إلى حدِّ أنه يقول - كما في بعض تراجمه -: الفروع أمرها قريب[١].

وهذا من التيسير، فهو نموذج ومثال ينبغي أن يُفعَّل، ومن الأشياء الجميلة في كلامه رحمه الله قوله: إنه ربما حجبَ اللهُ تعالى معرفةَ الرخصةِ عن بعض الناس، فكان ذلك عقوبةً لهم، وربما حجبَ اللهُ التحريمَ عن بعضِ الناسِ، فكان هذا توسعةً عليهم، ورخصة لهم[٢].

أما الترهيب بعبارة التمييع، فهي تعبيرُ أناس لا دليل لديهم، ولا يجب أن يُتَصَوَّر أن دين الله علبة آيس كريم تذوب بهذه السهولة.

إن الله قد تكفَّل بحفظ دينه، وقد مرَّت به حروب طاحنة، وتعاقبت عليه الأيام والدهور، وتغيَّرت الدول والأمم والشعوب، وبقي هذا الدين راسخًا

(١) انظر: الأعلام العلية (ص ٣٣).

(٢) انظر: الأعلام العلية (ص ٣٣).

شامخًا حصينًا، فلا ينبغي أن يكون عندنا إفراط في الخوف، حتى كأننا نحن الأوصياء على هذا الدين، أو أنه باقٍ ببقائنا.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ**». فيحكي عن حقيقة الدين، وأنها تتلخَّص بأنها يُسْرٌ، ولم يَرِد في نص آخر أن الدين عسر، أو شدة، أو مشقَّة، بل ورد: «**إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلاَّ غَلَبَهُ**»؛ أي: يجعل طبيعته المتشدِّدة تغلبه على حقيقة هذا الدين من التيسير، فيغلبه الدين، ويبقى الدين بسماحته ويُسْرِه، ويبقى هذا الإنسان يحمل تشدُّده على ظهره ووزره، «**فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا**»، أي: إذا لم تصيبوا فاقتربوا من الصواب، «**وَأَبْشِرُوا**»[١]، والبشارة جزء من التيسير.

فليست المسألة فقهية فقط، وإنما بمفهوم التدين الشامل والتسامح مع الناس والنفس، ومع كل شيء، يقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**سَدِّدُوا**[٢]، **وَقَارِبُوا**[٣]، **وَاغْدُوا، وَرُوحُوا، وَشَيْءٌ مِنَ الدُّلْجَةِ**[٤]، **وَالْقَصْدَ الْقَصْدَ تَبْلُغُوا**»[٥].

فالذي يبلغ نهاية المضمار والمشوار، هو الذي لا يحمل نفسه على الأمر العنت.

من الشعارات التي يجب أن نُروِّجها، وأن نتفهَّمها فيما بيننا في مسألة التيسير: التياسر أو المياسرة، فيكون هو العلاقة التي تحكم الناس فيما بينهم.. في الأخذ والعطاء والحقوق، بين الحاكم والمحكوم، والأب والابن، والزوج

(١) أخرجه البخاري (٣٩).

(٢) أي: الزموا السداد، وهو التوسط في العمل من غير إفراط ولا تفريط.

(٣) أي: اقتربوا من فعل الأكمل.

(٤) أي: استعينوا على مداومة العبادة بإيقاعها في أوقات النشاط مثل الغدوة: أول النهار، والروحة: بعد الزوال، والدلجة: آخر الليل.

(٥) أخرجه البخاري (٦٤٦٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والزوجة، والشريك وشريكه، والجار وجاره، بدلًا من أن تكون العلاقة المشاحَّة أو المشادَّة، ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾، و«رَحِمَ اللهُ رَجُلًا سَمْحًا إِذَا بَاعَ، وَإِذَا اشْتَرَى، وَإِذَا اقْتَضَى»[١].

ويمكن أن نسلك مصطلح «تيسير التيسير»؛ لأن بعض تيسيرات الدين يُوضَع عليها من الآصار والأغلال والشروط ما يحوِّلها إلى شدة وعنت، ويُفقِدها معنى الرخصة والتيسير، فالسعي إلى تيسير التيسير أن تأخذ الناس بظاهرهم وبحُسْن عملهم، وليس باتهام نيَّاتهم، ومنه أن تأخذ الناس إلى أيسر الطرق، بدلًا من أن توجِّههم إلى الوعر والصعب وهم لا يستطيعون، وليس صوابًا أن نضع أمام الناس عقبات في طريق الهداية والاستقامة.

تتبُّع الرُّخَص:

المقصود بتتبع الرخص المذموم هو: البحث عن القول الأسهل، بغضِّ النظر عن قائله وعن دليله، أمَّا إذا تكافأ عنده قولان اختار أيسرهما، فهذا هو ما كان يفعله النبي ﷺ، ما لم يكن إثمًا[٢].

فهناك فرق بين مَن يتتبَّع القول المبيح، بغضِّ النظر عن دليله أو قائله، وبين آخر عنده تمييز وقناعة، فيختار هذا القول لدليله، أو يختار هذا القول لثقته بقائله وناقله؛ فهذا لا حرج فيه.

التيسير الاجتماعي:

المجتمعات أنواع، فهناك مجتمع التياسر، وهو الذي يحكم علاقة أفراده بعضهم ببعض أو مؤسساته التيسير فيما بينهم، فهذا المجتمع يفتح شهيَّة الأفراد

(١) أخرجه البخاري (٢٠٧٦).

(٢) أخرجه البخاري (٣٥٦٠)، ومسلم (٢٦٢٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

للحصول على النجاح، وقنص الفرص، كما يعينهم على تحقيق ذواتهم؛ لأن كل فرد يريد أن يُحقق ذاته، وهذا مما جُبِل عليه الإنسان، أن يقال: أن ترى بالعين بعض آثاره وأعماله.

وكنْ رجلًا إن أتوا بعدَه يقولون: مَرَّ وهذا الأثرُ

وهذا معنًى من التيسير يجب أن نسعى إليه في مجتمعاتنا، فمجتمعات العرب والمسلمين اليوم تقصم طموح الإنسان، وتَئِد رغبته، وتضع الكثير من العراقيل أمامه، فالحصول على النجاح، وإدراك الفرصة في هذه المجتمعات أمر عسير المنال، ثم إذا حصلت فالمحافظة عليها أصعب، ثم أن يُضيف إلى نجاحه نجاحًا آخر صعب جدًّا، فيجب أن يكون من التياسُر في مجتمعاتنا سهولة إتاحة الفرصة للحصول على عمل، أو لإدراك نجاح داخل المجتمع.

إن مما يحتاجه المجتمع بشدة: عفوية التعامل بين أفراده، فيتعامل الناس مع بعضهم بسهولة ويسر، دون أن تكون روح المؤامرة هي التي تحكم علاقة بعضهم ببعض، فكأن كلَّ واحد يضع خلف ظهره سكينًا، أو وسيلة للدفاع، وهو ينتظر من الآخرين أن يهجموا عليه؛ ليُدافع عن نفسه!

إن الشعور بالخوف المتبادَل، لا يُساعد على تكوين مجتمع حقيقي.

ولذا كان النبي ﷺ لا يأذن لعمر رضي الله عنه في مواقف كثيرة، حين يستأذنه بقوله: دعني أضرب عنقه[1]؛ محافظًا على هذا المبدأ، وهو السلم الاجتماعي مع ضخامة الأخطاء، وعظم الجرائر.

وكذلك كان الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم، وما كان عمر يتعامل بشدة مع أولئك

(١) أخرجه البخاري (٣٠٨١)، ومسلم (٢٤٩٤) من حديث علي رضي الله عنه.

وفي حضرة النبي ﷺ، إلا أنه كان سيفًا مسلولًا بيد رسول الله ﷺ - كما قال-: «إلَّا أن يغمدني أو ينهاني عن أمر فأكفَّ»[١].

ولذلك حين ولي الخلافة كان رضي الله عنه وأرضاه الغاية في الرفق والعدل بالرعية، والرحمة والتسامح معهم.

لقد جَبَلَ الله الحياة البشرية على أنها مجموعة من الأخطاء والصوابات والنقائص والكمالات، فطَلَبُ البدائل الكاملة للأشياء لا يتفق مع قانون التيسير، ولكن كما قال النبي ﷺ: «**فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا**»[٢]، فبعض الأشياء لا تمكن الإصابة فيها تمامًا، وهذا معنى السداد، ومعنى التقارب، أي: لا تبعد كثيرًا، وقد قال النبي ﷺ للأنصار: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً**»، يعني: استئثارًا بالمال وبالحكم والسلطان، فقالوا: فما تأمرُنا؟ قال: «**تَصْبِرُونَ حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الحَوْضِ**»[٣].

إن روح الصراع قائمة وبشكل قوي داخل مجتمعاتنا، وكأن الإنسان لا يستطيع أن يحصل على حقِّه إلا من خلال خوض معارك بين الحاكم والمحكوم، والزوج والزوجة، والابن والأب، والطالب والمدرس، والتاجر والمستهلِك، ومعركة بين المؤسسة والأخرى المنافِسة لها!

فالمُيَاسرة والتسامح والعفو والإغضاء، معانٍ راقية وعظيمة في المجتمعات.

---

(١) أخرجه الحاكم (١/ ١٢٦)، والبيهقي في الاعتقاد (ص:٣٦٠)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٧/ ١٤٠٤)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٤/ ٣٦٦).

(٢) أخرجه البخاري (٣٩)، ومسلم (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٣٠٣٥) واللفظ له، والبخاري (٧٠٥٧)، ومسلم (١٨٤٥) من حديث أسيد ابن حضير رضي الله عنه.

إن من التيسير الاجتماعي: التيسير في التعامل مع الخطأ، وتسهيل الخروج منه، فالأعرابي الذي بال في المسجد أخطأ خطأً كبيرًا ومخالِفًا للشريعة وللذوق، ومع ذلك كان تعامل النبي ﷺ معه في غاية الرفق والتيسير؛ حتى إنه قال: «دعوه»، أي فالأمر يسير، وبدلًا من إعناته يُصَبُّ ماء في مكانه، فيطهر هذا المكان..

والرجل يُعلَّم، فلا يتكرر منه الخطأ، والنبي ﷺ في الوقت الذي علَّم الأعرابيَّ فيه آداب وأخلاق المسجد، انتقل إلى الصحابة وعلَّمهم أدبًا آخر، هو أدب التيسير، فقال: «**فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ، وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ**»(١).

فهذا يؤكِّد على عدم ملاحقة الناس بأخطائهم، وترك الإلحاح عليها والمحاصرة بها.

وإنَّ من التيسير: منح الأجيال الجديدة الفرصة للتعبير عن ذاتها، من خلال اختياراتها، ولبسها، ووسائل الترفيه، وما إلى ذلك، إذا كان لا يخالف الشريعة، ولا يتمرَّد على كريم الأخلاق والمروءات.

لوثة التشديد:

كان عمر رضي الله عنه يقول في مسألة الكَلالة: «وَإِنِّي إِنْ أَعِشْ أَقْضِ فِيهَا بِقَضِيَّةٍ، يَقْضِي بِهَا مَنْ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَمَنْ لاَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ»(٢).

والكَلالة من مسائل الفرائض، وليست من العلم الذي يفهمه كل أحد، وإنما هي من العلم الخاص، ومع ذلك كان عمر رضي الله عنه يُخطِّط أنه إذا عاش فسوف يحكم في الكَلالة بقضية يعرفها كل أحد، مَن يقرأ القرآن، ومَن لا يقرأ

(١) أخرجه البخاري (٢٢٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٥٦٧).

القرآن.. وهذا يُذكِّر بقصة الخليل بن أحمد صاحب علم العروض الذي كان يقول: إنَّه يُفكِّر بعلم في الحساب تذهب به الجارية إلى البقال، فلا يظلمها[١].

فتاريخنا زاخر بأفكار ومحاولات لتسهيل المعرفة، والحصول عليها، وتسهيلها في المؤلَّفات، وفي التقنيات ووسائل التواصل، والتي يمكن أن تُوظَّف توظيفًا جيِّدًا لتحصيل العلم والمعرفة.

وفي المدارس يكون هناك تنوُّعٌ في التعليم والمعرفة.

وإن من التيسير المهم: تيسير العلاقة بين المدرس والطالب، وأن تكون علاقة دافئة، فليس نمط المدرس الناجح هو الصارم القسمات، الحادُّ الملامح؛ ولكنه ذالك القادر على احتواء الطلاب، وتحفيزهم، وتطوير قدراتهم.

التيسير الاقتصادي:

هناك ما يُسَمَّى بالبيروقراطية، وهي طول الإجراءات ورتابتها، فتجد المعاملة تمشي على ظهر سلحفاة، ومع الوقت تزداد تثاقلًا وبطئًا، والناس دائمًا يشتكون من هذه البيروقراطية القاتلة، التي تحول دون إنجاز أعمالهم ومشاريعهم.

لقد نجح العالم اليوم في القضاء على هذا الهرم الورقي، وتخفيف المعاملات إلى أبعد حدٍّ، فالحكومة الإلكترونية سهَّلت إمكانية أن يُراجع الإنسان كل الدوائر، ومن دون زحام، أو إتلاف للوقت، ويستطيع أن يقضي الكثير من مهامِّه، من خلال برامج وتطبيقات هاتفه المحمول، فيتواصل مع جميع الدوائر وجميع الفئات بيسر وسهولة.

(١) انظر: وفيات الأعيان (٢/ ٢٤٨)، وبغية الوعاة (١/ ٥٦٠)، وأبجد العلوم (٣/ ٤).

وكذلك التشريعات أو الأنظمة، ففي معظم البلاد العربية أنظمة سهلة، فالنظام بحدِّ ذاته ممتاز وسهل، ودليل على أن الذي وضع هذا النظام استحضر قضية السهولة والتيسير على الناس؛ لكنك تجد جوار ذلك مجموعةً كبيرة من القرارات، والشروحات، والتعليقات، والاستدراكات.. التي تحوِّل هذا النظام السهل إلى نظام معقَّد وصعب جدًّا، وربما يُؤخَذ المجموع بخطأ الواحد، أي: لو أن واحدًا أخطأ في أقصى الغرب، فستجد أنه يُسَنُّ نظام في جميع البلد يعمُّ الناس كلَّهم، وفيه تشديد وتعقيد، بسبب واحد عمل هذا العمل بدون ضمير.

ومن ذلك أن أستاذًا في الجامعة يقول: كنت ذاهبًا في رحلة علمية، ولما رجعت من أجل أَخْذ مستحقَّاتي، قالوا لي: أعطنا الجواز. فقلت لهم: ولِـمَ أعطيكم الجواز؟ قالوا: نتأكَّد أنت سافرت أم لا؟ فتساءل قائلًا: أنا مؤتمَن على عقول الطلاب وأخلاقهم، ولست مؤتمَنًا على مبلغ قليل من المال؟!

فقالوا: لا تعتب علينا؛ إذ إن هناك شخصًا في الجامعة الفلانية تبيَّن أنه أخذ المستحقَّات ولم يسافر، فيا للعجب.. كيف تسقط الثقة بسبب زَلَّة من شخص لم يقدِّر المسؤولية؟! وهل أُعَاقَب بجريرة غيري، ويُشدَّد عليَّ لتفريط سواي؟!

إننا عكسنا القضية، وآخذنا الناس، وأغفلنا حجم الصواب الكبير الذي يحدث من الناس، وفَعَّلنا نسبة قليلة من الخطأ لإحداث هذا التشديد في الإجراءات والأعمال والأنظمة، التي تحول بين الناس وبين النجاح والتيسير، ومَن يسَّر يسَّر الله عليه..

إن روح التيسير يجب أن تسري في تعاملنا مع التدين، ومع الحياة نفسها الأسرية والزوجية، وفي تعاملنا مع الوظيفة، ومع الفرص التي تُتاح لنا، فالتيسير مِن شأنه أن يجعل الإنسان يحتفظ بشخصيته، ويجد فرصة سهلة وقريبة لتحقيق ذاته.

والخطأ موجود عند الناس كلِّهم، ولذا يراعى المخطئ عند تصحيح خطئه، فلا نُحرِجه بالخطأ، أو نحاصره به، أو نُضَيِّق عليه، وكأننا لا نريد أن ينهض، بل ينبغي أن نساعده على النهوض، وعلى نسيان الخطأ، «**لَا تَكُونُوا عَوْنًا لِلشَّيْطَانِ عَلَى أَخِيكُمْ**»[1].

(١) «مسند أحمد» (٤١٦٨).

فهرس المحتويات

تقديم ٥

فقه الحياة ١١

أولاً: الحياة منحة إلهيَّة ١١

ثانيًا: الحياة بناء وتضحية ١٤

ثالثًا: الحرب والحياة ١٥

رابعًا: الحياة عبادة ١٩

خامسًا: المبالغة في الحديث عن الموت ٢١

سادسًا: الحياة فطرة ٢٢

سابعًا: الحياة رحمة ٢٤

ضغوط الحياة ٢٧

علاج ضغوط الحياة ٢٨

مقاومة الضغوط ٣٠

فقه الموقف ٣٥
أولاً: مفهوم الفقه وغرض الفقيه ٣٦
ثالثًا: حقيقة الخلاف الذي أقرَّته الشريعة ٤٦
رابعًا: الموازنة بين القصد والولاء، وبين الفقه والتصور ٥٢
خامسًا: التفاضل في التكليف ٥٦
فقه الجهاد..... ٦١
طبيعة الموضوع..... ٦١
الجهاد الكبير..... ٦٣
القتال وميدانه ٧٠
جهاد الطلب وجهاد الدفع..... ٧٤
الفتوحات الإسلامية ٧٥
طبيعة العلاقة مع غير المسلمين ٧٨
الانحياز للحياة..... ٨١
فقه الأولويات ٨٣
إن فقه الأولويَّات فرع عن مجموعة مِن العلوم ٨٧
فقه الأولويات في قضايا الأمة..... ٨٩
أنواع الأولويات..... ٩٣
أهمية فقه الأولويات ٩٥

تناول الأولويات ٩٦
تطبيقات لفقه الأولويات ٩٨
كيف نحدِّد الأولويَّات؟ ١٠١
معايير الأولوية ١٠٢
إدارة الأولويات ١٠٤
الوقت والانتفاع به ١٠٦
نماذج من الأولويات ١٠٧
فقه الموازنات ١١٣
أولًا: تعريف الفقه ١١٣
ثانيًا: معنى الموازنات ١١٤
ثالثًا: تعريفه ١١٤
رابعًا: استمداد فقه الموازنات ١١٦
خامسًا: ما كتب في فقه الموازنات ١١٧
سادسًا: تأصيل شرعي ١١٩
مع الآيات ١٢٤
سابعًا: أنواع الموازنات ١٢٩
وثَمَّةَ توازنٌ آخر لطيف هنا ١٤٦
فقه الازمات ١٥٥
مدى الأزمة وحدودها ١٥٩
أخلاقيات الأزمة ١٦٢

الأول: الصبر..... ١٦٣
الثاني: الحلم والهدوء: ١٦٣
الثالث: التسامح والإعراض..... ١٦٤
الرابع: الحبُّ وتعاطيه وإشاعته..... ١٦٤
الخامس: حُسْنُ الظنِّ ١٦٥
السادس: أداء الحقوق وعدم انتظار الردِّ..... ١٦٥
السابع: فِعْلُ الجميل للآخرين..... ١٦٥
الثامن: التفاؤل ١٦٦
التاسع: عدم الانخراط في مقارنات غير مُجْدِيَة ١٦٦
أسباب الأزمة ١٦٦
طريقة تعاملنا مع الأزمة ١٦٧
الحلول..... ١٧٠
إدارة الأزمة ١٧٢
فقه التعامل ١٧٥
ابدأ بنفسك..... ١٧٥
التعامل مع الناس ١٧٦
طلاقة الوجه ١٧٨
الخلق الحسن..... ١٨٠

فقه التدين ١٨٣
حب الحياة..... ١٩٧
فقه الاستطاعة ١٩٩
الاستطاعة وضوابطها ١٩٩
التضييق على الناس ٢٠٠
الاستطاعة والتيسير وفقه الأقليات ٢٠١
فقه الأقليات ٢٠٤
العزيمة وفقه الاستطاعة ٢٠٥
ضابط الاستطاعة..... ٢٠٦
فقه الاستطاعة والتدرج ٢٠٨
بين الاستطاعة والتشديد ٢٠٩
قواعد وملامح فقه الاستطاعة ٢١٠
العلاقة بين الرخصة والاستطاعة ٢١١
فقه الاستطاعة ميزان ٢١٢
ملامح فقه الاستطاعة ٢١٣
فقه الاستطاعة ودور الآباء..... ٢١٤
فقه التيسير..... ٢١٥
النوع الأول: التيسير الأصلي ٢١٦
النوع الثاني: التيسير الطارئ أو الاستثنائي..... ٢١٧

النوع الثالث: التيسير الاستدراكي ٢١٧
مراعاة المتغيِّرات..... ٢١٨
سدُّ الذرائع..... ٢١٨
الأجر على قدر المشقَّة..... ٢٢٠
جانب التَّيسير ٢٢٠
حقيقة التيسير ٢٢٢
تتبُّع الرُّخَص ٢٢٥
التيسير الاجتماعي ٢٢٥
لوثة التشديد ٢٢٨
التيسير الاقتصادي ٢٢٩
فهرس المحتويات..... **٢٣٣**